رسائل

ابي بكر الخوارزمي

تقديم

الشيخ نسيب وهيبه الخازن

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

رسائل الخوارزمي

رسائل أبي بكر الخوارزمي

لقطب دهره في الأدب ، وعنوان عصره في الفصاحة والبلاغة ، قدوة الادباء ومحط رجاء العلماء أبو بكر الخوارزمي.

دار مكتبة الحياة - بيروت

مقدمة

بقلم : الشيخ نسيب وهيبه الخازن

دفعت إليّ دار مكتبة الحياة أربع ملازم نموذجية من رسائل الخوارزمي والحت بسرعة التقديم للكتاب . وكانت المطبعة تدور وقد تركت صفحات ثلاث بيضاء للمقدمة .

وتصفحت الملازم الأربع وأنا أنتظر أن أجد نثراً فنياً منمقاً مزخرفاً كثرت فيه الاستعانة بالبديع والسجع : صناعة محضة لا تلتفت إلى المعنى التفاتها إلى المبنى ، شأن الأساليب المميزه لما نسميه العصر العباسي الثالث .

وما لبثت أن وجدت بلاغة وسلامة ذوق ، وغزارة علم : صفات تذكر القارىء بالأستاذين ابن العميد والقاضي الفاضل .

كان ما يلفت نظري إلى الخوارزمي كونه ابن أخت الطبري صاحب التاريخ. وقد جاء ذكره في وفيات الأعيان وفي يتيمة الدهر وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان . وكنت أعرف أنه أقام بالشام مدة وسكن نواحي حلب ، وقصد الصاحب بن عباد وهو في أرّجان ، وجالسه ، واشتهر بكثرة حفظه

وهو الذي لما سئل عما إذا كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب أجاب : « أمن شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ » .

على ذلك تصفحت الأربع والستين صفحة الأولى ونقلت ما رأيته نموذجياً في تراسل الخوارزمي ومن ذلك كتابه إلى يزيد صاحب سمرقند :

« ذنوب الزمان التي إذا ذكرتها كانت غيبة سيدي أولاها . وانقطاع أخباره عني وسطاها . . فيا سبحان الله في أي طالع ولدت . وعلى أي بخت رزقت . فحيثما أواصل أرى صدا . وأينما أتوجه لا أرى سعداً . قال ابن المعتز « الحمد لله حتى أنت تجفوني » . وأنا أقول : قولي لمولاي في الدنيا وفي الدين «الحمدلله حتى أنت تجنوني » إنما أعاتب سيدي لاتوصل بذلك إلى حلاوة أعتابه » .

كتب إلى الوزيرابن‌عباد لما ورد باب جرجان لقتال الامير قابوس بن وشمكير :

و « الوزير بصدد حرب . والمحارب يحتاج إلى طبقات الناس فيجعل الحاضر منهم عدة وعتاداً والعامة حشوا وسوادا . . وإذا ورد علي به اذن ، طفرت إلى عسكره طفرة تطوي المراحل وتأكل المناهل » .

وكتب معزياً عن ابنة لكثير بن أحمد :

« إن الفجيعة إذا لم تحارب بجيش البكاء ، ولم تقابل بالاذاعة واشتكاء ، تضاعفت داؤها وزادت أعباؤها » .

« لعل انحدار الدم يعقب راحة — من الجد أو يشفي نجي البلابل »

« ولأن تكون الواقعة في الصغير خير من أن تكون في الكبير »

« وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل المتوفاة لوالديها فرضاً وأجرا ، وكنزاً من كنوز الجنة وزخراً . وأن يجمع بينها وبين البتول السيدة فاطمة بنت الرسول ، وبين خديجة الأسدية وآسية الاسرائيلية ، بنات الأكرمين ، وأزواج المرسلين وأن يحشرها شفيعاً تقبل شفاعته وتقضي في والديه وأهل بيته حاجته . . وأن يعوض عنها الشيخ أخاً لها سوي الخلق والخلق ، شريف الفعل والعرق ، يستوفي الشيخ في يومه أجر الصابرين ، وفي غده جزاء الشاكرين . وليكون قد قضى الله تعالى حق الربوبية من طرف العبودية . وأن تكون هذه الحادثة خاتمة حوادث الزمان . . حتى يشتغل بالتهاني عن التعازي وبالمدائح عن المراثي . والسلام »

وكتب إلى محمد العلوي جواباً عن كتابه :

« الكتابة . . . صناعة ، مجانستي لها مجانسة النور للظلام . ومناسبتي لها ، مناسبة الأوز للنعام . لم أقرع بابها ولم أعلق بأسبابها ، ولم أعاشر أربابها وأصحابها ولا ادعيتها بقلمي ولا بلساني . ولا أدعاها لي أصدقائي واخواني » .

« وسألني السيد أن أسأله بعض هدايا تلك الناحية . لا والله لا أعرف نفيسة ولا طرفة خطيرة تعدل عندي وجه . فليهده إلي . وليخلع نظره إليه علي . وليعلم أنه إذا فعل ذلك فقد زف إليّ الدنيا في معرض الجمال ، وأهدى إلي السعود بين طبق ومكبة من الاقبال » . .

لا يكتب إلي السيد بخط غيره لأني إذا قرأت كلامه من آثار بنانه فقد جنيت الورد من أغصانه » .

وكتب إلى صاحب الديوان :

« أرجع إليه وعن يميني الرجاء يقربني منه . وعن يساري الحياء يطردني عنه أحب أن أزف أبكار المعاني وأن أغرب في الثناء لمن يغرب في الثناء » .

هذا قليل مما كان بودنا أن نكتب عن الخوارزمي . ولكننا أردنا بهذه الكلمة أن نفتح باب الاطلاع على هذه الرسائل التي طبعت قبل مئة سنة ثم أهملت إلى أن تناولتها دار مكتبة الحياة بالنشر ، وهي الدار التي دأبت على جمع تراثنا وبعث ما أهملنا منه ونسيناه ! .

نسيب وهيبه الخازن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين * هذه رسائل الأستاذ ابي بكر الخوارزمي رحمه الله تعالى .

* * *

«كتب بها الى الحاجب ابي اسحاق لما نكبه الوزير ابن عباد رحمه الله»:

وفقك الله في مراجعة الحق لما تستحق به انتهاء محنتك * والهمك في استيفاء شرائط التوبة ما يطرق لك النهوض من صرعتك * ولا خلصك الله مما أنت فيه من جناية غيرك عليك * حتى يخلصك مما كنت فيه من اساءة نفسك اليك * فان نفسك اعظم خصميك * وان كانت اصغرهما لديك * وقد مثلت ايدك الله بين ان احرش لك كلامي * وافوق نحوك سهامي * واقضي بذلك حق عظتك * واخرج من عهدة ما يلزمني في هدايتك * وبين ان الين مس قولي لك * فتبقى في نفسي حاجة من نصيحتك * فرأيت الاول علي اوجب * وإلى الصواب اقرب * هذا وانا اقول :

اخوك الذي ان اجرضتك ملمة ... من الدهر لم يبرح لها الدهر واجما

(ولا أقول) :

وليس اخوك بالذي ان تشعبت   عليك امور ظل يلحاك لائما

أصاب المرقش ايدك الله في بيت الواجم * ولم يصب في بيت اللائم * وكيف يهدي الطريق لرشده في غده * دون ان يلام عل غيه في امسه * وكيف يتوصل إلى تحسين الصواب الآنف * الا بتقبيح الخطأ السالف * وكيف لا يلام المسيء والنهي عما بعد يقتضي اللوم على قبل * وكما لا بد في الكلام من الاثبات والنفي * كذلك لا بد في العظة والنصيحة من الامر والنهي * فاللوم إذاً على هذه القضية اجدر * إذ كانت النصيحة التي عليها قامت * وبها استقامت * وهل يلوم المرء إلا اخوانه الاقارب * وهل يرخى له عنان العذل ويتجوز معه في اللوم إلا معارفة الاجانب * وإذا فرغت للحق زاوية من قلبك * وحكمت على هواك لعقلك * علمت ان ما تكره فيما تحب * خير لك مما تحب فيما تكره * وان دواء تستبشعه وفيه شفاؤك * خير من غذاء تستلذه وفيه داؤك * ولئن كان ظاهر كلامي يلدغك * فان باطنه لينفعك * وانت ايدك الله تعلم انك كنت من الذل في مكان يتخطاك فيه الناظر * ويدوسك الخف والحافر * لا يشرفك نسب * ولا يرفعك ادب * ولا يرجوك صديقك * ولا يخافك عدوك * عن يمينك الخمول * وعن يسارك الذبول * وبينهما الفقر الذي لو قسم على الاغنياء * لصاروا فقراء * والضعف الذي لو فرق على الاقوياء لعادوا ضعفاء * تصبح في قل * وتمسي في ذل * وتروح إلى انثى وتغدو إلى طفل * فانصفك الدهر الظالم * وانتبه لك البخت النائم * واراد الله تعالى ان يرفع من حكمتك * ويقوم من قنبور حدبتك * فينظر كيف تعملون * والله يعلم ما تبدون وما تكتمون * فاتصلت من ولي نعمتك برجل لو اتصل به الادبار لتقدم الاقبال * ولو خدمه النقص لفضل الكمال * ولو تعرف اليه الجماد

لنطق بجده * ولو استجار به امس الدابر لرجع بسعده * فما هو الا ان ذسبت اليه * وحسبت في آثار يديه * حتى قاتات الايام بسلاحه * وطرت إلى المنى والمطالب بجناحه * وحتى طمحت إلى امور كنت عنها مطروفاً * وخطوت إلى اشياء كنت عنها قطوفاً *

ومثل الذي نلته حافيا — يؤثر في قدم الناعل

وحتى زارك قوم لو زرتهم فيما قبل لطال وقوفك بين الدار والباب * وكثر ترددك بين الآذن والحجاب * وخدمك اناس ما منهم احد الا وقد لاحظته بعين هائب * ونقلت اليه قدم راغب او راهب * هذا إلى استسلابه لك من الردى * بيد الهدى * واخراجه اياك من ظلمة العمى والتقايد * إلى نور العدل والتوحيد * فازملك ولآؤه مرتين * واحاطت برقبتك نعمته من جهتين * لانه انقذك من النار * كما انقذك من العار * واعتق رقبتك من اسار الضلال * كما اعتقها من ذل السؤال * فكانت نعمته عليك مضاعفة * وصنيعه اليك مداخلة * وكل ذلك بعين احسان الله تعالى يمد نفيس احسانه اليك لتؤدي زكاة الاحسان * وترتهن الصنيعة باليد واللسان * ويريك يقظان ما لم تحتلم به وسنان * ويزف اليك من ابكار الصنع ما لم تخطبه بهمتك * ولم تستوجبه بقيمتك * إلى أن اصلح عليك الدهر الطالح * وملكك عنان البخت الجامح * وانت سكران من خمر اليسار والغنى * غريق في لجج المطالب والمنى * لو طلبت النجم لرقيت اليه بسلم معك * او طرت نحوه بجناح لك * والاقبال يستر عيوبك * والامهال يغفر ذنوبك * ولا ستراً اكثف من اقبال * ولا شفيع انجح من اهمال * والدولة تجعل البعيد قريباً * والجد يرى المخطىء مصيباً * والمجدود يمس بيديه * ما لا يراه المحدود بعينيه * ويتناول قاعداً * ما لا يتناوله غيره قائماً * ولا رسول اسرع من دهر * ولا مستحث اوحى من

يسر بلا عسر * فلما جازيت النعمة بالكفران * ونسيت هل جزاء الأحسان إلا الاحسان * نظرت الايام اليك شزراً * وابدلتك باليسر عسراً * فاصبحت تلك البوارق * وهي صواعق * واستحالت تلك المواهب وهي مصائب * وتقاضاك دهرك ما اسلف * واستأنف بك خلاف ما سلف * والدهر غريم لا يماطل إذا اقتضى * وحاكم لا يراجع إذا قضى * ومعير إذا لم تحفظ عاريته ارتجع * ومعط إذا لم تشكر عطيته منع * ومؤدب إذا لم يتعلم منه عاقب * وإذا تعلم منه ادب وهذب * على أني ما رأيت معلماً أحسن تعليماً من الزمان * ولا متعلماً اسوأ تعلماً من الانسان * فها انت قد ذمك حامدك * ورحمك حاسدك * واحتقبت اوزار الندامة * ورضيت من الغنيمة بالسلامة * وكانت الايام تعدنا بك * فاوعدتنا فيك * وخلف ليل الشك نهار * ووراء سكر النعمة خمار * فانت الآن عليل دواؤه التوبة * وجريح شفاؤه الرجعة والفيئة * فان قبلت توبتك فقد انقطعت مدة الداء * وظهرت بركة الدواء * وان تكن الاخرى فربما اخاف الدواء شاربه * وخان الرجاء صاحبه * فيا طبيب نفسه ارفق بها * ويا مداوي جراحته الطف لها * واعلم انه قد كان شكر الرخاء * اهون من مصابرة البلاء * وكان حفظ الصحة * ايسر من معالجة العلة * ولو وجدتك العافية من اكفائها لما طلقتك * ولو رأتك النعمة من رفقائها لما فارقتك * واقل ما كان يجب لصاحبك عليك ان لا تستعين بنعمته * على كفران نعمته * ولا تكتب حسنته في جريدة سيئة * ولا تسل عليه من لسانك سيفاً يده صقلته * ولا تشرع اليه من كلامك رمحاً كفه قومته .

لقد جازيت بالاحسان سوءا   إذا وصبغت عرضك بالسواد

ورحت تسوق عبر الكفر حتى   انخت الشرك في دار الجهاد

فيا أيها الرجل * وكلكم ذلك الرجل * كم تهتكون حجب العوارف بيد الكفران *

وكم تصافحون النعم بالبغي والعدوان * وكم تفضون ختام العافية بالغدر *وكم تسترون الخيرات بقلة الشكر * وكم لا تبرزون الصنائع في معرض من حسن الذكر * ولا تقلدونها حلية من طيب النشر * وكم تتبعون الوفاء بالملق * وتنادون على الامانة كما ينادي على الثوب الخلق * وكم تقبحون في النعم * وتحسنون في النقم * وكم تجهلون ما عرفه الحطيئة مع خبث مذهبه * ولؤم مركبه * حيث يقول :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

اعلم ان كفران النعمة لو احله الشرع * لحرمه الطبع * ولو جاز من طريق الملة والديانة * لحظر من طريق المروءة والصيانة * فان للمحسن من الله عيناً كالئة لا تنام * وان وراءه من واقية الاحسان ركناً منيعاً لا يرام * ومن تقلد نعمة الله من انسان فقد ضمن له عهده * وصار في حكم الاحسان عبده * وإذا خدم غيره وهو حي فقد خان الاول في نعمته * وغش الثاني بخدمته * وهل يبرأ العليل بين طبيبين * وهل يسع الغمد سيفين * وهل ينطق لسان واحد بشكرين * أو يتسع قلب واحد لمحبة اثنين * ولهذا الشان طلقت الناس ثلاثاً * وفارقت المدح بتاتاً * لما وردت من الوزير على من خدمة غيره تعد كبيرة ليس لها غفران * وسيئة لا يمحوها احسان * فلما رأيته علمت ان الايام قد خبأته لي ذخراً * واعدته لي عذراً * واراد الله تعالى ان اعاشر الناس حراً ونذلا * واجوب البلاد حزناً وسهلا * حتى إذا جبت الآفاق * وقلبت الاخلاق * وصارت الارض في عيني داراً * هجم بي السعد على حسنة الايام * وغريبة الانام * ونصفة الدهر الظلوم * ومكرمة العالم اللئيم * فاذا هو ضالة رجائي الحائم * وبغية قلبي الهائم * فختمت به جريدة المدح والثناء * واغلقت باسمه باب الاستماحة والرجاء * وفتحت له مغاليق فكري * ودفعت اليه

مقاليد نظمي ونثري * واقطعته لساني غير منقطع * ووهبت له قلبي غير مرتجع * ونظرت إلى أبي الطيب وإلى تناقض حكمته * وتفاوت طرفي فعلته * حيث قال في سيف الدولة :

لا تطلبن كريماً بعد رؤيتـــه ان الكرام باسخاهم يداً ختموا

« وقال في كافور الاخشيدي » :

قواصد كافور توارك غـــيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فلقد باع من الوفاء علقاً خطيراً * واعتاض من الطمع ثمناً يسيراً * وحال ضباب الحرص والرجاء * بينه وبين العهد والوفاء * وكان يضايق نفسه في اختبار المتاع * ويسامحها في اختيار المبتاع * ويخلع خلعة من نظمه تساوي بدره * على عرض من لا يساوي بعره * ويزف كريمة من كرائم شعره * إلى من لم تقم عنده كريمه * ولم تعرف له قيمة * لو رأى الطمع في جحر فارة لدخله * ولو اتاه الدرهم من است كلب لما غسله * فلا جرم ان الناس كما استحسنوا قوله * استقبحوا فعله * وكما اعجبوا بشعره * تعجبوا من غدره * يشكر ثم يشكو * ويمدح ثم يهجو * ويشهد ثم يجرح شهادته * ويعطي ثم يسترجع عطيته * فكم من حر فضله ثم ثابه * وكم من عرض كساه ثم سلبه * وكم من صفحة أكل منها ثم بصق فيها * ولكن في قميص أبي بكر رجلا إذا اعطى لم يرتجع * وإذا طلق لم يراجع * وإذا بني لم يعد على بنائه بالهدم * وإذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم * وإذا طيب فكيه بالمدح للكريم * لم يلطخهما بمدح للئيم * وإذا زوج كرائمه كفؤا حجبهن ان يتبرجن الا لديه * ويجتليهن غير عينيه * وانما الغدر من اخلاق النساء فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران * وجذبها إلى شق النسوان * وهو إذا مخنث من حيث الخلق * وقد يصلح الانسان خلقه * ولا يمكنه ان يغير خلقه * فالغدر إذا على

هذه القضية هو التخنيث الاكبر * والتأنيث الاعم الاكثر * والوفاء حمية القلب * كما ان التوقي من الطعام والشراب حمية الجسم * وثبات الحمية من قوة الحمية * وحفظ العهد من شرائط الرجولية * وانني لأعجب ممن يعادي المقبل والله معه * والايام مدد له * وداعية الجد خلفه وقدامه * وقد رأيت ما صار اليه مصارع اعداء هذه الدولة * وختمت به احوال حساد هذه النعمة * فقد غمزوا قناتها وقرعوا صفاتها * فاخترموا واصطلموا * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا * طافت الايام على الوزير بمناياهم * فابقاه الله تعالى وافناهم * ولم يزل نقصهم يحارب كماله * وادبارهم يزاحف اقباله * حتى اجلت معركة العواقب عنه راضياً وعنهم ساخطين * واقشعت غيرة الايام والليالي عنه قائماً وعنهم مصروعين :

فلو لم تبـــق لم تعش البقايا وفي الماضي لمن يبقى اعتبار

عافاك الله امش مع الدهر كما يمشي * واجر مع الفلك كما يجري * وارفق بمن رفقت الايام به * وارع لمن رعت السعادة له * ولا تزاحم الفلك الدوار * ولا تناطح الاقسام والاقدار * ولا تصغر الكبار * ولا تتحكم على الدهر فان الدهر حاكم لا يحكم عليه * ومسلط لا يؤخذ ما في يديه * وانزل حيث انزلك الاستحقاق * وخذ ما سمحت به لك الارزاق * ولا يجلس على طريق السيل الراعب * ولا تطعن في بحر القضاء الغالب * ولا تحارب جيش السعد * ولا تطاعن حد الجد * ولا تستسلف اجلك * ولا تتناول ما لم يوضع لك * واحذر قوس الخذلان * فانها نافذة الرمية * صريعة الرمية * قد والله اوجعت بهـــذا العتاب قلبك * وجاوزت بالعقاب ذنبك * ولكني عاتبتك لك * وحاربتك عنك رجاء ان يستخشن مس هذا الكلام لك * ويستحسن تألم وقع هذه الاسهام بك * ولولا ذلك * لم اذقك مرارته * ولم اعرض لطيف ما بيني وبينك له * وما

اغتم لك من الحبس وروعته * ولا من الهوان ولذعته * كما اغتم من نظر ولي نعمتك اليك * ووقوع بصره عليك * وقد قعدت تحت اعباء بره * وقابلت احسانه بكفره * وزرعت منك النعمة في بقعة لم تزد ريعاً * ولم تجلب نفعاً * فأنا أبكي لك من يوم اطلاقك لا من يوم حبسك * واتفكر في ساعة سعدك * لا في ساعة نحسك * فقد شغلني الخجل * عن الوجل * ونسيت لقبح الموقف الثاني هول الموقف الاول * فلا غضاضة عليك * من امتداد يد الدهر اليك * فان امير المؤمنين وفعله * لكالدهر لا عار بما صنع الدهر .

* * *

«وكتب الى كثير بن احمد لما هرب من الامير ابي الحسن » :

كتابي إلى الشيخ وانا في خمار شربتي من يد الدهر * فقد كانت بشعة الخمر * طويلة السكر * قليلة النفع كثيرة الضر * والحمد لله تعالى على حفظه على الدين وان ذهبت الدنيا * وعلى ان صودرت على المال لا على العرض والتقوى * وصلى الله على محمد خير الورى * خرجت ايها الشيخ من نيسابور وانا زاملة شكر وثنا * وحمال مدح ودعا * وقتيل خجل وحيا * إذا تفكرت في كثرة اعدائي وقلة شفعائي * وفي ضعف اعواني وقوة خصمائي * ثم نظرت إلي وقد خرجت من تلك الغمة * وشققت رداء تلك الظلمة * موفر الحال والمال * صحيح العرض والجمال * لم تنشب في اظافر الفقر * ولم ينفذ في حكم الدهر * علمت ان الشيخ قصر عني يد المحنة وهي طويلة * وصرف عني ولاية النحوس وهي بسيطة * ولو بلغه غاية مراده امكانه * وساعده على نيته في زمانه *

لحجب صروف الدهر عن فنائي * ولقام بين الحوادث وبين لقائي * عرف الله تعالى له نيته * وبلغه في الدنيا والآخرة امنيته * ولا زالت نعم الله تعالى عليه ضافيه * وايامه من الغير صافيه * ولا زال كما لم يزل عليه رقيب من عدله * ومعه وزير من عقله * وله مادح من فضله * وطوله * ووراءه واق من قوله وفعله * فلعمري لئن كنت اشكر لمن وهب لي مالا أني لمن وهب لي روحي اشكر * ولئن توفر على افضال من اغناني فان افضال من استبقاني ولو شاءافناني اوفر * فقد جاد على الملوك بالصلات * وجاد على ذلك الامير بالحياة * فهناه الله بهذا الشكر الغريب * وهذا الثناء العجيب * وذلك أني اشكر الملوك على انهم اغنوني * واشكره على انه لم يفقرني * وامدحهم لانهم احيوني * وامدحه على انه لم يقتلني * واعتد لغيره * ان بذل لي كل خيره * واعتد له بان كف عني بعض شره * والشكر على قدر الاحسان * والساع بازاء الاثمان * والسلام .

* * *

« وكتب الى محمد العلوي من الري في هذه المحنة » :

أطال الله بقاء سيدنا من بعض مطارح الغربة * ومساقط النكبة * فانا فل من فلول هذا الزمان * لا بل فل من فلول هذا السلطان * والحمد لله على سلامة الروح والمهجة * وان كانت سلامة ضعيف المنة * رقيقة الكسوة * ثقيلة الحركة * قليلة البركة * ليس بينها وبين الهلاك الا اقرب من خطوة * واسرع من لحظة * ذكر الشوق فما بينه وبين السيد رجيع من القول * وكلفة من كلف النقل والفصل * على أني والله مشتاق اليه * شوقه إلى ابتناء العلا *

ومشته للقائه شهوته لبذل الندى * أذكره وان كنت لا أنساه * والقاه بقلبي وان كنت لا ألقاه * وأسأل لله تعالى ان يرينا سلامة سليمة * واستقامة احوال مستقيمة * فلا شيء احوج من السلامة الى السلامة * ولا إلى الاستقامة من الاستقامة * وان يجعل اقسام صنعه لديه * واحسانه اليه * متناصرة مترادفة * ومتلاقحة متوالدة * قد رأى السيد ما كان من العلانية حين فوقت نحوي سهامها * ونشرت طربي اعلامها * وتسلحت علي بالسعاية وهي سلاحها الذي به تقاتل * ويدها التي بها تطاول * والسعاية سلاح من لا سلاح له * والنميمة كيد من لا كيد عنده * وشر من الساعي من انصت له * وشر من متاع السوء من قبله * فلما رأيت بيني وبين الموت حجاباً رقيقاً * وحجزاً دقيقاً * ورأيت نفسي وقد اكتنفها اربعة اشياء ما منها شيء الا وهو يقرب عليها مسافة الممات * ويقطع عنها علائق الحياة * خصم فاجر * وسلطان جائر * وبخت عاثر * وزمان غادر * آثرت الغربة على وطن معه اذى * واخترت الظمأ على شراب فيه قذى * وفارقت دار الهوان والحمية تتبعني * وعزة النفس تشيعني * ولي من الصيانة رفيق وزميل * ومعي من العزم هاد ودليل * وليست تبعد على العزم مسافة * ولا تصعب مع الارادة شقة ولا مشقة * وما علمت أني اعيش حتى اصادر على اللسان * واسلف الشكر قبل الاحسان * وقد كنت رأيت حاكماً يحجر على يتيم او معتوه في وفره * ولم أر اميراً يحجر على كاتب في كتابته او على شاعر في شعره * وانما الشكر ايد الله السيد فرس جامح * ان منع عن سننه قطع ارسانه * واستلب عنانه * فشقي به سائسه * وهلك معه فارسه * والشعر ينقلب مع الجود حيث كان * ويرتاد المعروف والاحسان * وانما هو ماء سارب * بل سيل زاعب * إذا سد عليه طريقه خرق في الارض خرقاً * وجعل لنفسه طريقاً بل طرقاً * وما اشبه من اكره الالسن

على مدحته * الا بمن اكره القلوب على محبته * يحب المديح ابو خالد ويضجر من صلة المادح * كبكر تحب لذيذ النكاح وتفرق من صولة الناكح *

* * *

« وكتب الى تلميذ له فوض اليه اشغاله » :

كتابي ولو استقبلت من امري ما استدبرت * وقدمت من رأيي ما اخرت * لما امضى الفراق فينا حكمه * ولا أنفذ فينا سهمه * ولا قمنا جميعاً * او رحلنا معاً * واني لاظلم الفراق إذ شكوته * واتعنف الدهر اذ هجوته * وبيدي ضرباني * ومن سهمي رمياني * فأنا كالقاطع يده بيده * والفاجع نفسه بنفسه * ومطرق الفراق إلى قلب اظوى المنازل عن حبيبي دائماً * واظل ابكيه بدمع ساجم هلا اقمت ولو على جمر الغضا * قلبت اوحذ الحسام الصارم * ما تذكرت تلك الايام التي سلبنيها الدهر بل سرقنيها * وغبنني بل داس على فيها * وكانت أدق من حاشية البرد * واحسن من طلوع السعد * واحلى من انجاز الوعد * واعذب من القند * بل من النقد * واعبق من الورد * وما اردت إلا ورد الخد * بل من المسك والند * واطيب من القرب بعد البعد * ومن الوصل في اثر الصد * بل كانت ارق من نسيم الزهر في السحر * ومن قضاء الوطر على الخطر * بل كانت اقصر من ليل السكارى * او نهار الحيارى * إلا أكلت الوجع * وشربت الجزع * وانثنيت على كبدي خشية ان تتقطع * ولو انني أعطيت من دهري المنى * وما كل من اعطى المنى بمسدد * لقلت لايام مضين الا ارجعي * وقلت لايام اتين إلا ابعدي * البستان قد وعدتني يا سيدي اقامة وظيفته بالشجر * وبالنور والزهر * وانت يا سيدي بالانجاز

قمين * ووفاؤك به ضمين * وذلك المكان مرتع ناظري * ومتنفس خاطري * ومجال بصري * ومراد فكري * ونقلي إذا شربت * ومحدثي إذا خلوت * وتسليتي إذا اغتممت * وشمامتي إذا شممت * وما ظنك بمكان ليست فيه زاوية الا وقد صب على فيها طاس * بل كاس * وشرب عليها انسان بل اناس * وقام في حافتها وجه صبيح * وتقلب في اطرافها قد مليح * وكأني بك وقد عرضت هذا الفصل على الناس فظنوا أني اصف بستان الزاهر * او دار ابن طاهر * او اذكر الجفرية * او البركة المتوكلية * أو أعني صعد خراسان * او شعب بوان * او انعت نهر الابلة * او متنزه الغوطة * او شعب انطاكية * ولا يعلمون أني انما أذكر بقيعة طولها باع * وعرضها ذراع * اعني باع البقة * وذراع الذرة * واقل من لا * واصغر من الجزء الذي لا يتجزأ * لو طارت عليه ذبابة لغطته * او دخلته نملة لسدته * تسقي بالمسعط صباحاً * وتكنس بالظلال مساءً * اشجاره مائة الا تسعة وتسعين * وانهاره خمسون الا تسعة واربعين * واني شاعر إذا احس من لسانه بسطه * ووجد في خاطره فضله واصاب من القول جرياناً * ورجد ميدانا * وقال ما وجد بياناً * وما ظنك بقوم الاقتصاد محمود الا منهم * والكذب مذموم الا فيهم * إذا ذموا ثلبوا واذا مدحوا سلبوا * وإذا رضوا رفعوا الوضيع * وإذا غضبوا وضعوا الرفيع * وإذا اقروا على انفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد * ولم يمتد اليهم بالعقوبة يد * غنيهم لا يصادر * وفقيرهم لا يحتقر * وشيخهم يوقر * وحديثهم لا يستصغر * وسهامهم تنفذ في الاغراض * إذا نبت السهام عن الاغراض * وتصل إلى البعيد كما تصل إلى القريب * وشهادتهم مقبولة وان لم ينطق بها سجل * ولم يشهد بها عدل * وسرقتهم مغفورة وان جاوزت ربع دينار * ولو بلغت الف قنطار * ان باعوا المغشوش لم يرد عليهم * وان صارموا الصديق

لم يستوحش منهم * بل ما ظنك بقوم هم صيارفة اخلاق الرجال * وسماسرة النقص والكمال * بل ما ظنك بقوم هم امراء الكلام يقصرون طويله ويخففون ثقيله * ويقصرون ممدوده ولم لا أقول ما ظنك بقوم يتبعهم الغاوون * وفي كل واد يهيمون * ويقولون ما لا يفعلون *

* * *

« وكتب الى تلميذ له قطع في مجلس وكابر واختلط » :

بلغني أنك ناظرت * فلما توجهت عليك الحجة كابرت * ولما وضع نير الحق على عنقك ضجرت وتضاجرت * وقد كنت احسب انك اعرف بالحق من ان تعقه * واهيب لحجاب الانصاف والعدل من ان تشقه * كأنك لم تعلم ان لسان الضجر ناطق بالعجز * وان وجه الظلم مبرقع بالقبح * وانك إذا استدركت على نقد الصيارفة * وتتبعت خطأ الحكماء والفلاسفة * فقد طرقت إلى عيبك لعائبك * ونصرت عدوك على صاحبك * وقد عجبت من حسن ظنك بك * وانت انسان والله المستعان *

* * *

« وكتب الى ابي عمر المكندري وزير صاحب جرجان » :

وعد الشيخ يكتب على الجلمد * إذا كتب وعد غيره على الجمد * ولكن

صاحب الحاجة سيء النظر بالايام * مريض الثقة بالانام * لكثرة من يلقاه من اللئام * وقلة من يسمع من الكرام * وفلان نغض عندي غرائر شكره * واستعان بي على تحمل ما أثقله من اعباء بره * فاعلمته انني اثقل منه بنعمة الشيخ ظهراً * واضيق منه بما لزمني اداؤه صدراً *

« وأنشدته شعراً »

اعنين هـــلا إذ كلفت بهـا — كنت استعنت بضارع العقل
اقبلت ترجو العون من قبلي — والمستعان بـــه لفي شغـــل

ثم اني تذممت في ان ارد اخواني * في ماعون طلبوه من لساني * فاصحبته هذه الاحرف * والشيخ يلمظه بالزيادة حلاوة الشكر * ويعرفه فعلا لا قولا حميد عاقبته وما افاض فيه من جميل النشر * فمثله عرف الشاكرين الصنعة * ونفق بينهم هذه السلعة *

* * *

« وكتب الى صاحب ديوان الحضرة وقد طولب ابو بكر بحضور الديوان فانفعل » :

هذا اطال الله تعالى بقاء الشيخ الرئيس حال نيسابور واهلها * بلى حالي وحال الاحرار فيها * واصبح اقوام يقولون ما اشتهوا وغاب ابو عمرو وغابت رواحله * وقد كنت آوي من الشيخ ايام مقامه بهذه الجنبة إلى كنف رحيب وجناب خصيب * وباع واسع * ونائل شائع * ووجه إذا نظرت اليه * قرأت نسخة الكرم في وجنتيه * تلمع آثار الكرم بنور اساريره * وتعرف بشرى النجاح في تباشيره * وفم يبشرني بابتسامه * قبل ان يبشرني بكلامه *

بويحييني بالنجح باشارته * قبل ان يترجم بعبارته * وإذا رأيته رأيت بخني قد أقبل إلي في معرض الكمال * وطالعت سعدي وقد طلع علي بنيل الآمال * عن يميني الجمال * وعن يساري الكمال * فاغدو إلى بابه يقدمني الامـــل والرجا * واروح عنه فيشيعني الشكر والدعاء * واحمل حوائجي منـــه على جبل الجود الذي لا تحركه المطالب * ولا تثقل عليه الرغبات والرغـــائب * بل على بحره الذي لا ينزفه الاستقاء * ولا تكدره الدلاء * ولا يرى قعره * ولا يدرك غوره * وانما يصبر على حوائج الناس * ويلتذ باستماع صوت رجاء الاضراس * من ولد في طالع السخاء * وغذي في حجور الكرماء * وقرع سمعه منذ صباه باصوات الادباء والشعراء * ومرن على البذل والعطاء والثقل ليس مضاعفاً لمطية * إلا إذا ما كان وهماً بازلا * حتى إذا كادت غصون آمالي تزف بعدما يبست*ووجوه مطالبي تضحك بعدما عبست*رمتني الأيام بفراق الشيخ فاخدج رجائي الحامل * وجف ضرع املي الحافل * وسكت لساني القائل * وفترت فتور التاجر بار متاعه * وعاب مبتاعه * وخجلت خجل أبي البنت زهد فيه اختانه * وضحك منه جيرانه * وردت عليه بكرة * وسيق اليه مهره * وقلت لو اراد الله بالادب خيراً لما غاب من كان يجمع شمله * ويكرم أهله * ويعرف فضلهم وفضله * ولو انصفت الادب بعد الشيخ لرثيته مرثية الاموات * ولأقمت عليه ماتم الممات * ومحوت اسمه من جريدة الحياة * هذا وقد ورد علي عمل الخراج من لا اطريه بحرمه * ولا أتناوله بطرف ذريعه او وسيلة وكأني به وقد حسدني في جملة العامة * وادخلني في غمار سائر الرعية * ووقفني على جسر قدامه الخسران * وخلفه الهوان * وفجعني بدريهمات جمعت بتقحم المهالك * واختراق المسالك والممالك * ودنانير قطعت القفار * وخاضت البحار * وناطحت الحوادث والاقدار *

فانْ بذلْتها ابرزت وفراً طال ما كان مخزوناً * وان منعتها ابتذلت عرضاً لم يزل مصوناً * على انني احمل الجمال على التجمل * واوثر البذل على التبذل * وانشد شعراً * حنانيك بعض الشر اهون من بعض * وما ايسر دواء هذا الداء لو طاوعتني نفسي العاصية * وتابعتني رجلي الآبية * فدخلت الديوان * وصانعت الزمان * وفتحت جراب النفاق والريا * واغلقت باب الحفاظ والوفا * ولكن النظر إلى عين الشمس ايسر علي واهون على عينْي من ان انظر إلى هذا الصدر * وقد جلس فيه غير ذلك البدر * واني لاغار على الكرم * كما يغار على الحرم * وابخل بالمراتب كما يبخل غيري بالمكاسب * واستحيي لعينْي ان افتحها على الصغير * وقد جلس مجلس الكبير * لا ابتلاني الله بمجالس الغيرة * ولا اقامني في مقامات الغم والحيرة * فانه ان ابتلاني بذلك وجدني ضيق ساحة الصدر * قريب غور الصبر * كثير المباراة * قليل المداراة * هذه اطال الله بقاء الشيخ حالي * فهل لي عنده فرج ارتجيه * او نظر اتجمع فيه * وهل يحرك لفظة من الفاظه * أو لحظة من الحاظه * يرد بها على وجهي ماء نضب من مائه * وعلى عرضي ما ذهب من بهائه * ولعمري ان حاجتي إلى الشيخ في هذا الخراج صغيرة ولكني استصغر منه يسيراً * كما لا استعظم منه كبيراً * واعلم ان الحر يسع الصديق بفطنته * والخليل بهمته * وان ابطأ عني كتابه بالفرج خشيت ان يسري في السم الوحي * إلى أن يصل إليّ التّرياق البطي * اعوذ بالله من أن يكون دائي نقداً * ودوائي وعداً *

***

« وكتب الى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له » :

كتابي عن سلامة * وما سلامة من يرى كل يوم ركناً مهدوداً * ولحداً ملحوداً * واخاً مفقوداً * وحوضاً من المنية موروداً * ويعلم ان ايامه مكتوبة * وانفاسه محسوبة * وان شباك المنايا له منصوبة * اف لهذه الدنيا ما اكدر صافيها * واخيب راجيها * واغدر ايامها ولياليها * وانغص لذاتها وملاهيها * تفرق بين الاحباء والاحباب بالفوات وبين الاحياء والاموات بالرفات * ورد علي خبر وفاة فلان * فدارت بي الارض حيرة * واظلمت في عيني الدنيا حسرة * وملك الوله والوهل قلبي وساوس وفكره * وتذكرت ما كان يجمعني واياه من سكرى الشباب والشراب * فعلمت انه شرب بكاس انا شارب من شرابها * ورمى بسهم سوف أرمى بها * فبكيت عليه بكاء لي نصفه * وحزنت عليه حزناً لنفسي شطره * وسألت الله تعالى فانه أكرم مسئول * واعظم مأمول * ان يفيض عليه من رحمته * ما يتمم به سهمه من نعمته * وان يتغمد كل زلة ارتكبها برحمته * ويضاعف له كل حسنة اكتسبها بمنته * وان يذكر له تلك الاخلاق الكريمة * وتلك المروءة الواسعة العظيمة * فان الله تعالى ليحب السخاء في الملحد * فكيف في الموحد * وان سخاء النفس ونصب المائدة خلق من اخلاق الصديقين * وشعبة من شعب النبيين * ثم تذكرت مـــا نزل بسيدي من الوحشة لفقده * والغمة من بعده * والتحسر على قربه ببعده * فخلص إلى قلبي وجع ثان انساني الماضي * وثالث انساني الثاني * حتى استفرغ ذلك ما في صبري * بل ما في صدري * وحتى صار الوجع وجعين * والمصاب اثنين *

ثم رجعت إلى أدب الله تعالى فقلت انا لله وانا اليه راجعون اللهم لا شكاية لقضائك * ولا استبطاء لجزائك * ولا كفران لنعمتك * ولا مناصبة لقدرتك * اللهم ارحم الماضي رحمة تحبب اليه مماته * وابق الحي بقاء يهنيه حياته * واطبع على قلبه حتى لا يطيع داعية الجزع * ولا يضيع عنانه بيد الهلع * ولا يثلم جانب الاجر والذخر * بالاثم والوزر * ولا يجد عدوه الشيطان سبيلا اليه * ولا سلطاناً عليه * اقتصرت من تعزية سيدي على هذا المقدار * لا جرياً على مذهبي في الاقتصار والاختصار * ولكني لم اجد من لساني بسطه * ولا في قريحتي فضله * ويحق لهذه الفادحة الحادثة ان تدع اللسان محصوراً * والبيان مقصوراً * أو أن تحدث في العقل خللا * وفي البيان شللا * وليعرفني سيدي خير ما هداه الله اليه من جميل العزا * الذي لم يعدم جميل الجزا * ليكون سكوتي إلى ما اعرفه من سلوته * اضعاف قاق كان بما ظننته من حرقته * وان كنت اعلم انه لا يخلي ساحة الحلم والعلم * ولا يخل بالواجب من التمسك بالحزم * ولا يحل عقدة صبره * ولا تتداعى اركان صدره * ولا يعمي الرشد في جميع امره * وهذه شريطة الكمال * وسجية الرجال *

* * *

«وكتب الى أبي الحسن الطرحودي بدار طوس» :

فلا ترتفع عنا لشغل وليته * كما لم يصغر عندنا شأنك العزل * ليت شعري ما الذي راه في الكبر حتى اعتقد ملته * واستقبل قبلته * وفي العجب حتى تبوأ ساحته * واستوطن راحته * وفي الجفا حتى علق اسبابه * ولبس جلبابه *

وما الذي ارتكبته من بين اخوانه * حتى افردهم عني * وكاتبهم دوني * حتى كأني قطعته ووصلوه * ونسيته وذكروه * وجفوته وبروه * كـأنه عرض جريدتهم فوجد اسمي ملحقاً بحواشيها * ومثبتاً في اخريات اساميها * فهلا إذ لم يوهلني لمرتبة الخاصة * جعلني اسوة بالعامة * وهلا إذا لم استحق منه فضلا * رزقت منه عدلا * وهلا تصدق علي * بكتابه إلي * فالزمني على المساكين صدقه * وللفتح هدية * فكنت اجعل يوم وصول كتابه إلي عيداً * ونيروزاً جديداً * واتصدق بمالي فيه طريفاً وتليداً * واطوف بكتابه في اخوانه واخواني * واباهيهم به مباهاة الاخ باخيه * الذي مساعيه مساعيه * ومساويه مساويه * وكل شيء من فضيلة ورذيلة فهو شريكه فيه * صفحت ايد الله سيدي عن هذا الذنب الفظيع * والجرم الشنيع * فهل لسيدي انيستأنف ما احاله آخراً * ويأخذ بنا في طريقه غير الاول * فان الاستقالة تأتي عـلى العثرات * وان الحسنات يذهبن السيئات * وان قليل الاستغفار * ينسي قليل الخطأ والاوزار * خرج إلى ناحية سيدي فلان وهو جوهرة من جواهر الشرف * لا من جواهر الصدف * وياقوتة من يواقيت الافكار * لا من يواقيت الاحجار وإذا نظرتاليه من مرآة الحيرة * وقلبه بيد العشيرة * استدل به على حسن انتقادي * وصائب ارتيادي * وعلم أني لا اختار غير الخيار * ولا أجني غير خير الثمار * ولا اصادف غير الاحرار * فلينطق سيدي لسانه بشكره * وليكفه الدقيق والجليل من امره * وليمش على عقبي لا بل مقدمتي إلى الطافه وبره * عرض سيدي هدايا تلك الناحية * وكيف اطمع في هدية من يبخل برد السلام*ويحاسب اصدقاءه على الرسالة والكلام * وكيف يسمح بالجوهر الحاصل * من يبخل بالعرض الحائل * وكيف يتوسع في النافلة من تضايق بالفريضة * انصفنا الله تعالى من اصدقائنا * فانا بحوله وقوته ننتصف مـن اعدائنا *

«وكتب الى وزير قابوس بن وشمكير»:

وكل ولاية لا بد يوماً مغيرة الصديق على الصديق

قد كنت انتظر مصداق هذا البيت من سيدي حتى حقق الله تعالى ظني * ولو اكذبه كان احب إليّ * وأوقع لدي * فسبحان من جعل حصتي من وفاء الاخوان منحوسة * وتجارتي فيما أعاملهم به ويعاملونني مركوسة * فان كان سيدي عم بهذا الجفا اخوانه فخلطني بهم * وجعلني واحداً منهم * لقد أخلف ثقتي بانفرادي عن صحبه * وخلف ظني بناسيتي عن قلبه * وكنت احسب انه يخصني من بينهم بفضل الثقة * كما خصصته من بينهم بفضل الثقة * وان كان وصلهم * وقطعني دونهم * لقد عكس حكم الرجاء * وغرس الجفا في منبت الوفاء * واساء الترتيب بين الاصدقاء * وما أدري له في واحد الفعلين عذراً * وان كان احدهما اثقل وزراً * واسوأ براً * واقبح ذكراً * وقد كنت طويت بيد اليأس بساط العتاب * واغلقت باب المراجعة وضيعت مفتاح الباب * ثم استظهرت بهذه الاحرف وسترد على من سيدي اذن من العتاب صماء * وعين من الوفاء عمياء * ونفس تبغض الوفاء * كما يبغض الناس الاعداء * وتعشق الجفاء كما يعشق الرجل المرأة الحسناء * وتشتهيه كما يشتهي الظمآن الماء * وانتظاري الجواب عنها اكذوبة من اكاذيب الاماني * واغلوطة من اغاليط زماني * ومناقضة لحكم القياس * وارجاف من اراجيف الوسواس * ولكنها سخرة من سخر الفراغ تكلفتها * وحاجة في نفسي قضيتها.

• • •

«وكتب الى رئيس بهراه يعزيه بابن اخته وبنته» :

كتابي ايد الله الشيخ الرئيس * وانا سليم المهجة * سقيم القلب والمنة والنية * صحيح العرض والجسد * عليل الخاطر والجلد * للمصيبة في فلان رحمه الله * فانها مصيبة خرجت من كمين الدهر * قبل ان يستعد لها بعدد الصبر * وجاءت مجيء البغية * ووثبت وثبة المسارقة * وغلبت الايام على ذلك الحر اطرأ ما كان غصناً * واتم ما كان حسناً * وابعد ما كان املا * واظهر ما كان نزلا * حتى كأن المنون اخذته خاسة * وانتهزت فيه فرصة وفقد الشباب الطري اكثر جزعاً * وكسر العود الرطب اشد وجعا .

ان الفجيعة بالرياض نواضرا   لأشد منها بالرياض ذوابلا

ولو كان الدهر يجيب من خاطبه * ويعتب من عاتبه * لاستدركت هذه الفعلة عليه * ولفوقت سهام اللؤم اليه * لكنه اصم عن الكلام * صبور على وقع سهام الملام * يختصر العيدان * ويهتصر الاغصان * ويخترم الشبان * ويبكي الانام والابدان * ويلحق من يكون بمن كان * والشيخ جدير بان يتدرع لهذه الفجيعة درعاً من كرم التسلي * وجميل التعزي * لا تخرقها يد التذكر * ولا تهب عليها ريح الغم والتحسر * ولا تطمح نحوها عين التغير والتنكر * وان يلقي هذا الخطب الكبير * والغم الكثير * بصبر منهما اكبر * وتجلد هو منهما أكثر * فان الكبير في قلب الكبير صغير * وان العظيم على العظيم صبور *

والثقل ليس مضاعفاً لمطيــة   إلا إذا ما كان وهماً بازلا

وليحذر ان يجمع على نفسه ذل الغربة * وثقل الكربة * وان كان لا غربة على عاقل * ولا وحدة لفاضل * فان الداء إذا قابل داء لم يقبل دواء * ولم يرج لصاحبه شفاء * وليعلم ان الله تعالى قد اخذ منه اليسير * وابقى له الكثير * وسلبه الصغير * ومنحه الكبير * سلبه اخاً كان يعتضد باخوته * ومنحه ابا يجمع خير الدارين بابوته * وابقى له اخوة هم قوة اليد والعضد * وغاية الايد والمدد * وزينة العدد والعدد * وجمال الدهر والابد * فسبحان من إذا سلبنا من هو املك به منا آجرنا * وإذا صبرنا على ما لا بد من الصبر عليه شكرنا * واذا امتحن كانت محنته خيره * وإذا منح كانت منحته نعمة كبيرة * ورحم الله فلاناً ذا الخلق المعسول * والكنف المأهول * والطعام المبذول * صاحب المرعى الخصيب * والقلب الرحيب * والوجه الطلق * والجناب الغدق * الشاب سنا وجلاداً * والشيخ حلماً وسدادا * الذي كان زيناً إذا دنا * وذخراً إذا نأى * وعدة للآخرة والاولى * والذي كان يهين ماله * ليكرم نزاله * ويبذل ديناره وداره * ليصون زواره * ويضحك في وجه النازل عليه * عند نظره اليه كأن الموت ينتقد الافاضل * ويبهرج الاراذل * وكأن الآخرة تختار الاخيار * وتترك على الدنيا الاشرار * وكأن اعمار الكرام مشاهرة * واعمار اللئام مداهرة * قال الطائي :

عليك سلام الله وقفاً فانني رأيت الكريم الحر ليس له عمر

فأما البنت رحمها الله تعالى فقد كانت حياتها عفافاً وستراً * ووفاتها ثواباً وذخراً * ولقد كانت في زمان النجابة في رجاله غريبة * وفي نسائه عجيبة * والعفاف في ذكرانه معوز * وفي اناثه معجز * والعقل في شيوخه نادرة تفقد * وفي شبانه ضالة لا توجد * فالحمد لله الذي سترها بالحياء في حياتها * وبالثواب بعد وفاتهـــا * فاسبل الله تعالى على سيدنا سترين * واستوجب منا ومنه له

شكرين * ولقد ثكلتها ثكل الرجل لاخص اخواته * بل لاكرم بناته * فقد كانت لي من جهة ميلادها والحال بيني وبين والدها بنتاً * ومن جهة تربيتها اختاً * والمستور عزيز في كل مكان * ومحبب إلى كل انسان * وممدوح بكل لسان * فان تكن خلقت انثى لقد خلقت كريمة غير انثى العقل والحسب فرحمها الله تعالى رحمة تلحقها بمريم وآسية في الاولين * وبخديجة وفاطمة في الآخرين * وبام الدرداء ورابعة في نساء الصحابة رحمهم الله تعالى اجمعين * ولولا ما ذكرته من سترها * ووقفت عليه من غرائب امرها * لكنت إلى التهنئة اقرب من التعزية * فان ستر العورات من الحسنات * ودفن البنات من المكرمات ونحن في زمان إذا قدم احدنا فيه الحرمة * فقد استكمل النعمة * وإذا زف كريمة إلى القبر * فقد بلغ امنيته من الصهر *

« وقال الاول »

ولم ار نعمة شملت كريما　　كنعمة عورة سترت بقبر

« وقال الثاني »

تهوى حياتي واهوى موتها شفقا　　والموت اكرم نزال على الحرم

« وقال الثالث »

وددت بنيتي ووددت أني　　وضعت بنيتي في لحد قبر

« وقال الرابع »

ومن غاية المجد والمكرمات　　بقاء البنين وموت البنات

« وقال الخامس »

سميتها إذ ولدت تموت　　والقبر صهر ضامن وبيت

وقد كنت على أن أفرد في معناها كتابا الى الشيخ ثم تطيرت له من تناسق التعزيتين * كما توجعت له من تواتر المصيبتين * وأرجو أن تكون هاتان

الحادثتان خاتمة الكروب * وقافية الخطوب * ثم تجيء النعم بعدها مترادفة * بل مترافدة * ثم متظاهرة * بل متواترة * ومتناسقة * بل متطابقة * فان المحن اذا تناهت انتهت * والرزايا اذا توالت تولت * ولكل غمزة محنة معبر * ولكل مورد غمة مصدر * وسيجعل الله بعد عسر يسرا * ولعل الله يحدث بعد ذلك امرا * على انها تعفو الكلوم * وانما توكل بالادني * وان جل ما يمضبي اسأل الشيخ أن يكتب لي حصر ما وجده من برد السلوة * لاشركه فيه كما شركته في حرارة اللدغة والفجعة * والسلام .

* * *

«وكتب الى صديق له جواب كتابه»:

ما تأخر جواب كتاب سيدي وشيخي جهلا بحقه اللازم الواجب * ولا انكارا لافضاله المتراكم المتراكب * ولكني تحريت وقتا ينشط فيه اللسان للبيان * والبنان للجريان * ويوما يحسن فيه الدهر * وينشرح فيه الصدر * ويقل فيه الفكر * فلا والله ما وجدته وقد كنت اشتاق الى غدي * فانا الآن الهف على امسي * وما من وقت كرهته الا وانا احن اليه * ولا من يوم بكيت منه الابكيت عليه *

* * *

«وكتب الى حاكم» :

ورد كتاب الحاكم بما ملأني سرورا وحبورا * وصار في رجائي الميت حركة وفتورا * وشكرته على ما بذله شكرا * لا ارضاء مهرآ * لاساءته

لو انتهت الي * فكيف لاحسانه المتظاهر علي * ولكن لن تتجاوز الطاقة ذرعها ولن يكلف الله نفسا الا وسعها * وما عندنا غير خلق لا يشترى بثمن * ولا يعارض بايعه بقبيح ولا حسن * وهو الدعاء استجاب الله في الحاكم صالحه واسبغ عليه منايحه * واعطاه من كل خير مقاليده ومفاتحه *

* * *

«وكتب الى نائب الوزير ابن عباد باصفهان»:

كتبت الى الاستاذ معاتبا مرة * ومستعتبا كرة * فما وجدت للعتاب اعتابا ولا قرأت عن الكتاب جوابا * وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني * وعن تواضع لا يضعه ويرفعني *

ولربما بخل الجواد وما بـه   بخل ولكن سوء حظ الطالب

فالان قد عنيت بجواب كتبه * وعرفت بين عتابه وعتبه * يكلفني ان اورد على الاستاذ خبر شكره * وان اجعله بعض ودائعي عند احسانه وبره ومذ اخبرته انني قد ركبت من التقصير في شكر الاستاذ عن خاصيتي * مركبا سقطت معه شهادتي * واخفقت بعده شفاعتي * وان شكري له عن غيري * بعدما ضيعت الواجب منه على نفسي * نافلة اقيمها بعدما ضيعت الفريضة * وتفصيل اصلحه بعد ما افسدت الجملة * ولن تقبل النافلة او تؤدي الفريضة فلم تقبل حجتي الا بالجحد * وعذري الا بالرد * وما زادني على كتبه العريضة الطويلة * ومعاتباته الثقيلة * فذكرته الآن الاستاذ فان كنت اسأت فالاساءة بيني وبينه * وان كنت احسنت فالاحسان لي دونه * ويا عجبا مني اعجز عن تحمل نعمة ثم اخطب نعمتين * ولا أقوم تحت عارفة ثم اطلب عارفتين * ولا

أرضأ البر الا مداخلا * ولا اقبل الاحسان الا مضاعفا * وما يستبدع منه بذل الرغيبة بعد الرغيبة * ولا مني اقتراح الغريبة بعد الغريبة * فانه ايده الله اوحد في النوال * كما اني اوحد في السؤال *

* * *

« وكتب الى ابي الحسن الحكمي » :

خرج الشيخ من هاهنا على حالة ان كان الذنب فيها له فقد غفرت وعذرت * وان كان لي فقد استغفرت واستعذرت * والدهر يوزع بافساد الاحوال * وتكدير ماء الوصال * وقطع قرائن الرجا * ثم يعود العاقل لما يرفو به الخرق ويرتق به الفتق * فيقبل الزلة ويراجع الوصلة وينشد :

إذا نزعات الحب أورثن بيننا عتاباً تراجعنا وعاد العواطف

فاما الجاهل فانه إذا هجر لم يبق في القوس منزعاً * ولم يترك للصلح موضعاً * والحمد لله الذي وفقني في أثناء هذه الحال حتى كبحت فرس الغرامة * وغمدت سيف الشكوى والملامة * وايقنت الحال في صوانها * ولم اتعد منها حكم زمانها * فهجرت هجر منازل كريم المقاطعة * ووصلت وصل مراجع حميد المراجعة * لتكون الأولى بدرة مغفورة * والثانية كفارة مشكورة * والعتبى عروس ليس لها غير الصلح مهر * والاعتذار سعي ما له غير القبول اجر * وقد كنت قلمت عن عرض الشيخ بنانا حديد المخالب * وفللت عن جانبه سيفا مرهب المضارب * وإنما سلطان الغضب ساعة تورث ندامة الابد * ويوماً يثمر حياء الغد * إلا من أعين بالعصمة * واطاع راعية العقل والحكمة * والسلام .

* * *

«وكتب الى صاحب ديوان الخراج بالحضرة»:

قد كنت أرجو أن تعلقي بالشيخ يأسو خراج الايام لي * وينزع نصالها الواقعة بجنبي * فطالما تعلق المدبر بذيل المقبل فأقبل باقباله * وصارت حاله قطعة من حاله.

وكم صاحب قد جل عن قدر صاحب   فالقى له الاسباب فارتفعا معاً

ويا عجبا كيف لا يغار الشيخ على جانبي منه * وكيف لا يخاف على سخطي فيه * وكيف يرضى بان يرى مصون قولي فيه وقد ابتذلته * وكيف يستحسن أن اسأل غيره بعدما سألته * فوالله تعالى أن لساناً جرى بمدح سواه بعد مدحه لاهل أن ينزع * وأن كلاماً كان فيه ثم صار في سواه لجدير بأن لا يسمع * وقد كنت زففت إلى الشيخ عروساً من كلامي عاتبته فيها * فان كانت حسناء فأين حق الزوجية * وأن كانت قبيحة فأين حق النية * ولا أقل من أن يرضى بالمجان * ان لم يشتر بالأثمان * وأن يمساك بالمعروف أو يسرح باحسان * وأن درهماً يؤخذ مني لدرهم ثقيل الوضع على السلطان * قبيح الاحدوثة في البلدان ولئن كان يعمر به بيت المال * فان يخرب بيت الجمال * ولئن كان يزيد به عدد الدراهم * أنه لينقص من عدة المكارم * ولئن كان يسمى في العامة جباية * أنه يسمى في الخاصة خزاية * وللبس أكفان الموتى * وسرق أدوية المرضى * وقطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام * وزوار قبر النبي عليه السلام * أحسن في الاحدوثة وأبعد من العار والنقيصة من انزام مثلي خراجاً * وسومه غرامة واستخراجاً * وإنما يحاسب نفسه في مثل هذا من وزن أفعاله بمعيار الحرية * وأخذ نفسه بشرائط الانسانية وغار على نفسه * كما يغار على عرسه * وضن بقدره * كما يضن بوفره * وهذه خصائص لا يؤاخذ بها الاحرار * والشيخ بحمد الله صدرهم وبدرهم *

وعليه مدار أمرهم وهو أولى من غضب للادب * وحافظ على الاقدار والرتب .

* * *

« وكتب الى ابي الحسين علي بن دايه » :

لم ينقطع عن كتاب سيدي مع ضنى به * وعشقي له * إلا أنه يبخل علي بأن أحفظه وأرويه * ويخشى علي أن انتحله وأدعيه * فعهدي به لا يبخل على الفقراء * ولا يرضى لاسمه أن يكتب في جريدة البخلاء * أم لأنه يكره أن يصير نظيراً إذا كاتب دونه كثيراً * فهذا ظن غير صائب * ورأي غير ثاقب * فقد يكاتب الكبير الصغير * فلا الكبير يصغر * ولا الصغير يكبر * أم لأنه يخاف أن لا يعرف حقيقة خطابه * ولا يبلغ غور كتابه * فقد علم أن الله تعالى خاطب العامة بوحيه كما يخاطب به الخاصة * أم أنه يأنف الكتابه اللطيف * من جوابي الكثيف * فأزال الخطأ منبهاً على مقدار الصواب * وما زال توسط المجيب دايلا على تقدم المجاب * أم لأن أخوانه الذين استطرفهم من بعدي واعتاضهم مني * قد شغلوا يده عني * فما كنت أظن أنه يحفظ لكل جديد لذة * وينسى لكل عتيق حرمة * أم لأن الأيام أعدته فما حسبته يقبل عدواها * ويتحلى بحلاها * ويرضى لنفسه أن يسعى مسعاها * أم لأن سمرقند بعدت عليه * والكاغذ عز لديه * فأنا اجهز إليه قوافل تحمل من الكاغذ أوقاراً * ويتصل مني إليه قطاراً قطارا * أم لأنه يتكاسل عن مكاتبتي فأنا أكتب عنه إلي * وأرضي قلبي بيدي * هذا إذا تواضع وقبلني كاتباً * فأما أنا فقد رضيت به صاحباً * على أنني منتظر منه أن تعطفه علي العواطف * وأن تعود إلي نعمة السوالف * فلربما غالط الدهر المسيء إلي

بالأحسان * وعاد على الهدم بالبنيان * هذا والكتاب ملقى * لا موقى * تسرع إليه اليد الحاملة * وتعرض له الآفات السانحة * فالماء يغرقه * والنار تحرقه * والريح تطيره * كما أن الأيام تغيره * والدخان يسود بياضه * كما أن الحك يبيض سواده * والرطوبة تضره * كما أن اليبوسة لا تنفعه * فآفاته أكثر من آفات الزجاج الذي يسرع إليه الكسر * ويبطىء عنه الجبر * وحوادثه أكبر من حوادث الغنم التي هي لكل يد غنيمة * ولكل سبع فريسة وأقل آفاته خيانة الحامل * ووقوع الشاغل * وعوائق الفتوح والقوافل * وهذا التطويل كله إرتياد لعذر أجده لسيدي * وأن رجلا اعتذر عنه إلى قلبي * وأبرز ذنبه في معرض ذنبي * لأعظم في عيني من كل عظيم * وأكرم على قلبي من كل كريم * وكأنه في وفيه قيل :

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم * وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

* * *

«وكتب الى ابي الحسن الحكمي» :

طالت أيام الشيخ في تلك الناحية * حتى ظننت أن الدهر فطن لأيامنا في ظله * ولرتعنا في فضله * فزاحمنا عليه * وسابقنا إليه * وسلبنا النعم به * لاسلبنا الله نعمته * فانها نعمة متجاوزة إلى كل من قدح بزنده * واستظل بظل إحسانه ورفده * وإنما يريد الناس النوال للمال * وهو يريد المال للنوال * فالنعمة عليه نعمة على من سواه * والنعمة على غيره نعمة لا تتعداه على أني عارف بأن الله تعالى لن يختم للشيخ إلا بأحمد العواقب * ولا يعدل بحاله إلا إلى الين الجوانب * وعلى الكريم واقية من فعله * وله حصن حصين

من فضله * فاذا زلت به النعل زلة * أو صال عليه الدهر صولة * أقامته يد إحسانه * وانتزعته من مخالب زمانه * فليمد الشيخ عنان رجائه * وليتوقع الفرج في صبحه ومسائه * وليعلم أن وراءه رباً لا يخذله * وسريرة صالحة لا تسلمه * وسلطاناً عادلا لا يظلمه * أراه الله تعالى وأراني في حساده * ما يصيرهم نكالا بين عباده وبلاده * وأراهم فيه من رغائب النعم * وغرائب القسم * ما يتمنون العمى قبل رؤيته * والصمم قبل روايته * وأطال لغمهم ورغمهم بقاه * وجعلهم فدائي ثم جعلني فداه *

* * *

« وكتب إلى أبي الفرج لما قلده خلافة البندار بطوس » :

وردت كتب ولدي على يد جماعة أصدقائه * وكافة أوليائه * وطلبت حصّي منها فلم أجد فيها * فليت شعري كيف قصدني من بينهم الزمان * وكيف خصني منه بالحرمان * وكيف صرت المتثنى * وقعدت على طريق الا * وكيف عدني ولدي في الأجانب * وكنت أعد نفسي في الأقارب * وهلا إذا لم يدخلني في جملة أخوانه وأصفيائه * ادخلني في جملة شيعته وأوليائه * وقد اغتفرت هذه الواحدة * وساؤاخذه إن عاد إليها ثانية * فما يسع عفوي لأكثر من مرة * ولا تنال إقالتي أكثر من عثرة * هذا العمل أول ما جرى ولدي في ميدانه * وسابق أهل زمانه * فان طلب الغاية * وبذل الجهد والطاقة * لحق السابق * وفات اللاحق * وإن قصر فاته المراد * وسبقته الجياد * وهو ابن رجل إن سبق إبنه فلم يشكر * وإن سبق لم يعذر * فليتعتب نفسه * فلا راحة مع الهمة * وليسهر عينه فلا نوم مع طلب الغاية

وليحذر فلتات اليد واللسان * وسكرات الشبان * فان سكر الشباب * أشد من سكر الشراب * وليكتب في قلبه بيد عقله قول الأول * خدمة السلطان والكأسات من أيدي الملاح * ليس يلتئمان فاختر رفعة أو شراب راح * وأني لأعلم أن لولدي عرقاً سيرخي عنانه * ويخلف أقرانه * وأنه لن يستقبل إلا قبلة حسبه ولن يفعل إلا ما يليق به * ولكن أحزم الحزمة لا يستغني عن عظة الأخوان * كما أن اعتق الجياد لا يستغني عن ركض الفرسان * كنت كتبت كتاباً قبل هذا أرخيت فيه عنان لساني * واتعبت في تطويله قلبي وبناني * والتطويل في شكر الجميل اختصار * والاطناب في قضاء الواجب تقصير واقتصار * فلان قد ألف طوس حتى عشقها * وهجر نيسابور حتى طلقها * وتعدى طلاقه إلى طلاق إخوانه بها * وأنا أحسد ولدي على ما خص به من قربه * وأود لو شركته فيه كما شركته في حبه * والحسد على مثل هذا سنة متبعة * وفي غير هذا بدعة مبتدعة * وقد كنت أشكو الأيام وهي تفارقني بأخواني فرادى * وهي اليوم تفارقني بهم مثنى * فتكلفني أن أقيم للشوق نوبتين * وأوجه قلبي إليهم من طريقتين *

* * *

«وكتب الى وزير خوارزمشاه لما نكب وكان خريجة هرجة»:

أصبحت ايد الله الشيخ وامسيت شبعان من كل بغية * ريان من كل مراد ومنية * غير خبر انقشاع هذه الضبابة * وانجلاء هذه السحابة * فاني يعلم الله تعالى ظمآن إلى خبر * يذيل فرحي على غمي * ويهزم بسروري عساكر همي * فما أسرع خبر السوء حتى كأنه يخب * وما أبطأ خبر السرور

حتّى كأنه يدب * وما أولع الدهر بهدم ركن الفضل * وثلم جانب العقل * وما أسرع الأيام على الكريم فيما يضره * وإلى اللئيم فيما يسره * وما أبين مجانسة الدهر لأهله * وأكثر مناسبة الجاهل في جهله * وما أشد غيظي على فلتات الأيام في الكرام * وعلى نفحات الارزاق في اللئام * وما اشوقني أن استمع من أخبار تلك النفس النفيسة ما أبكي له طرباً * كما ضحكت من ضده عجباً * وإلى الله أشكو حالا ضحكها سخرية * ومجاز وعارية * وبكاؤها حق وحقيقة واياه اسأل أن يفني مدة النقص فقد طالت * ويضع من غرة الجهالة فقد استطالت * ويعيد للفضل الكرة * ويزيل عنه الفتور والفترة * ويصب في سمعي من خبر انحسام دواعي هذه المحنة ما يعيد شبابي الذي ولى * ويطرد شيبي الذي تجلى * فحق لمن شاب عن سماع ما يسوءه * أن يشب من سماع ما يسره * وحق لجسم هدمه الغم الامسى * أن يبنيه الفرح اليومي * وحق الدهر أن يكف فقد بالغ في العقاب * وتناهى في العتاب * وحق لصروفه أن تنصرف فقد اشفت وشفت * واكتفت وكفت وزادت على ما في الامكان وأوفت * وحق لها أن تخاطبها بقول ابن المعتز :

يا محنة الدهر كفي   إن لم تكفي فخفي
قد آن أن ترحمينا   من طول هذا التشفي

على أني أرجو أن يكون في طي هذه المحنة من المصالح ما يغمض مسلكه * ويخفي مذهبه * وأن يكون أقل ما يكسبه الشيخ فيها * ويستفيده منها * تمييز معارفيه من إخوانه * والوقوف على من لا يصادقه إلا بصداقة زمانه * وإذا به المغشوش من الدعوى * بنار الاختبار والسلوى * كما قال البحتري وصدق في المقال :

لئن ثنى الدهر عن عزي فلم يصل   وكف من يدي الطولى فلم تطل

لقد حمدت صروفاً منه حيرني   مذمومها غضباً مما علي ولي

ومما سرني والشيخ أن المحنة لم تثلم جوانب جلادته * وأن طول مدة الذلة والقلة لم تعتصر ماء احتماله وصلابته * وأن الوحدة والوحشة لم تقدحا في لسانه وقلبه ولم يظهر اثرهما على صفحات ثباته وعزمه * وان لم تصغر على تلون الزمان نفسه * ولم يلن على أكف أعدائه مسه * وإنهم كبتهم الله وإن توصلوا إلى تغيير نعمته وقد حجبوا عن تغيير همته * وإن تطرقوا إلى كيده باطناً فقد اضطروا إلى تبجيله ظاهراً * وقد قيل في ذلك لعلي بن الجهم :

وما المكر إلا للنساء وإنما   عدوك من اشجاك حين تصارعه

حتى اجتلت عنه غبرة العواقب والعرض نقي *والقلب بالله تعالى قوي * والفعل بحمده تعالى مرضي * والنفس تلك النفس إلا ما نقص من مال * وتضعضع من حال * والجملة فلك الجملة لا الرخاء اكسبها بطراً * ولا البلاء اورثها ضجرا * ولا أساء مجاورة النعمة فتطاول * ولا محاورة المحنة فتضاءل والحمد لله الذي كشف عن مقداره في ميزان الاختبار والابتلاء * واظهر عن حقيقة كيفيته في مرائي الرخاء والبلاء * والايام مرآة الرجال * والاطوار معيار النقص فيهم والكمال * والعثرة بعد الدولة تخرج خبث الاخلاق * وتكشف عن مقادير الاصول والاعراق * ثم الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال * وعافى في الكبير وهو الصيانة والجمال * وقد قيل ما يليق بهذا الحال * من حسن المقال :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة   ولكن عاراً أن يزول التجمل

المال أيدك الله تعالى حطام ينقص ثم يزيد * وظل ينحسر ثم يعود * والشيخ يقضيه قول امير المؤمنين رضي الله تعالى عنه « قيمة كل امرىء ما يحسنه »

أنت ايدك الله تعالى اغنى أهل خوارزم يوم تصير افقرهم * وأكبرهم ساعة تظن اصغرهم * وهو الوزير يوم يعزل * والمصون ساعة يتبذل * والكبير بنفسه * وإنْ انفرد عن غيره * والمستأنس بفضله * وإن استوحش من دهره :

ان الامير هو الذي　　يضحى أميرا يوم عزله
إن زال سلطان الولا　　ية كان في سلطان فضله

* * *

«وكتب الى ابى علي البلعمي لما فارق الحضرة وورد نيسابور» :

كتابي إلى الشيخ وقد امضت الأيام في حكمها * وانفذت في صبري وتجلدي سهمها * والحمد لله تعالى على كل شيء إلا غيبتي عن الشيخ فاني أخشى أن ازداد منها * إذا حمدت الله لها * انتهت بي المحنة بعد فراق الشيخ إلى غاية ليس بينها وبين الموت حجاز * ولا وراءها للبلاء مجاز * حتى لقد ركبت غير دابتي * وأكلت غير نفقتي * ونزلت بيتاً بكراً * وأكلت خبزاً بسرا * وحرمت العيني * وشربت الزبيبي * ولبست الصوف في المصيف * والبردى في الخريف * وكوتبت مواجهة * وخوطبت بالكاف مشافهة * واجلست في صف النعال * أعني اخريات الرجال * وناظرني من كان يدوس علي * وخالفني من كان يختلف إلي * وحتى لقد نشزت على جاريتي * وحرنت على دابتي * وتقدمني في المسير رفيقي * الذي جمعني وإياه طريقي * وحتى أني أخذت الدرهم الجيد فصار في يدي

ستوقاً * وقطعت الثوب المشترى فصار على بدني مسروقاً * وغسلت ثيابي في تموز فغابت الشمس وطلع السحاب * وسافرت في حزيران فعصفت الريح وسد الافق الضباب * وفقدت كل شيء ملكته غير عرضي الذي عهده الشيخ معي * وصبري الذي عرفه مني * ومن لم يكن على المحنة صبوراً * لم يوجد للنعمة شكوراً * ومن لم يحقر سوء ما يبلى * لم يحمد حسن ما يولى * انكر الشيخ عروف نفسي عن مواقف البذلة * وصعوبة جانبي على من جرني إلى مظنة الهوان والذلة والادب سلطان ينسى هيبة السلطان ولطول العشرة دالة تقيم الملوك مقام النظراء والاخوان * ولا ذنب إلا وله في العفو ساحة عريضة * كما أنه لا ذنب إلا وله من العذر مسافة قصيرة * وإنما المدار على الرضى فانه يقرب البعيد * وعلى الغضب فانه يبعد القريب * الهم الله رؤسانا عنا الرضى * واتم لنا باحسانهم إلينا الحسنى * قد علم الشيخ أني مذ كنت لم يسم خدي عذار الهوان * ولم يوضع على رقبتي نير التبذل والامتهان * ولم تطرق الايام حريم عرضي فتنهكه * ولا نالت ستر صيانتي فتهتكه * ولا ماء وجهي فتسفكه * ولقد اخترقت البدو والحضر * ودخلت ديار ربيعة ومضر * فما رأيتني بحمد الله تعالى أوّخر عن رتبه * ولا خاف عن الغاية في موطني رغبة أو رهبه * ومعي إذ ذاك سكر الشباب * وذل الاغتراب * والقوم قد باينوني بالنسبة * وفارقوني بالتربة * وإن عرضاً صنته في غير مظنة الصيانة * بجدير أن لا اهينه في غير موضع الاهانة فقد يبتذل الشاب ويقول اتصون إذا شبت * ويمتحن الغريب ويقول اتعزز إذا ابت * فما اعذر من يحتمل الذل وقد رجع إلى الوطن من الغربة * وخرج من حد الشبيبة إلى الشيبة * وهل وراء الغاية منزلة * أم هل بعد الشيب إلا الموت مرحلة * ورد على كتاب سيدي يدعوني * ومثلي

لا يجيب داعي القول * دون أن يصدقه داعي الفعل * وبالجملة أنا قد تفارقنا على حالة فان كنا عليها والتقينا فيها فآخر التلاق * أول الفراق * ولا يربح من هذا اللقا غير تخريج فراق جديد وتولد حزن جديد * والمرة من الفراق مرة فكيف المرتان * والسهم منه نافذ فكيف السهمان * وإن كنا تغيرنا عن ذلك الخلق * ومشينا في غير تلك الطرق * فيجب أن ندل على ذلك بالاحوال * لا بالاقوال * والشيخ خليق أن لا يفل سيفا شحذه * ولا يضيع علقاً اتخذه * ولا يعطش زرعاً سقاه * ولا يميت خاطراً احياه * ولقد ارخيت عنان خطابه * ووسعت ذرع عتابه ولكن لا خير للشيخ فيمن لا يحمي عرضه * ولا يسخو عن بعضه إلا إذا أفسد بعضه * ويد الشيخ أطول من لساني * وامره امضى من قلمي وبناني * فلينلني لين مسها وأنا بعيد * كما نالتني خشونتها وأنا قريب * وليعلم أنه متى أرادني خيرا ارجف به الناس * وحملته إلى الانفاس * وكان أول رسله إلى عزمي المتذبذب * وقلبي المتقلب * وفي الارض متحول * وعلى الله المعول *

* * *

«وكتب الى ابي محمد العلوي» :

بكتب الانام كتاب ورد فدت يد كاتبه كل يد
يخبر عن حاله عندنا ويذكر من شوقه ما نجد

ورد كتاب السيد اطال الله بقاه * واجزل من كل خير قسمه * ووفر منه سهمه وجعل امسه يحسد يومه * ويومه يحسده غده * فرتع الطرف منه بروضة ممطورة * وحلة منشورة * ولآلي فرائد منثورة * وجال منه

الخاطر في حكم لا تعرف ولا تجهل * وفقر لا تترك ولا تستعمل * وفصول يحسد عليها الخاطر الناظر عند الرؤية * ثم يحسد عليها الناظر الخاطر عند الروية * وجعلت انافس فيه البياض الذي يحتوي عليه * واغبط به المداد الذي جرى في طرفيه * واتمنى لو كانت اعضائي كلها نواظر تبصره * وخواطر تتذكره * والسنة تكرره * على شريطة أن يكون الناظر لا يمل لحظا * والخاطر لا يكل حفظا * واللسان لا يزل لفظا * فسبحان الله كيف جعل محاسن القول والفعل إلى السيد محشورة * وعليه دون الانام مقصورة وكيف لم يرض له بان يسود العالم شرفاً ونسباً * حتى سادهم علماً وادبا * وكنت اعتقد ان الكتابة سوادية ونبطية * فانا الآن اعتقد انها خراسانية وعلوية وكنت ارى ان المحاسن في الناس متفرقة * وانا الآن اراها في واحد مجتمعة وكنت احسب قول الحكمي :

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

كلام مسهب * وملق متكسب .* حتى علمت انه قال ما لا يمتنع امكانه * ولا يتعذر وجدانه * وليت شعري ماذا أقول في هذا الكتاب وقد سد علي مسالك الصفات * وحمى على قلبي ولساني موارد التشبيهات * فاني أن وقفت وقد اجريت لساني * وتوسطت ميداني * ذلك على عرقي في الكوادن * وانسلخت عما سربلنيه السيد بشهادته لي من المحاسن * وأن جريت وقد سد علي توسعة انفاس بياني * وافترع دوني ابكار الالفاظ والمعاني * ناديت على نفسي بانه السابق وأنا اللاحق * وشهدت له علي بأنه المسروق وأنا السارق ولكن الحازم يختار خير الشرين * ويرجح بين المتماثلين * وانا استخير الله تعالى * واعدل عن الأولى إلى الأخرى * واقول هذا الكتاب احسن من كل حسن * إلا من وجه كاتبه * ومن

خلق صاحبه * واغرب من كل غريب * إلا من السيد في زمان لا يسع فضله * ولا يقتضي مثله * واعجب من كل عجيب * إلا من قيامي اعزني الله مقام المجيب * عن كتاب اقصى غايتي ان اذريه واوسع خطى همي أن ارويه * وانور من كل نير إلا من أوقاتي بلقاء السيد فانها اوقات أيامهن قصيرة وسرورهن طويل * وسعودهن طوالع ونحوسهن افول واجل من كل جليل * إلا من مقدار اوبة السيد إلى بلد هو حال باوبته * عاطل بغيبته * عامر به وان خلا من سواه خراب منه * وان جمع العالم إلا اياه * وتعرفت فيه من خبر سلامته ادامها الله له * ولي به * ما اوجب صيام ايام دهري * وقيام ليالي عمري * على ان تكون الايام في طول يوم يزيد بن الطثرية * والليالي في وزن ليالي النابغة الذبياني اردت بقول ابن الطثرية .

ويوم كظل الرمح قصر طوله

ويقول النابغة :

وليل أقاسيه بطيء الكواكب

لا بل على شريطة ان تكون الشمس النهار كشمس ذي الرمة التميمي * ونجم الليل كنجم العباس بن الاحنف الحنفي اردت بقول ذي الرمة * والشمس حيرى لها في الجو تدويم * ويقول العباس بن الاحنف الحنفي *

والنجم في جو السماء كأنـــه اعمى تحير ما لديه قائد

لا بل على شريطة ان تكون صفة الليل كما قال خالد الكاتب * وليل المحب بلا آخر * وصفة النهار كما قال الآخر .

ويوم كأن المصطلين بحـــــره * وان لم يكن جمر قعود على جمر

ولئن اصبحت كل أيام الزمان صائما * وكل لياليه قائما * شكرا لله تعالى

على سلامته * ثم تصدقت بعد ذلك بعدد نخيل البصرة * وآجر الكوفة بل بعدد رمل الدهناء * ونجوم السماء * بل بعدد العالمين * وعدد نبات الارضين * بل بعدد قطر كل بحر * وتربة كل بر * وسراب كل قفر * وحوادث كل دهر وخواطر كل صدر * بل بعدد فضائل علي بن الرضى * ومحن محمد بن العباس الطبري * فانها اكثر من كثير * واكبر من الكبير * لم اكن وفيت النعمة على مهرها * ولا قدرتها حق قدرها * ولا بلغت غورها * ولا اديت شكرها ولا وفيتها بعض قيمتها ولا عشرها * الا اني لما عرفت قصوري عن قضاء الحق ووقوفي دون أدنى مسافات المجهود والطوق * قلت كلمة جعلها الله ثمنا لجنته ورضى بها ثوابا من نعمته * وهي الحمدالله رب العالمين * وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله الطيبين * وعدني السيد من سرعة رجوعه عدة اخشى ان يحمله لؤم دهره على الرجوع فيها * وان يعلمه تنغيص ايام السرور فان الدهر بئس المعلم لبنيه * وبئس المثال لمن يحتذبه * وعهدي بالسيد لا يرجع في هبة ولا ينظر في اعقاب صلة * ولا يندم على حسنة * اللهم الا ان اكون اصبت كرمه * لحبي له * وعجبي به * فان عين الاستحسان آفة من آفات الاحسان * وفرط عجب العاشق بالمعشوق باب من ابواب التغير والتنكر * وسبب من اسباب التنقل والتحول * وانا والله اتهم على السيد عيني * وان كنت لا اتهم قلبي * وارضى لمودته نيتي * وان كنت لا ارضى لها طاقتي .

لي لسان كأنه لي معـــادي ليس ينبي عن كنه ما في فؤادي

حكم الله لي عليه فلو انصف قلـــبي عرفت قدر ودادي

قرأت الفصل المسجع فشغلني الاقتباس منه * عن الجواب عنه * ولقد عمد السيد الى كل سجعة منتخبة في زاوية * ملقاة في ناحية * فالجمها بلجام *

وقادها بزمام * وغير بها في وجه سجعي الملتزق * وكلامي الملفق * وضربني ضربا آلم الخاطر * وان لم يجرح الظاهر * وينكأ في الفهم * وان لم يؤثر في الجسم * واوجع الضرب ما لم يكن معه البكاء * واشد الشكوى ما لم يخففه الاشتكاء * ومن بلغ من البلاغة مقداره * واقتدر على التصرف اقتداره * واحسن ان يسيء في معرض الاحسان * وان يعطي في اثناء الحرمان * وان يمدح مدحا حقيقته هجاء * ويظهر رضى باطنه استبطاء * فيها انا ايد الله السيد وقيذ العي والفدامة * وجريح الخبل والندامة * اذا اشتهيت لقاه لشوقي اليه * وتلهفي عليه * آثرت غيبته لحيائي منه * وقصوري عنه * فويلي من فراقه اذا نأى * وويلي من لقائه اذا وفي * وكما قيل يا عبري مقبلة * ويا سهري مدبرة * ولكن :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنـــا   على ان قرب الدار خير من البعد

عجل الله تعالى اوبة هذا السيد على حالة تحكي وجهه ضياء * وخلقه سناء * ومجلسه بهاء * وقدره علاء * وعقله صفاء * وقلبي له نقاء * وودي له بقاء * ونيتي فيه استواء * وتراب تشيعي له ولاهل بيت هو فيه زكاء ونماء * واراني الله فيه من الصنع الجميل ما يستغرق نثر كل ناثر * ونظم كل ناظم شاعر * ويقع وراء ذكر كل ذاكر * وشكر كل شاكر * ولا زالت ايامه تصبحه بكل فتح * وتمسيه بكل نجح * وتلاقيه بسعد * وتصافحه بجد * وتزوره بمجد * وتودعه بحمد * لياليها اسحار * وظلمائها انوار * وطول اوقاتها قصار :

ان الليالي للانام مناهـــــــل   تطوي وتبسط بينها الاعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة   وطوالهن مع السرور قصار

وما ارضى للسيد دعائي بان يخرج على مقدار همتي * وينزل على حكم قدري

وقيمتي * ولكني اقول: جعل الله تعالى رزق سيدي في سعة همته * وماله في كبر قيمته * وعيشته في حسن شيمته * ونعمته في كثرة نعمته * ليكون دعائي مداخلا * ومدحي له مقابلا * وذكري له بالجميل من كل جانب معما ومخولا ولتكون اقسام وصفه متعادلة * واجناس فضله متماثلة * ذكر السيد انه كتب جواب كتابي من الظهر الى العصر * ولقد استبطأته مع ما أعرفه من بعد غوره * وغزارة بحره * ولكني اغلقت لهذا الجواب بابي * وارخيت له حجابي * وضممت الى نشر كتب آدابي * وجلست من الدواوين بين آل الحراج وآل بويه * ومن بني الحصيب وبني مقلة * ونشرت من المقابر آل يزداد * وآل شداد * وحشرت من الآخرة ابن المقفع البصري * وسهل بن هارون الفارسي * وابن عبدان المصري * والحسن بن وهب الحارثي * واحمد بن يوسف المأموني ووضعت عن يميني عهد ازدشير بن بابكان * وعن يساري كتاب التبيين والبيان * وبين يدي فصول بزرجمهر بن البختكان * وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب عين الزمان * وزين الشيب والشبان * فما زلت اسرق من هذا كلمة * وانظر من ذاك فقرة * واستعير من هناك نادرة وثيقة * اغصب الاحياء على بيانهم * وانبش الموتى من اكفانهم * وانا في اثناء ذلك رطب اللسان بالدعاء رطب العين بالبكاء * ادعو الله بالتوفيق والتسديد * وبالعصمة والتأييد * واسأله ان يحفظني من نفسي * فانها اعدى الاعداء * ومن عجبي فانه ادؤا الادواء * ثم قمت فصليت ركعتين * ختمت في كل ركعة منها ختمتين * واستعذت بالله من الشيطان الرجيم * وقلت بسم الله الرحمن الرحيم * وابتدأت فسودت هذا الكتاب كله * ثم نظرت فاذا انا قد تعبت وحبط العمل * وانفقت مالي وحج الجمل * السيد ابو الحسن اكثر الله في ابي طالب مثله * ولا سلبهم جماله وفضله * فان كون مثله في ابي طالب * رغم لانوف النواصب *

وهيهات لقد اعظمت غلطا * وسألت الله شططا * فنجمنا معاشر الشيعة انحس * وحظنا من الاقبال ابخس * من ان يفلح في الدنيا طالبي * اويسقي فيها ناصبي * ومن حصل مثل هذا السيد والدا * فقد حصل المجد تالدا * وحق لمن كان السيد اباه * ان يكون من الكرم اخاه * فيستويا بالانتماء اليه في الميلاد * وان اختلفا في الولاد * فهذا بضعة من خلقه * وهذا شعبة من خلقه * ومن استقى عرقه من منبع النبوة * ورضع من ثدي الرسالة * وتهدلت اغصانه على بيعة الامامة * وتبجحت اطرافه في عرصة الشرف والسيادة * وتفقأت بيضته عن سلالة الطهارة * وتناول المعالي بيد طويلة * وجرى اليها عن غاية قريبة * لم تستكبر منه حسنة وان كبرت * ولا تستصغر منه سيئة وان صغرت * فامتع الله هذا السيد بهذا الولد * الذي لو لم ينتم اليه قولا * لانتمى اليه فعلا * ولو لم نعلم ولادته من طريق الضرورة * لعلمناها من طريق القياس والفكرة * فان لسان الشبه ناطق * وشاهد النجابة عدل صادق * وقد تكرم الاعراق فتخونها الاغصان * وقد تسبق الشيوخ فتخلف عن مضمارهم الشبان * ولكن بنو طاهر زينوا طاهرا * كما زان اباه طاهر * فكم من اناس لهم اول * وليس لاولهم آخر * طولت على السيد بكلام اسفيدباجي قليل العظم * منحل النظم * داعية الى التكرار والاختصار * يمشي في طريق الاقتدار * فان رأى السيد ان يعير هذا الهذيان اذنا واسعة * ونفسا صابرة * ويتضاحك له تضاحك المعجب به ليغلط به العامة * وان عرفته الخاصة فعل .

* * *

«وكتب الى تلميذ له قصيدة يسأله نسخة قصيدة مما احدثه»:

وصلت القصيدةالغراء الزهراء * فكانت ارق من الماء * بل من الهواء * والذ من الصهباء * واسر من اللقاء بين الاحباء * ومن هجوم السراء * غب الضراء * واعذب من مغازلة النساء * ومن مجالسة الندماء * ومن مساعدة القضاء * ومن معاقرة الشراب على الغناء * ومن استماع فوائد الحكماء * وخطب البلغاء وقلائد الشعراء * ومن اخذ جوائز الامراء * وتحصيل مراتب الخلفاء * فكانت معانيها ابدع من الوفاء * واعز من السخاء * واغرب من النصفة في الاصدقاء * ومن الامانة في الشركاء * بل اغرب من المغرب العنقاء * والفاظها احسن من البدر في الظلماء * واطيب من وصال الحسناء * ومن افتراع العذراء * ومن الشماتة في الاعداء * بل كما قالت الست سكينة بنت امير المؤمنين الحسين رضي الله تعالى عنهما * كنت احسن من الاسماء * واعذب من الماء * لا بل كانت اهنأ من الشفاء * بعد انداء * ومن الرضا عقيب البلاء * ومن النعماء في اثر البأساء * ومن استجابة الدعاء * وتحقيق الرجاء وفتحتها عن الوشي الوشاء * وعن الروضة الغناء * لا بل نشرتها عن الزهرة الزهراء * وعن الغرة الغراء * وعن الدرة العذراء * ورأيتك نطقت بها وعن يمينك التأييد * وعن يسارك التسديد * ومن ورائك الجد السعيد * وانما صنعتها صنع من طب لمن حب * فاني اشهد انك اطب من كل طبيب * واني اليك احب من كل حبيب * واذا صدر الكلام عن صفاء ود * ونقاء عهد * وخرج من متفضل الى مستأهل حضره من التوفيق اذن واعية * وهمة كالية * وصحبه من التسديد عين راعية * وقوى مراعبة * ولم يكن للخطأ طريق اليه * ولا للخطل مجاز عليه * وانما بز القول يحسنه القائل على مقدار حصة

من يهديه اليه * ورغبته فيه * وموضعه منه * وانت ايدك الله تتحفني بما لا استأهله الا على قدر حصتي من قلبك * وموضعي من حبك * ولو عاملتني على طريق المجازاة * لا على طريق المحاباة * لخرج لك على غلط كثير * وحاصل كبير * وقد حملت اليك نسخة كاملة قلتها * فرضيت بها عن شيطاني * وصالحت لها قلبي ولساني * ولعمري لقد أكلتها من جراب الدق * وورثتها من كيس اللب * وعبأتها من رزمة الخاصة * ونسجتها على منوال النصيحة * وقلبت لها جريدة التصفح والتخبر * ونشرت فيها صحيفة التدبر * ونطفت طرفها من اللفظ المستبرد * ومن المعنى المردد * وصقلتها بمدوس النظر * وجلوتها بكف الفكر * ووكلت بها من التمييز جفناً ساهراً * ولمحاً باصراً * حتى دارت في كوكب التنظافة * وخرجت في معرض الطرف واللطافة * وحتى بدت عروساً تفتن الناظر * وتغطي المناظر * وحتى حذيت حذاء الحضرمية ارهفت * وأجادها التحسين والتلسين *

* * *

«وكتب الى حاجب الوزير بن عباد وقد وردت عليه كتب ثم انقطعت» :

أما قصور أجوبة كتبي فاني لا أعاتب الحاجب عليها * ولا أوجه الشكاية عنه اليها * فأنا ولا كفران لله تعالى في زمان يجب أن يجري الجفاء فيه مجرى العادة والسجية * ونضعه موضع السنة بل الفريضة * ونقيمه مقام الجبلة والشيمة * فننظر الى حفظ العهد بين الشامة والطرفة * وننزله منزلة الغريبة والنادرة * ونحكم عليه بنقض العادة وخلاف الجملة * على أني مذ كنت استثني الحاجب من غيره * وأميزه بالفضل وسائر خصال الخير عن أبناء دهره *

واعتقد أني قد ضممت يدي منه على ذخيرة ليس للزمان فيها عمل * ولا عليها للحوادث والغير مدخل * فإن صدق ظني فقد غرست في أرض كريمة * وبنيت مسألتي على علة صحيحة غير سقيمة * وان تكن الأخرى فعادة من عادات الأيام * وغلطة من غلطات الاوهام * وعين عاينة من عيون المجد * وعارضة من عوارض الوفاء وصحة العقد * وما خلوت منذ تفارقنا من نفس تتقد فيه الأضلع * وذكر تفيد له الأدمع * ولا أنسى تلك الأيـــام الطويلة القصيرة بصحبته * والليالي المظلمة المقمرة بطلعته * ولا أتفكر في صغر حجم المقام * وتقارب خطى تلك الأيام * إلا أنشدت :

لم أستتم عناقـــه للقائــه حتى ابتدأت عناقـــه لوداعه

وإذا كان في قصة الشعراء * وفي شريطة الوصافين والبلغاء * أن الوقت الطيب قصير وان لم يقصر * كما ان غيره كبير وان لم يكبر * فعلى هذا القياس ان ايامنا كانت قصيرة مرتين * وقليلة من جهتين * اما الاولى فقصر الامد * وقلة العدد * واما الثانية فصفاء الوقت من الكدر * ونقاؤه من وضر الحوادث والغير * فسبحان من جعل محنتي زائدة على محن الناس * وفاضلة عن معاسير العادة والقياس * حتى أن نقصان أوقاتي المسعودة * وأيامـــي المحمودة * حصل مثنى مثنى * ورجحانها يحصل فرادى فرادى * كما أن نحوسي لا يجب أن يجيئني الا غريبة عجيبة * ولا يمكنها أن تسلك طريقها إلي حتى تقود حبيبه * وصلت الرسالة والقصيدة * وكانت الأولى ماء زلالا * والأخرى سحراً حلالا * وما منهما إلا قريب شاسع * ومطامع مانع * كالشمس تقرب سنا * وتبعد سناء * وتنال ضياء * وتبعد علاء * وكالمـــاء يرخص موجودا * ويغلو مفقودا * ورأيت فيهما من غرائب الرجحان * ما نقض عادة الزمان * حتى لقد قامت الحيرة منهما في وجه علمي * وحتى لقد توقفت

بين فهمي ووهمي * والآداب كلها زين * وهي اذا تكافأت أزين * والمعارف كلها حسنة وهي إذا تقابات أجمل وأحسن * والكتابة آلة عجيبة * وهي من الشاعر أعجب * كما أن الشعر صناعة غريبة * وهو من الكاتب أغرب * وإذا ورد علي من الحاجب كلام فضلته على ما قبله * واستثنيت في التفضيل ما بعده * لعلمي أنه قد امتطى من الاقبال مطية لن تقف به إلا على الغاية * وسلك من السعادة طريقاً يؤديه الى الزيادة * وابتدأ في وظيفة من الجمال * ان تختم له الا باقصى غاية الكمال * وانا اسأل الله تعالى ان يجعله في هذه الصناعة نجما يهتدي بأثره * ودليلا يورد بورده * ويصدر بصدره * وان يقيم لكلامه علما يرمقه البعيد * ويستذري به القريب * انه قريب مجيب * والحمد لله الذي جعل الحاجب يضرب في المحاسن بالقدح المعلى * ويسمو فيها الى الشرف الاعلى * ولم يجعل فيه موضعا للولا * ولا مجالا لالا * فان الاستثناء اذا عرض في الكلام نضب ماؤه * وكدر نقاؤه وصفاؤه * ونطق فيه حساده واعداؤه * ولذلك قالوا ما املح الظبي لولا خنس انفه * وما احسن البدر لولا كلف لونه * وما اطيب الخمر لولا الخمار وما اشرف الجود لولا الاقتار * وما احمد مغبة الصبر لولا فناء العمر * وما اطيب الدنيا لو دامت واستقامت *

ما اعلم الناس ان الجود مكسبة للمجد لكنه يأتي على النشب

* * *

«وكتب الى محمد بن حمزة رئيس خوارزم»

ورد كتاب الشيخ فاورد من السرور * اضعاف ما كان فيه من السطور *

بل اعداد ما كان فيه من الحروف * بل اضعاف ذلك بالألف بل الوف * وفهمته اما ما ذكر الشيخ من انثيال الناس عليه * يستعيرونه نسخ كتبي اليه * فانما حملهم على ذلك عجبه بي * وصار سببا لعجبه بكتبي * وصار ذلك داعية الناس الى عجبهم بها * وحاملا لهم على انتساخهم لها * وهم في ذلك رجلان * اما احدهما فانه يتبرك باتباع رأيه * والسير تحت لوائه * واما الآخر فانه يتقرب اليه بمجانسته * ويتشرف بين الناس بمناسبته * والا فهذه الكتب ايبس متونا * واقل عيونا * من ان يفخر بها مملي * او يرغب فيها مستملى * او تشغل بها الاقلام والدفاتر * او يوقف عليها ناظر او خاطر * او يحرص عليها كاتب او شاعر * ومما يحملني على التجوز فيها * وينهاني عن الاحتشاد والتكلف لها * اني اصدرتها الى حضرة من اذا رأى سيئة ستر وغفر * وعذر واعذر * وان رأى حسنة نشر واظهر * وقرر وكرر * وفكر وصور * وجعل الخمسة عشرة * والعشرة خمسة عشر * وسيرد كتابي بعد هذه الكرة الى الشيخ مشبع الفصول * ضافي الذيول * وافي القسم من العرض والطول فقد وافق مني هذه الكرة ساعد فصاداوهن الآلة * واورث الكلالة والملالة وعاجلني الفتح ملازما بالباب * مطالبا بالجواب * مجاوزا باب المسألة الى باب العتاب * فكتبت وسرح البديهة عازب * وماء القريحة ناضب .

* * *

«وكتب الى كاتب الرئيس بنيسابور»

ليت شعري ما صنع بعد العهد * بقلب سيدي هل غيره عما عهدته عليه من إقامة رسوم الود * وتوثيق أطناب العقد * أم هب عليه رياح التنقل والتحول ومد إليه يد التغير والتبدل * فان ذلك صنع الأيام بالقلوب وتقلبها يميناً وشمالا وتلونها حالا فحالا * بل ليت شعري هل نسي سيدي من لا ينساه *

وسلي من لا يسلاه * واستبدل بمن لا يريد إلا اياه * ولا يعتاض من لقياه غير ذكراه * وهو صديقنا أبو بكر الخوارزمي الطبري اعزه الله تعالى أم هو على رخم ظني به وكذب وهمي عليه * ثابت ركن انصفاء * صافي شرب الاخاء * حافظ علي الغيب ما كان يحفظه على اللقاء * فقد علم الله أنه تقاسم قلبي هذان الظنان ونازعني في علمي به هذان الطريقان * فان ملت إلى أولهما وهو أغلبهما على وأقربهما إلي * ذهبت في القياس بالناس على الناس مذهباً شديداً * ووقف بي سوء الظن بالزمان وأهله موقفاً قريباً بعيداً * وأن ملت إلى الثاني فسيدي أيده الله تعالى يستحق أن يستثنى من غيره * وأن يحكم له بحكم يباين به أهل عصره وأن يكذب فيه الظن إذا نسبه إلى مجانسة الدهر * ويرد له القياس إذا قضي عليه بمعاونة التلون والغدر * وأنا الآن في هذه الجملة واقفي وعهده بي لا أتواضع لمذهب الواقفية * ومزجي وما كانت تطمع في مثلي شباك المزجية * فكيف أعاتب سيدي بل كيف أعاقبه * بل كيف أخاصمه وأواثبه * بل كيف اطاعته واضاربه * وأقل ما جنته علي غيبته أني كنت معتزلياً * فصرت مزجياً وقاطعاً على صحة مذهبي فعدت به واقفياً هذه أصغر جنايات فراقه علي * وأقل صنيع وداعه إلي * ثم أني بعد هذا كله طويل الليل منذ فارقته بل قصيره وقليل الأنس بعده بل كثيره * أما طول ليلي فلتذكري طول غيبته * وأما قصره فلقطعي له بتمني أوبته * وأما قلة أنسي فلبعده عني الآن وأما كثرته فلتمثلي قربه الدان ولتصوري طلعته في قلبي وعيني *ونظري إليه عن مرآة من هاجسي وظني على أنني أرجو أن خطو أيام الفراق قد قصر * وأن حجمها قد صغر * وأن سيدي وارد قبل أن يبرني بالجواب عن هذا الكتاب * ولعمري لئن ورد علي قبل أن يكتب الجواب إلي * لقد بر الكاتب * وإن عق الكتاب * فيكون قد بر بالكبير

الكبير * وعق في الصغير الأصغير * ولأن يونس عيني بلحظه * أحب إلي من أن يؤنس سمعي بلفظه * وأن كان كلامه في نفسي ماء زلالا * وفي أذني سحراً حلالا * وكلام الحبيب حبيب * وكل شيء من القريب قريب * قال جرير :

إن البلية من يمل كلامه فانقع فؤادك من حديث الوامق

وقال غيره :

وإذا كرهت فتى كرهت كلامه وإذا سمعت غناءه لم تطرب

أردت مكاتبة الرئيس ثم أشفقت على سمعه أن املأه بالكلام الغث * وعلى ناظره أن اشغله بالخط الرث * ورأيت رثاء بلاغتي أقصر * وقيمة ألفاظي التي فيها أقل واحقر * من أن اعرضها لنظره * وامرها على سمعه وبصره واتعرض بها لخطة اسلم طرفها طريق العذر * وآمن مسالكها مسلك التغافل والستر * ومن فطن لعيبه فقد استتر * ومن عرف ذنبه فقد اعتذر * ومن مد يداً قصيرة ليتناول بها غاية بعيدة فقد استهدف لسهام التوقيف * وقعد على قارعة التقريع والتعنيف * وسيدي يعتذر عني إليه * ويقرأ سلامي عليه * ويعرفه عني أني اعد نيسابور رستاقاً إذا غاب عنها واعد الرساتيق قصبة إذا أقام فيها * وأني لا آنس بشيء إذا غبت عنه * كما لا استوحش من شيء إذا قربت منه * والله تعالى اسأل أن يرد على نيسابور بهاها * ويعيد إليها بطلعته سناها وضياها * ويجلي بشمسه ظلماها * وأن يجعل نعمته عليه الوفا لا عزوفاً * فان النعمة إذا الفت قرت * وإذا عرفت فرت لانها لا تألف إلا مكاناً تتزين بنزوله * ولا تقيم إلا على باب لا تأنف من دخوله * ولا يطول مكثها إلا في بيت للشرف فيه مجال * وللمادح فيه مقال * وللادب فيه ممرح * ولعصا الأمل فيه مطرح * فان أصابت مثل

هذا المكان نفضت غبار الترحال * ونسيت حديث الزوال والانتقال * وخالطت خلطة الشركاء * وواصلت وصلة الاقرباء * وصارت من الاجداد إلى الآباء * ومن الآباء إلى الأبناء * وإذا كان نزولها في مكان هي فيه غريبة احتشمت حشمة الغرباء * وانقبضت انقباض الاجانب البعداء * أو تقلبت إلى الارتحال * وأقامت بين الدلال والادلال * ولم يكن مقامها إلا عدد أيام * واضغاث احلام * وإنما النعمة انثى إذا أصابت كفوا ناكحت وإذا صادفت غير كفو سافحت * فهي تقيم مع اكفائها الشهر والدهر * وترحل عن غير اكفائها الظهر والعصر * وأين يقع مقام الحليلة خلياها * وأن ما أسسه الحق وبنته الشريعة * خير مما اسسه الباطل وبنته البدعة * والله تعالى يطيل بقاء * ويجعل من يحسده فداه *

* * *

«وكتب الى ابي الحسن الحاكم بن أبي حاتم لما هرب من نيسابور الى بخارا بعد ان أرادوا القبض بها عليه بعث خلفه فلم يجده»

ما زلت انشد ايد الله الحاكم قول الاول :

رب امر تتقيه   جر نفعاً ترتجيه
خفي المحبوب منه   وبدا المكروه فيه

فانظر إلى تنزيله * ولا اقف على حقيقة تأويله * وارى ظاهره * ولا استشف باطنه * حتى خرج من خروج الحاكم ما جرى * ووقى الله من المكروه في ذلك ما وقى * فعلمت حينئذ ان الطاف الله تعالى تسير إلى عباده

في طرق خفية المذاهب * دقيقة الجوانب * وان السلامة ربما نشأت في معرض الخطر * وان الامن ربما ظهر في قالب الخوف والحذر * وانا لشي ما امرنا أن نستعيذ من شر ما ندري وما لا ندري * وما كنت أشعر أن فراق الصديق يسر * وان الاجتماع معه يضر * ولا كنت اصدق ان الداء يستحيل دواء * ولا ان الدواء يجلب داء * ولو رأيت في المنام أني فارقت الحاكم ولم يتفطر عليه كبدي حرقات * ولم تذهب نفسي في اثره حسرات لتعوذت بالله من شر منامي * وسألت العافية من طوارق احلامي * ولظننت أن تلك الرؤيا نتيجة فكر ردي * وبخار خلط سوداوي * وأني إنما دفعت في منامي إلى مثل هذا التخليط * لأكل الباذنجان والقنبيط * فانهما منابع السوداء * على مذهب الاطباء * والآن فقد فارقت الحاكم وانا ضاحك السن قرير العين * قليل الحزن جلد على وقع سهام البين * لأني رأيت العافية وهي متعلقة بذنب رحيله عنا * وإلى البلايا وهي مشتملة على قربه منا فاخترت على مقامه رحيله * وآثرت اغتمامي له * وقلت يا عين * لأن ترى فراق ما تحبين * خير من أن ترى في من تحبين ما تكرهين * فالحمد لله الذي اقصى بي من المكروه إلى اخفه وقعاً * واقله لذعاً * وانتهى بي من المحنة إلى غاية لم تستغرق اقصى امكان الدهر * ولم تستوعب ابعد غايات التجلد والصبر * وما نقص من الشر * فهو زائد في اقسام الخير * وما وقع من المكروه فهو محبوب وإن كره ظاهره * ومحمود وإن ذم عاجله * وما كنت احسبني اعيش حتى احمد الله على فراق الاصدقاء * واتكلم في مواقف الضراء * بما يتكلم به في مواقف السراء * ولقد اغرب علي الدهر وما كنت اظن يغرب علي * ويزيد من بوادره على ما لدي * هذا أيد الله الحاكم وقد بث الاعداء شباك الغدر * ونصبوا حبائل المكر * واستفرغوا

في السعاية جهدهم * واخرجوا اقصى ما عندهم * فابى الله تعالى وله الحمد إلا أن يقع في البئر من حفر * وأنلا يحيق المكر السيء إلا بمن مكر * وخرج الحاكم من غيابة تلك الأهوال * خروج المشرفي من الصقال * وقد فديت عنه عين الزمان * وقصرت دونه خطوة الحدثان * إذا أذن الله في حاجة * اتاك النجاح بها يركض * إذا الله سنى عقد شيء تيسرا * والحمد لله الذي لم يرني وجه الحق اسود * ولا ناظر العدل والتوحيد ارمد * ولم يشمت الناقص بالفاضل * ولم يضحك الحق سن الباطل * ثم الحمد لله الذي جلى تلك الضبابة * وقشع تلك السحابة * وغسل عن وجهي وعن وجه أهل الحق تلك الكآبة * ثم الحمد لله الذي ختم للحاكم بالمصير إلى حضرة ترفرف عليها الرجال * وعليها تحوم الهمم والآمال * وإليها تنتهي الرغبة والسؤال * فلا مجاز لهمة خلفها * كما لا منتهى لها دونها * ولا غاية لطالب قبلها * كما لا نهاية له بعدها * وارجو أن الدهر المحارب قد سالم * وأن البخت المعاند قد سلم * وأن مدة الفترة قد تناهت * وأن غاية المحنة قد انتهت * وأن عسكر النحوس قد عزم على القفول * وأن نجم الهم قد أذن بالأفول * وأنا بعد هذا كله اتعجب من كثرة قولي الحمد لله ثم الحمد لله * وأقول هذا حمدي على فراق الاصدقاء * فكيف حمدي على اللقاء * وهذا شكري على المحنة * فكيف به على المنحة * وقد كان مات لعبد الملك بن مروان ابن فقال الحمد لله يقتل أولادنا ونحبه وأنا أقول الحمد لله الذي فرق عنا أخواننا ونحمده *

* * *

«وكتب الى وكيل الوزير ابن عباد بأصفهان وقد ولي سوق الطعام بعناية وهو أمي» :

كتابي وقد علم الله تعالى ان امرك مستول على افكاري * وشاغلي عن ساعات ليلي ونهاري * فاذاك بصدد شغل ان كفيته لم تشكر * وان عجزت عنه لم تعذر إذ كان الاحسان في شرطك * والاساءة غير مظنونة بك * والذي اراه لك ان تقسم لكل ساعة حقاً من نفسك * وتصرف إلى كل وقت طائفة من شغلك * ولا تبيت ليلة الا وقد اقمت وظيفة يومها * ولا تمر بك ساعة إلا وقد توفرت عليها بقسمها * ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد * ولا تهمل نفسك في شغل السبت إلى الاحد * فان الاشغال إذا تزاحمت اعمت الناظر * وشغلت القلب والخاطر وبلدت الكافي والماهر * وكيف مثلك وانت اعزل اليد من سلاح الكتابة * مصروف عن اعظم حظوظ الكفاية * فاياك وتعريض مائي عند ولي نعمتي للنضوب * ووجهي للشحوب * وعلى بن سعيد ذو القلمين * والفضل بن سهل ذو الرئاستين * واسحق بن كنداج ذو السيفين * وصاعد بن مخلد ذو الوزارتين وفي المتقدمين خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين * وقيس بن مسعود ذو الجدين وابن الشريد ذو السهمين * والنعمان بن المنذر بن ماء السماء ذو القرنين * وكعب بن مانع ذو الكتابتين * وجعفر ذو الجناحين * وعثمان ذو النورين * وفلان ذو اليدين * وفلان ذو الشمالين * وفلان ذو البردين * وعبدالله ذو النجادين وابو بكر الخوارزمي ذو الغرامتين * وذلك أني ثقلت على ولي نعمتي مرة في حوايجي ثم اثقل عليه اخرى في حوايجك ثانية * على انه ايده الله تعالى واسع الحكمة طويل الخطوة * كثير التوسع والمسامحة في باب الاموال مع الكمال * يسامح في بدرة سائلا * ويضايق في

حبة عاملا * وكذلك الكريم يتسع من حيث السخاء ويضيق من حيث الوفاء * ويبتذل ماله تخرجاً * ويحمي دينه تحرجاً * فلا يحملني معه على خطة ان اجانبي منها إلى مرادي استوحش * وان منعني اوحش ولا تأمن السم باصفهان * إذا كان درياقه بخراسان * وفي هذا القدر ذكر لمن كان له قاب * واغاثة على من له لب * الاستاذ فلان ايده الله تعالى * قد كثرت كتبي اليه * وطال وعرض صداعي عليه * ولذلك لم اكاتبه في هذه العلة التي عظم موقعها مني * وجل خطرها في قلبي وعيني * ولقد اعتل بعلته الكرم * وشكا شكاية السيف والقلم * وكسفت به شمس الادب * وتزعزع له عرش العرب * فانما عاة مثله تغير عالم * وفساد امم * وخراب مسالك * واضطراب ممالك * وكرة النقص على الفضل * ودولة الجهل على العقل * ووهن على العلم واهله * وفترة في الكرم وحزبه * فالله تعالى يعيد بصحته إلى الدنيا ضيآءها * ويرد على السحب ماءها * ويجعل ما يستأنفه من عمره * ويقتبله من عيشه * مصفى من الغير * منقى من الوضر * وخالصاً من كل خوف وخطر * وصافياً من كل شوب وكدر * ليكون ما مضى كفارة * وما بقي نعمة * سيدي فلان قد فطمني عن عادته الجميلة * وارتجع ما كان عندي من عطيته الجزيلة * وقطع عني كتبه التي إذا وردت إلي حسدت على لمسها يدي * وعلى لحظها عيني * واحتسب على ما زاده الله تعالى جلاله قدر * وكمل كمال بدر * ولكن تلك الزيادة يحاسب عليها الاعداء لا الاصدقاء * فأما من هو شريك فيها وآخذ بقسم منها فلا بل زيادة النعمة توجب زيادة الصدقة * وفضل المال يقتضي فضل النوال * والتواضع في الرئاسة * احدى شباثاث السياسة * فاقرأ اعزك الله تعالى سلامي عليه * وعرفه أني قد كنت رويت ابياتاً والقلب غير مقسم الافكار * والحفظ غير كليل الفرار * فلما سلبني الدهر ثوب الشباب * ومزق علي رداء الجمال

والكمال نسيتها * فلما عاملني سيدي فلان بما ذكرته ذكرتها ولقد احسن إلي * من حيث رد روايتي علي * وان كان اساء بي من حيث ارتجع مني بره * وجانس في دهره * وفديت من له اثناء كل مساءة منه مسرة * وفي ضمن كل جفوة منه مبرة * ومن إذا احسن كان احسانه خالصاً من كل شوب * وصافياً من كل عيب وريب * وان اساء كانت اساءته بالاحسان مشوبة * وإلى غير جهتها مقلوبة .

والابيات :

كفى حزناً ان لا صديق ولا اخ — يفيد غناء لا يداخله كبر

والا التوى او ظن انك دونه — وتلك التي جلت فما عندها صبر

فلا نال فوق القوت مثقال ذرة — صديق ولا اوفى على غيره اليسر

وما ذاك إلا رغبة في وصاله — والا حذاراً ان يميل به الدهر

* * *

«وكتب الى أبي القاسم الدوادي اول ما افتتح بمكاتبته» :

كتابي وعزيز علي ان يجمعني والفقيه بقعة * او تشتمل علينا جملة * والكتابة فيما بيننا دراسة الاثر * مهملة الورد والصدر * واشد على من هذا ان افتتح ذلك بسؤال حاجة * او امزج ماءه وبهاءه بتكلف كلفة * ولقد حاسبت على هذا نفسي * وعاتبت فيه قلبي * فرأيت ان جفاء يؤدي إلى البربر * وان ذنباً ينتسب إلى العذر عذر * وان حاجة حملت على طي بساط الحشمة * وعمارة طريق المكاتبة والمباسطة * حاجة عظيمة البركة * محمودة التفصيل والجملة * فعذرت نفسي اعزني الله تعالى قبل ان تعتذر * وغفرت لها قبل

ان تستغفر * ونسيت قول الاول :

وما حسن ان يعذر المرء نفسه　　　وليس له من سائر الناس عاذر

حتى كان هذا البيت لم يجر بين قلبي وكتبي * ولم يسافر بين جنبي وقلبي * وحتى كأني لم أدرسه صغيراً * ولم أدرسه الناس كبيراً * وحتى كأني لم ار الديوان الذي هو فيه * والشعر الذي هو بعض قوافيه * والعجب أني في هذا الفصل بينما انا اعتذر * إذ صرت افتخر * وبينما انا اضع من نفسي لجنايتها * إذ صرت اعدلها لحفظها وروايتها * وهكذا من جمح به قلبه وبنانه * واستنزله تبيينه وبيانه * بل هكذا يكون من جرى في ميدان الكتابة وهو راجل * ورمى في هدف البلاغة وسهمه افوق ناصل * ثم نرجع إلى حديث المكاتبة * والله لو كان من الورق اعز من الوفاء * واغرب من السخاء * والقلم اغلى من الماء * في وسط الدهناه * واقل من المغرب العنقاء * واعوز من الكمال في النساء * ومن الصدق في الشعراء * ومن ترك الريا في القراء * والحبر والمداد اضيق من الانصاف في الاصدقاء * وحسن العشرة في الندماء * بل اضيق من امانة الشركاء * بل اضيق من خاطر أبي تمام حيث قال * قدك اتئب افرطت في الغلواء * حتى كأنه لو لم يقع على احلى من هذا الابتداء لما كان لي عذر في ترك مكاتبة الفقيه * وبيني وبينه ثلث للخريطة * ومسيرة سبع للقافلة * هذا في الظاهر فأما في الحقيقة فبيننا الف فرسخ بذراع الميل * وخطوة الفيل * الخطوة بين المتحابين * فراسخ كثيرة * ومراحل طويلة عريضة * ما زلت ايد الله الفقيه اورد على قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي *

يا اهل بابل ما نفست عليكم　　　من عيشكم الا ثلاث خصال

ماء الفرات وطيب ظل بارد　　　وسماع محسنتين لابن هلال

فأقول هلا حسد أهل العراق على المتصرفين * او الرافدين * او على الرطب السابري * والتين الوزيري * والعنب الرازقي * او على فرضتهم من ماء

الساج والعاج * وطرازهم بنو الخز والديباج * لا بل هلا حسدهم على ان فيما بينهم مشهد امير المؤمنين سيد الاوصياء * ومشهد الحسين سيد الشهداء * وهلا حسدهم على ان ارضهم واسطة العمارة في خط الاعتدال * بين الجنوب والشمال * وهلا حسدهم على ان الرأي كوفي * والاعتزال بصري * والخط انباري * والحساب سوادي * والتشيع عراقي * وهلا حسدهم قراء الكوفة * وعباد البصرة وابدال الابلة وعلى من هاجر اليهم من الصحابة * ونبغ فيهم من التابعين وابدال الامة * وما الذي خالف به إلى ان حسدهم على ظل هو مشترك بين سائر البلدان * وعلى قينتين كسائر القيان * بكل مكان * في كل زمان * حتى حدثت نفسي بمناقضته * وحملت خاطري ولساني على معارضته * فاذا انا جالس تحت قول الطائي:

نقضينـــا للحطيئة الف بيت   كذاك الحي يغلب الف ميت
إذا ما الحي هاجى حشو قبر   فذلكم ابـــن زانية بزيت

وتذممت من ان اعارض بلسان خوارزمي * وعقل طبري * وخاطر اعجمي من لسانه عربي * وعقله قرشي * ونشؤه مكي * وظرفه مخزومي * فعدلت عن المعارضة إلى المناقلة * فقلت يا اهل هراة ما حسدتكم الا على ثلاثة: مشهد عبدالله بن معاوية الجعبري فيكم * وكون أبي القاسم الدوادي منكم * وحصول شراب الكشمش لكم * وان بقعة خصت بالفقيه لوافرة القسم من الاقسام * معلاة السهم من بين السهام * غير عاتبة على الحظوظ والايام * فلا زالت البقاع ببقائه تضيء وتزهر * والايام بجماله تتباهى وتفخر * ولا زالت الفصاحة من لسانه في مسكن لا تريد منه بدلا * ولا تبغي عنه حولا * ولا زال العلم يأوي منه إلى ركن منيع * وجناب مريع * واطال الله تعالى

للمحاسن بقاه ولا سلبه زينه وبهاه * وجعل من يحسده فداه .

* * *

« وكتب الى تلميذ له رسالة وقصيده » :

وصل كتابك المبشر بخبر افاقتك عن علتك * بشارة لو تصدقت لها بمالي وذبحت لها على وجه القربان أطفالي * لكان ذلك صغيراً جلا * ومباحاً مبتذلا * وفي ضمنها القصيدة التي كبرت بل صغرت * وقلت بل كثرت * اما كبرها وكثرها فلجلالة قدرها * وعظم امرها * واما صغرها وقلتها * فلانها في جريدة الشعر وحدها * لا مثل لها قبلها ولا بعدها * وفهمتها وتعجبت من اعتذارك بالعلة * وما ارى هذه العلة زادتك رجحاناً * ولا نقصتك الا نقصاناً * ونقصان النقصان اول الرجحان * كثر مدحي ايدك الله تعالى لما يرد على من نثرك وشعرك * بل درك وبحرك * حتى خشيت ان يحسب أني ازف مدحي إلى كل خاطب * وابدل شهادتي لكل طالب * وان يظن أني اقارضك الثنا * واصارفك الجزا * ولا والله مالي للدنيا استحسان * الا وإلى جنبه إحسان * واني لضيق ذرع النزكية والثناء * قصير خطى المدح والثناء * محاسب لقلبي إذا مال * وللساني إذا قال * لا امدح إلا ممدوحاً بكل لسان * ولا ارضى الا مرتضى بكل مكان * ولا أقبل مدلس الفضل * ولا أتبع مغشوش القول والفعل * ولا يستفزني رعد كل سحاب * ولا يستخفني طنين كل ذباب * وسرعة الشهادة طريق من طرق الخفة * وابتذال المدح والنزكية باب من ابواب الزلة والملق * والمجازفة بحساب القال * اقبح من المجازفة بحساب المال * لان الغلط في المال سماحة وندى * والغلط

في المقال حماقة وعيا * واقصى غايات فوات المال ان يكون من صاحبه فقيراً * وادنى غايات فوات الصواب ان يكون صاحبه سخيفاً حقيراً * وبين الخسرانين نفس مديد * وبون بعيد * ومن لم يعرف صرف ما بين النقصانين * لم يعرف صرف ما بين الخسرانين * ومن لم يحس بنقص ما عليه * لم يحس بفضل ماله * ومن لم يحاسب نفسه سراً * حاسبه غيره جهراً * ومن لم يكبح عنان لسانه وقلمه بيد التأمل ولسان التبين * جمحاً به إلى غاية اولها ندامة * وآخرها ملامة * جعلنا الله تعالى ممن إذا تكلم لم يضع زمام كلامه في يد هواه * وإذا شهد لم يلق رق شهادته في عنق سخطه ورضاه * وحشرنا في زمرة من إذا تكلموا كانوا غانمين * وإذا سكتوا كانوا سالمين * انه ارحم الراحمين * رجعنا إلى حديث الرسالة والقصيدة * نظمك ايدك الله تعالى احسن من نثرك * ونثرك احسن من شعرك * فكل واحد منهما عيار على صاحبه حسناً وجمالا * ومثال له تماماً وكمالا * فالحمد لله الذي جعل بيانك متكافيء الشرف * متعادل الظرف والطرف * وجعل سماء محاسنك مقابلة لارضها * وبعض مناقبك منعوتة ببعضها * ولو انصفتك لاحببتك بقلبين * ومدحتك بلسانين * كما انك تحسن إلي من جانبين * وتبرني من لونين * ولكن إلى غايته ينتهي المدد * وعند طاقته يقف المجتهد * فأما اعتذارك بالعلة * من وقوفك دون الغاية * وجريك في بعض الحلبة * فاحسن من الحسن استزادتك منه * واجمل من الجميل اعتذارك عنه * والكتاب مذ ورد يدور في العيون والافهام * ويسافر دون الدوي والاقلام * وفهمت الفصل في حديث المصيبة * وانما كانت نازلة طرقت ثم مرت * وشقشقة هدرت ثم قرت * وإذا قابلنا بين حسنات الدهر وسيئاته * ووازنا بين طرفي ارتجاعه وهباته * خرج له علينا حاصل كثير * ولكن الانسان إلى الشكاية اعجل * وطريقها عليه اسهل * ولقد اعطتني الايام

حتّى صرت لا احمدها إذا وهبت * واخذت مني حتى صرت لا أذمها إذا أخذت وسلبت *

وفارقت حتّى ما ابالي من انثوى وان بان جيران على كرام
فقد جعلت نفسي على النأي تنطوي وعيني على فقد الصديق تنام

* * *

« وكتب الى رئيس ... مرخس وقد ورد عليه ابنه يعتذر من تقصيره اليه » :

كتابي وقد كنت أخرج إلى اخواني من عهدة تقصيري * واقر لهم بما في من عيب تفريطي وتعذيري * واعرفهم أني في تعدهم دون مقتضى حقوقهم * واخرج مما اريده في برهم إلى عقوقهم * حتّى اتفق الآن من ورود فلان * ما كشف عن غيبي * وابرز من عيبي * ونادى علي باني صديق مقال * لا صديق فعال * وان مودتي مجازية لا حقيقية * ولسانية لا قلبية * واقل ما يجب علي وقد حضر مثله في داري * ان انثر عليه صلك عقاري * ثم اعتذر اليه من قلة نثاري * وان اعبق على وجهه كل نسمة احتويها * واحل له كل عقدة اتصرف فيها * واصبح صائماً * وابيت قائماً * ثم اعتد ذلك كله في جنب الواجب هباء منثوراً * وقليلا محقوراً * ولقد كنت تذكرت وروده علي حتّى رجوته وتمنيته * ثم خفته واتقيته * اما رجائي له فحياء للقياه * واما خوفي له فعلما بقصوري عن بلوغ رضاه * وضعفي عن اقامة شريطة ما يقتضيه حبي إيـــاه *

وكنت كبكر تحب النكاح وتفرق من صولة الناكح

واما ولدي فلان فقد كشفته عن جوهرة كريمة * ودرة يتيمة * وقلبته عن عقل كثير * وأدب غزير * وشعر يحسده عليه الاعداء * وتغبطه به الاصدقاء * يلتقط بالابصار ويخزن في الافكار * وقريحة اصفى من ماء السماء * واصح من الوفاء * فهو بحمد الله على قرب اسناده * وحدوث ميلاده * شيخ قدر وهيبة * وان لم يكن شيخ وشيبة * ووالد من حيث الذكر والفخر * وان كان ولداً من حيث العرق والنجر * ومثل والده فلان خرج فاغرب * وادب فهذب * وولد فانجب « ان الاصول عليها ينبت الشجر » وليست النجابة في هذا البيت موروثة عن كلالة * ولا خارجة عن رسم وعادة * امتعنا الله تعالى بهذا الولد الذي سبق الاولاد * واحيا الاباء والاجداد * وارغم الاعداء والحساد * وكتب اسمه في حسنات الايام * بل في حسنات الانام * كما كتب شعره في محاسن الكلام * والهمنا من شكر نعمته به علينا ما يرتهن به بقاها * ونتمنى معه بهاها * فان النعم إذا ارتبطت بالشكر اقامت وسكنت * وإذا لقيت بالكفران قامت فظعنت * واما ايام فلان عندنا فقد كانت اطيب من ليل المراد * ولكنها اقصر من ساعات الاعياد * ولكن * لم استتم عناقه للقائه * حتى ابتدأت عناقه لوداعه * وما كان قدومه الا تهيجاً للشهوة * وتطرئة للشوق والصبوة * وذكاء للقريحة التي كانت تفرقت بالصبر والساوة * وسبحان من جعل فراقه بالمن الرازي * ولقاءه بالمن البغداذي وجعل مدة غيبته مشاهرة ومعاومة * ومدة اوبته مسايعة ومياومة * ولو انصفنا الدهر لكانت مدة الفراق في اوزان مدة التلاق * وكان السم بازائه الترياق سألت فلاناً عن جسم سيدي في صحته وعلته * وفي ضعفه وقوته * فعرفني ما سرني فلا زال صحيح الخلق * كما هو صحيح الخلق * وقوي الجسم كما هو قوي الدين والعلم * وسليم

الاعضاء كما هو سليم الود والوفاء * ولا زالت اوقاته تتنافس بهاء * وتتفاضل حسناً وضياء * يومها فوق امسها * ودون غدها * وقد كنت قبل لقاء فلان رطب اللسان بانشاد *

متى يكون الذي أرجو وآمله * أما الذي كنت أخشاه فقد كانا، فلما فارقته صرت انشد :

صلى الاله على امرء ودعته ... واتم نعمته عليه وزادها

* * *

« وكتب الى صاحب البريد بالري كتبها من اصفهان» :

قد كنت احسب الفراق يسير الخطب * هين الوقع * قليل العبء والثقل خفيف الكل والظل * حتى دهيت بفراق سيدي فعلمت من مقدر الفراق ما كنت جهلته * ووجدت من شخصه ما كنت اضللته * وعلمته من طريق المطالعة والمعرفة * وإنما كنت أراه من طريق التخيل والصفة * وتذكرت قول جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم ... هذا الفراق فعلت ما لم أفعل

ولكني لو علمت أني أقعد تحت أعباء الاشتياق * واتفسخ تحت ثقل الفراق لصحبت سيدي فراشاً أو ركابياً * أو طباخاً أو شاكرياً * ولو وسعت أكثر من ذلك لقلت أصحبه كاتباً أو حاجباً * أو نديماً أو صاحباً * أو مغنيا أو ضاربا * ولكنني أخشى أن يتفضل سيدي بقبولي * وينشط لحضوري ويحملني عند المشاهدة على شرائط المحبة * ويتقدم إلى بالخروج من العهدة *

ويقول أيها المبرز علينا نفسه في معرض الدعوى العريضة * دونك فاكفف عما إدعيت * أو فاكفف عما حكيت * وعد وأضرب عما اظهرت وابديت * فاذا بسيدي أبي بكر أخجل من بخراء تكلمت * ومن فوهاء تبسمت * قد جلس على قافية الدهش والتحير * وفتح جراب الخجل والتشور * وحك لحييه خجلا * وعبث بلحيته ارتياذا وذهلا * وأخذ يتشاغل بالحديث عن السدى * وعن الحسن البصري * وعامر الشعبي وينشد

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

اللهم أنا نعوذ بك من مواقف الانخذال * ومن سقطات المقال * ومن دعاوي المحال * سبحان الله ليت شعري ما الذي جمح بي إلى كل هذا الهذيان * وما الذي حملني على أن اركض في عرض هذا الميدان * وما الذي مال بنا من ذكر الاشواق * ومن حديث الفراق * إلى كل هذا الحديث الغث * والكلام الرث * وهكذا من يركب الجواد وليس بفارس ويكاتب وليس بكاتب * ويقرع باب صناعة لم يستوف حقوقها * ولم يسلك طريقها * ولم يختلف إلى اهليها * ولم يعثر قدمه فيها * قد خرجنا إلا من هذا الميدان * ورجعنا إلى باب هدر البوم والغربان * وأنا والله اشوق إلى سيدي منه إلى احراز خصيل المجد * وتحصيل قصب الحمد * بل اشوق منه إلى الاحسان الذي هو اخوه وشقيقه * والافضال الذي هو شريكه ورفيقه * بل اشوق منه إلى اصفهان * وإلى فراق خراسان * بعد ما عاين من تفاوت احوالها * وسخافة رجالها * وحقارة اعمالها بل عمالها * ولو لم ير سيدي فيها من طبقات التخلف غير كاتب هذا الكتاب * لكان كافية في هذا الباب المخلقون صانهم الله تعالى قد انفذت رسولي إليهم * وعرضت مالي وقليل جاهي عليهم * فانقبضوا ولا ألومهم على ذلك بعدما رأيت من

انقباض سيدي عمن كان لا يبخل عليه بملك خراسان * وتاج انو شروان * وصرح هامان وطرازي قاشان وخورستان * وبعدما عرض عليه ما يملك عرضاً غير سابري * وبذله بذلا غير مجازي * والانقباض في غير مكانه توكيد للحشمة * وظلم للود والثقة * وقطع لعلائق المباسطة والخلطة * وكذلك الانبساط في غير مكانه استهداف للهوان * واكتساب للمقت والشنان * وفتح لباب الهجران * وتعرض لقطيعة الاخوان * والسلام

* * *

«وكتب الى اردهل وقد ورد عليه خبر علته» :

كان قد ورد علي خبر علة الشيخ وبلغ مني ما لم يبلغه شيء قبله * ولا يبلغه شيء بعده * واردت أن ارسل إليه في ذلك رسولا * وافرد نحوه كتاباً * ثم رأيت في قراءته للكتاب تعب ناظره * وفي وصول الرسول شغل خاطره * فابقيت عليه بقية تحتها جفاء * وراعيت حقه مراعاة في اثنائها تغافل واغضاء * وقد ورد الآن خبر افاقته من علته * جعل الله تعالى ذلك آخر محنته * وأول نعمته * فكان سروري بالأخرى * في وزان غمي بالاولى * لا غم الله في الشيخ اصدقاءه * وحرس من الحوادث حوباءه * ومن الغير فناءه * ولا أراني الزمان فيه ظفرا * فان الزمان حديد الظفر * لئيم الظفر * دقيق النظر حلو المورد * مر المصدر * معين اللئام على الكرام * والليالي على الأيام * ميلا منه على الضوء للظلام * تقاطرت على كتب ثلثة وفلان يذكر ما وجده لكتابي عند الشيخ من ايجاب * ولحاجتي من اسعاف واطلاب * حتى قلم عنهم أظافير الأيام * وقشع لهم

ضبابة الاهتمام * وأراهم من النجاح ما لم يروه في المنام * وهذه نعمة احتاج لها إلى دهر أوسع من دهري * وإلى عمر انفس من عمري * وإلى شكر أبلغ من شكري * فاما هذا الدهر وهو العمر النزر * فما يسع أن اشكر فيه حراً * اللهم ارزقني زماناً أوسع من زماني * ولساناً افصح من لساني وبنانا اجرى من بناني *حتى اقضي بالشكر حقوق أخواني * فلا بذل إلا بجود ولا جود إلا عن موجود * ولكن الدعاء غاية من ضاق امكانه * ولم يساعده زمانه * وقطعت عن مسافة همته * خطوة جدته * وبه يكافي من قلت بسطته * وعجزت مقدرته * وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل الشيخ غاية لسؤال كل سائل * ومثابة لأمل كل آمل * ورحلة كل راحل * وأن يجعل ألسن اصدقائه * مشغولة بشكر آلائه * كما جعل قلوبهم مشغولة برجائه * وانفسهم مرتهنة بنعمائه * ويجملهم بل يجمل زمانهم ببهائه * والسلام

• • •

«وكتب الى يزيد صاحب سمرقند» :

صدر عني إلى حضرة سيدي كتابان * احدهما عامي والآخر خاصي * فلا جرم حرمت جواب الماضي * ولم ارزق جواب الثاني * وقد انتظر غير ما جاءني به الزمان * وعارضني به الحرمان * لأن الزمان لا يستحق مني حسن ظن * ويستأهل أن اصيبه بعين * مع ذنوبه إلي التي إذا ذكرتها كانت غيبة سيدي أولاها * وانقطاع اخباره عني وسطاها * ولكن لأني كنت أظن أن سيدي يغلب بكرمه لومه * ويهزم بيمينه سومه * ويحولني

عن شكايته إلى شكره * وينقلني عن حربه إلى صلحه * فالحمد لله الذي جعل سيدي كأهل زمانه * وأن قدمه عليهم بفضله لأقرانه * واخرجه من وحشة الوحدة إلى انس الجماعة * ونقله في معاملته لي عن قبح البدعة * إلى حسن السنة * فخلطته بهم * وشكوته شكايتي لهم * وقات فيه قولي فيهم * فيا سبحان الله في أي طالع ولدت * وعلى أي بخت رزقت * فحيثما اواصل أرى صدا * واينما اتوجه لا أرى سعدا * قال عبد الله بن المعتز :

قولا لمكتوم يا خير البساتين الحمد لله حتى أنت تجفوني
قد كنت منتظراً هذا فجئت به وليس خلق على غدر بمأمون

وأنا أقول

قولا لمولاي في الدنيا وفي الدين الحمد لله حتى أنت تجفوني

وصرت أناقض ابن المعتز في شعره * طرباً مني على مخاطبة سيدي وذكره والطرب يرخي العنان * ويبصر العميان * ويجريء الجبان * ويجري اللسان والبنان * لا زال ذكر سيدي يطرب إخوانه حتى ينطقوا وهم بكم * ويعربوا وهم عجم * ويفصحوا وهم غتم * ولا زال اصدقاؤه يعاتبونه على كتاب يقطعه وبر يمنعه * ظمأ منهم إلى فائدة من فوائد كلامه * وحرصاً على غريبة من غرائب لسانه وأقلامه * وأطال لهم بقاءه وصل أم صرم * أعطى أم حرم * أهان أم كرم * أنصف أم ظلم * فلا خير في حب لا تحمل اقذاؤه ولا يشرب على الكدر ماؤه * وإنما العشرة مجاملة * لا معاملة والمجاملة لا تسع الاستقصاء والكشف * ولا تحتمل الحساب والصرف * ولكني إنما أعاتب سيدي لأتوصل بذلك إلى حلاوة أعتابه * وأخاطبه بما لا أرضاه له لأتسبب به إلى ما أرضاه من جوابه * وأرجو أن الناس يغتفرون سواء الابتداء الحسن الجواب * ويعلمون أن الخطأ إذا سبب الصواب * فهو

ضرب من الصواب * ليت شعري ما الذي ورد على سيدي من عمله * وهل رأى صيداً أم قيداً ووجد سعداً أم سعيدا * ويا ليت شعري ما الذي استفاده بعدنا من الأخوان * ووجده في سؤال المودة والخلصان * وعهدي به يلتقط الأخوان التقاط الحب * وينتقيهم انتقاء اللب * ويدخرهم بين العين والقلب * ويعدهم الكنز الذي لا عمل فيه للزمان * والركاز الذي لا نصيب فيه إلى السلطان *

* * *

«وكتب الى الوزير ابن عباد لما ورد باب جرجان لقتال الامير قابوس بن وشمكير» :

كتابي وأنا بما يترامى إلي من أخبار نعم الله تعالى على الوزير في حله وترحاله وسائر منصرفاته وأحواله * قرير العين * قوي الظهر * شديد الازر * راض من افعال الدهر * اسمع كل يوم بشرى * واحتمل للايام نعمى * فأما أحوالي متماسكة ببقاء نعم الوزير علي * وآثاره لدي * فان فارقتني امطاره فأكثر غدرانه ما نضب والحمد لله رب العالمين * وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين * قد كانت كتبي انقطعت عن حضرة الوزير صيانة لسمعه * عن ان أقرعه بالكلام الوسط * وشفقة على ناظره من أن أجيله في الخط السقط * وعلماً مني أني إذا قطعته على هذه النية فقد وصلته * وإذا جفوته فقد بررته * حتى ورد علي خبر حركته إلى هذه الوجهة التي ركب إليها مطية الاقبال * وجذب نحوها ازمة الآمال * واستظهر عليها بعساكر الأيام والليال * فلم أجد بداً من الاذكار بنفسي التي إنما ارتبطتها لتلك

الخدمة * وامسكت رمقها ببقاء تلك النعمة * ولعمري أني لأعرض منها ماء راكداً * ومتاعاً كاسداً * ولكن الوزير بصدد حرب * وعارض خطب * والمحارب يحتاج إلى طبقات الناس فيجعل الخاصة منهم عدة وعتادا * والعامة حشوا وسوادا * قد شمرت أيد الله الوزير ذيل المحارب * ورفعت رجل الراكب * وفارقت خراسان عزما * وإن كنت بها جسماً * وإذا ورد علي له إذن طفرت إلى عسكره طفرة تطوي المراحل * وتأكل المناهل * بعد أن حصلت من العتاد والعدة * ومن الشوكة والشكة * ما ينظم شرائط أوس بن حجر الكندي * ومزرد بن ضرار الثعلبي * قال أوس :

وأني امرؤ اعددت للموت بعدما   رأيت له نابا من الشر اعضلا

وقال مزرد

وعندي للحرب العوان مهند

هذا غير ما عندي من العدة التي يصنعها غير الله صانع * ولم يبعها غير الايام بائع * على أيد الله الوزير من انتماء إقبالي إلى إقباله * درع لا تصدمها الايام * ولا تنفذ فيها السهام * وعلى رأسي من واقية دولته مغفر * لا تعمل فيه السيوف * ولا تمر بطريقه الحتوف * وبيدي من صنعة يمينه وبركته * قوس وترها الجد * وسهمها السعد * وفي عنقي من صقال نعمته سيف يقطع الآجال * لا الأوصال * ويهزم الاقدار لا الرجال * وتحتي من نتاج شوقي إليه فرس إذا سرت به طار * وإذا وقفت به سار * الشوق عنانه * والايام ميدانه * والعجلة سرجه * والسوط لجامه * والعزيمة لببه وحزامه * فان أذن لي الوزير في ورود عسكره المحفوف بجناح النصرة * المكنوف بجوانب الدولة والكرة * رأى مني بحمد الله تعالى فارساً

ملء العين * كما سمع مني عالماً ملء الأذن * فيعلم حينئذ أن إقباله خرج له تلميذاً انتظم فيه فروسية اللسان * وفروسية السيف والسنان * ويكر في معركة الطعان * كما يكر في معركة البيان * ويثبت اسمه في جريدة العلماء والفرسان * فان الاقبال ربما التقى طرفاه * والكمال ربما اعتدل جانباه * والاحسان ربما تكافأت يمناه ويسره * وإذا كان الوزير وهو استاذ فارس الميدانين * وسابق الرهانين * وكانت يده تجيل قدحي الشجاعة والكرم * وتجمع بين السيف والقلم * وتحذق آداب العرب والعجم * ولم يكن القباء اليق به من الطيلسان * ولا الدفتر في يده اخلق من السيف والسنان * فلا بد لنا معاشر تلاميذه من أن نرقى على درجه * ونمشي في منهجه * وإذا كانت حياته نفسها الله تعالى حياة امه * ونفسه صانها الله تعالى مقسمة من نفوس جمه فلا بد من أن تفديه تلك النفوس بنفوسهم * وأن يلقوا دونه السيوف بوجوههم بل برؤوسهم * وأن يخدموه في مواطن المنايا * كما خدموه في مواهب العطايا وأن يبذلوا معه مجهودهم قتالا * كما بذل معهم مجهودة نوالا * وأن يبتذلوا فيه للنفوس الكريمة * كما ابتذل فيهم النفايس العظيمة * هذا واجب في قضية الكرم والمجد * لازم في شريطة الوفاء والعهد * على أني أظن العدو إذا ظللته تلك الراية المنصورة يخطو خطوة أولها جرجان * وآخرها خراسان * تقبلا لاوليه * وجرياً على وتيرة ابيه * فأنه أعقل من أن يقذف أمه ويخالف أباه * ومن خالف والده فقد نفاه * سيهزم من رجل طالما هزم * وينهزم ابن رجل طالما انهزم * ومن اشبه أباه فما ظلم

« وكتب الى كثير بن احمد يعزيه عن ابنة له »:

نحن معاشر أولياء الشيخ ومتحملي أعباء نعمته * والمتسمين بسمة جملته * إذا صدئت قرائحنا * وفسدت اذهاننا * جلوناها بمجالسته * وغسلنا عنها وضر التغير باتباع طريقته * وسسنا أنفسنا بما نراه ونتعلمه من سياسته * لبطانته ثم لرعيته * وإذا كانت الحال هذه فمن المحال أن نبيع على الشيخ ما اشتريناه منه * وأن نجلب إليه ما جلبناه عنه * وأن نقيم أنفسنا مقام المتعلمين * وأن نحمل إليه مواعظ بذله * كلامه منها ابرع * وبداية توقيعاته منها ابدع * ولكن لا بد للمحب أن ينطق لسانه وقلمه * بما يترجم به عن ودائع صدره * ويعبر عن نيته وسره * ولا بد لمن شارك ربيبه في أيام الرخاء والمواهب * من أن يشاركه في أيام الغموم والمصائب * ليكون قد خدمه في النوبتين * وتصرف معه في الحالتين * واثبت اسمه في جريدة الشركاء المساهمين مرتين * وبلغني خبر المصيبة فاغتممت بها غمين * ونفذت إلى سهام الفجيعة من طريقين * أما أحداهما فهي أني أغار على هذه الجنبة الكريمة * وعلى هذه الدولة المستقيمة من أن ينفذ فيها رمية الزمان * أو تتناولها يد من أيدي النقصان * وأما الثانية فهي أني علمت أن الفجيعة إذا لم تحارب بجيش البكاء * ولم تقابل بالاذاعة والاشتكاء تضاعف داؤها * وزادت اعباؤها * وإنما الغم سم ترياقه المباثة * والموت خرق رفؤه التسلية والتعزية * قال ذو الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفي نجيّ البلابل

وإذا كان لا بد من عين تصيب طرفاً من أطراف الكمال * ولا بد من عودة يعوذ بها وجه الجمال * فلان تكون الواقعة في الصغير * خير من أن تكون في الكبير * ولأن يقع سهم الزمان على النسوان * أمثل من أن يقع على

الذكران * فالحمد لله تعالى الذي جعل في طي المحنة منحة * ومزج الترحة بفرحة * فستر عورة من حيث سلب انسا ونزهة * وكفى مؤنة من حيث جلب فجيعة * وأبقي الكبير من حيث أخذ واحدة صغيرة * وجمل والدا من حيث اثكل والدة وهكذا تكون مصائب المقبلين المجدودين * فان الدهر إذا ساءهم في القليل * أحسن إليهم في الجليل * وإذا كاشفهم في الخفي المستور * صانهم في الجلي المشهور * والمدابرون مثالنا فانما تكون محننهم صافية صرفاً * وخالصة بحتاً والدهر يعلم أين الزبون * ومن المغبون * وأنا اسأل الله تعالى أن يجعل المتوفاة لوالديها فرطاً وأجرا * وكنزاً من كنوز الجنة وذخراً * وأن يجمع بينها وبين البتول * السيدة فاطمة بنت الرسول وبين خديجة الأسدية * وآسية الاسرائيلية * بنات الأكرمين * وأزواج المرسلين * صلوات الله تعالى عليهم اجمعين * وأن يحشرها شفيعاً تقبل شفاعته * وتقضي في والديه وأهل بيته حاجته * ويعوض عنها الشيخ أخالها سوى الخلق والخلق * شريف الفعل والعرق * ليستوفي الشيخ في يومه أجر الصابرين * وفي غده جزاء الشاكرين * وليكون قد قضى الله تعالى حق الربوبية * من طرف العبودية * وأن تكون هذه الحادثة خاتمة حوادث الزمان * وساقة عساكر النقصان * فلا يرى بعدها في تلك الدار الشريفة إلا موهبة مستطرفة * وفائدة مستجدة مستأنفة * حتى يشتغل بالتهاني عن التعازي * وبالمدائح عن المراثي * والسلام

* * *

«وكتب الى ابي محمد العلوي جوابا على كتابه»:

ورد كتاب السيد مبشراً من خبر سلامته بالبشرى التي تنسي كل بشرى *

وبالنعمى التي تلغي كل نعمى * وبالفائدة التي تفطم فوائد الاولى والأخرى وفهمته ولما بلغت منه إلى ذكر الاعتذار عن تأخر كتابه عني * وشمول النعمة بأمثاله للناس دوني * امتلأت عجبا * ورأيت لي في كل جارحة قلباً ورأيت السيد قد سلك بي من التواضع طريقاً قد رفعه الله تعالى عنها * وجعله بنجوة منها * وتكلف ما لو تكلفته له لكنت سالكاً طريق الافراط * وراكباً مطية الغلو والاشتطاط * وكيف به هو وإنما كلامه لنا معشر شيعته كنز وذخر * وعز وفخر * ومال ووفر * وكبر وكثر * وحياة وعمر * فكيف كتابه الينا * وسلامه علينا * والرئيس إذا اعطى المرؤوس فوق حقه * فقد استرجع منه * وإذا باسطه بما لا يسعه قدره فقد انفض عنه * والاشياء إذا افرطت إلى الرجحان * عادت إلى النقصان * ذكر السيد انه لا يرضى لمكاتبتي عفو كتابته * ولا ينزل فيها على حكم بلاغته * وهذا كلام لولا أنه قد جرى به بنانه * ونطق به لسانه * لقلت تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا * ولقد جئتم شيئاً ادا * الكتابة ايد الله تعالى السيد صناعة مجانستي لها مجانسة النور للظلام * ومناسبتي لها مناسبة الاوز للنعام * ولم اقرع بابها * ولم اعاق باسبابها ولم اعاشر اربابها واصحابها * ولا ادعيها بقلمي ولا بلساني * ولا ادعاها لي اصدقائي واخواني * ولا تمنيتها إذ كان المتمني انما يتعاق بذنب الامكان * ويمشي في طريق الكيان * ولا احتملت بها إذ كان الانسان * انما يتوهم وهو وسنان * ما يتفكر فيه وهو يقظان * ولا دعوت الله تعالى بها لانه امرنا ان نسأله ما لا ينقض العادة * ولا يفسد التكليف والمصلحة ولو كنت اجوز على نفسي شيئاً منها لجوزته من طريق اتصالي بجانب السيد * فان المواصلة ربما صارت مقاربة * والمقاربة ربما جلبت مشاركة ومناسبة * وهب ان ذلك كان فكم وكم مقدار ما يتعلق بذيل المعاير من دراهم الصيرفي * وما عسى ان يعبق بثياب الجليس من طيب العطار والصيدلاني * وكم يحضي

من الكتابة على مجالسة السيد في كل اسبوع ساعة * وعلى روايتي له في كل شهر كتابة او رقعة * اللهم الا أن يكون السيد اراد بما ذكره رياضتي لا تهذب * والتعرض لي بذكر الكتابة لكي اكاتب * فان هذا من ابواب الحث والبعث * وصنف من اصناف الرقي والنفث * قد يقول الاستاذ لتلميذه احسنت يا سيد الادباء * واصبت يا واحد العلماء * ليلمظه طعم التقدم * وليرقيه في درجات العلم بالتعلم * فان كان ذلك هذا السيد اراد * فقد بلغ المراد * وها انا بعد اليوم * اقرع باب الكتابة * واتسلق على حيطان البلاغة * واجمع ما اقدر عليه من رسائل السيد فاحفظها صدراً صدراً * بل سطراً سطراً * واردد كل واحدة منها خمس مرات بل عشراً * فان خرجني ذلك فالحمد لله تعالى الذي رزقني * ثم للسيد الذي حركني * وان تكن الاخرى فمبلغ نفس عذرها مثل منجح * ذكر السيد ان اعتداده بي اعتداد العلوي بالشيعي * والمعتزلي بالمعتزلي * وانا اقول مكافياً لا مبارياً * ومتابعاً لا موازياً * اعتدادي بما رزقنيه الله من اعتداد السيد بي * اعتداد الصحابة بالنبي عليه السلام * واعتداد الشيعة بالوصي * واعتداد المعتزلة بالحسن البصري * واعتداد الحجازيين بالشافعي * واعتداد الزيدية بزيد بن علي رضي الله تعالى عنه * واعتداد الامامية بالمهدي * لا بل اعتداد العاشق باللقا * والظمآن بالري * لا بل هو اعتداد محمد بن العباس الطبري * بالسيد ابن محمد العلوي * وهذا ميدان يحتمل الفرسان * وفصل يتسع للتصرف والجولان * ولكني اكره ان اشق على السيد في الجواب * وان اكلفه دخول هذا الباب * ذكر السيد ان انكفاءه الينا قد قرب * وان حجم الغيبة قد صغر * وذرعها قد قصر * وانا أسأل الله تعالى ان يصدق هذا المقال * ويحقق هذا الفال * ويريني تلك الطلعة التي إذا رأيتها لم اتنغص بغيبة الغائبين * وإذا فقدتها لم اتهنأ بحضور الحاضرين * وإذا نظرت اليها فيومي سعيد * بل

عيد * وفصلي مربع بل ربيع * وإذا تصبحت بها تصبحت بالنظر إلى النبي والوصي عليهما السلام وإلى البتول ابنة الرسول * وإلى السبطين الشهيدين * الحسن والحسين وإلى السجاد بن العابدين * صلوات الله تعالى عليهم اجمعين * سألني السيد ان اسأله بعض هدايا تلك الناحية * لا والله ما اعرف نفيسة * ولا طرفة خطيرة * تعدل عندي وجهه فليهده إلي * وليخلع نظري اليه علي * وليعلم انه إذا فعل ذلك فقد زف إلى الدنيا في معرض الجمال * واهدى إلى السعود بين طبق ومكبة من الاقبال * ولم يدع لعين التمني بعد ذلك مطمحاً * ولا لقوس الاقتراح والتحكم بعدها منتزعاً * لا يكتب إلى السيد بخط غيره * لاني إذا قرأت كلامه من آثار بنانه * فقد جنيت الورد من اغصانه * وقليل لمن ادلى بمثل وسيلتي * واتسم بمثل سميّي * ان تنبعث له البنان والاقلام * وان ينتقي له الخط والكلام * وان ينزل على حكمه والسلام *

* * *

«وكتب الى كاتب» :

اعتذر سيدي من صغر الكتاب واختصاره * فقد اغناه الله تعالى عن تكلفه من اعتذاره * وانما الصغير ما صغر قدره * لا ما صغر حجمه * فاما ما افاد وجاوز المراد * فليس بصغير * بل اكبر من كبير * واما شكره لي على تفصيلي لكلامه * فاني من هذا بعد في ميدان عريض مديد * وفي شوط بعيد * لم ابلغ عشر عشره * ولم اقض منه ايسر يسره * والحق اني وان اجتهدت فاني غير بالغ منه ما في ضمن النية * ولا آت على ما في الهمة والامنية * ولكني سأقف عقلي انتهاء الطاقة * واحمل مجهودي اقصى الغاية * والتمادح بيننا بعد الحال التي

عتقت * حتى اخلقت * وقدمت حتى هرمت * فصل لا يحتاج اليه * ولا يعرج عليه * وأسأل الله تعالى ان يجعل اخوتنا متصلة في الدنيا باخوتنا يوم الدين * فان الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين *

* * *

« وكتب الى صاحب الديوان بالحضرة » :

عظم على الشيخ ادلالي * وكثر على قلبه اشغالي * وفتح عليه كرمه من حوائجي باباً لا يسد * ولا يرد * ولكني إذا قلبت سلعة الشكر * ونشرت طراز الاحسان والبر * لم ار غيره يشتريه * او يرغب سواه فيه * وإذا عرضت جريدة الكرم * وافضت قداح المساعي والهمم * جاء اسمه صدر الجريدة * وقدحه معلي القداح السبعة * فارجع اليه وعن يميني الرجاء يقربني منه * وعن يساري الحياء يطردني عنه * وما احب ان يشرك الشيخ في لساني غيره * ولا أن يحتوي على قلبي الا ذكره * فاني آنف لكرم المتاع * من لؤم المبتاع * واستحي لنفاسة هذه الملابس * من خساسة اللابس * واغضب للمركب الكريم * من الراكب اللئيم * واحب ان ازف ابكار المعاني وان اغرب في الثناء * لمن يغرب في السناء * وان ازوج الشيخ من صنعة لساني كرائم لا تجتليها الا عيناه * ولا تنظمها الا يداه * قد علم الشيخ اني عقدت هذه الصنيعة * ولفقت هذه المعيشة * لتكون صوناً لوجهي عن ذل السؤال * وحجاباً لعرضي دون الابتذال * ولاجعل ما يدخل منها من الكفاف * جسراً إلى الصيانةوالعفاف فاحبب نفسي إلى اصدقائي * واخفف ثقلي على جلسائي * فان السائل ثقيل الطلعة * كريه الزورة * مشنوء اللحظة واللفظة * معرفته غرامة * ومنادمته

ندامة * ومجانبته امان وسلامة * فمن اعانني على حفظ ما اعتقدته * وامسك على جوانب ما استفدته * فقد كفى اهل المشرق كلي * وخفف عن رقابهم ثقلي وضرب بين لساني وبينهم ستراً ثخيناً * ومد عليهم دون استبطائي وعتابي كنا كنيناً * ومن اخرجني من صيانة الدهقنة * واحوجني إلى ابتذال المسألة * فقد عرضهم لخطبين * وعرضهم لحد السيف من جهتين * لانهم بين ان يعطوا فيحتسبوا مرارة العطاء * او يبخلوا فيصطلوا بحرارة الذم والاستبطاء * وما من الخطتين صغيرة وما فيهما لمختار خيرة * على ان خروجي من خراسان إلى غيرها * وضع من اهلها * فلو ارتبط الجواد حتى ارتباطه لما عار * ولو أحسن إلى البازي لما طار « وان مقامي حيث خيمت محنة * تدل على فهم الكرام الاجاود » ولو ملكت اعنة الايام * وجاز حظي على الحظوظ والاقسام * لكانت مدائحي إلى اهلها مصروفة * ومعاتباتي على غيرهم موقوفة * ولما جلست تحت قول أبي عبادة البحتري :

عذلتني في اهلها واسترابت ... جيئتي في سواهم وذهابي
ورأت في سواهم من مديحي ... مثل ماعندغيرهم من كتابي

هذا على أني ارى ريح الكرم هبت جنوباً وشمالا * وعساكر المجد قدزحفت يميناً وشمالا * وسوق الادب قد قامت * واطراف المسالك قد استقامت * وليل النقص والجهل * قد جلاه فجر الفضل والعقل * والجود قد اقبل بوجه الغالب * والبخل قد ادبر بقفا الهارب * وارى الدهر قد افتر عن يتيمته * وانجلى عن كريمته * وجاء بواحدة * الذي لم يزل لسان محامده * وعنان مراشده * والذي لم يزل يرجف به لسان الاماني * وتتقاضاني فيه ايام زماني * وهو الشيخ الاجل ربيب الدولة * وغذي النعمة * وسليل الكفاية والوزارة * وفرع السياسة والرئاسة * وناشر ميت الآمال * وناقد قيم الرجال * وناشر

الوية المقال والفعال * وقد علمت ان الدهر البخيل * لا يسمح الآن به إلا ليكون للاحرار ركزه * وليدول للافاضل دولة * ولتهب للخير ريح طالما ركدت * وتنفق للفضل سوق طالما كسدت * ورجوت ان اكون احد من ينتصف به من محنه * وينتزع في ايامه حقه من مخالب زمنه * فقد طال ما ضرب الزمان على رزقي وغصبتني ايامه ولياليه حقي * اسأل الشيخ ان يعرض كتابي عليه * ويوصل كلمتي اليه * ولا يقول كيف يكون الرسول اجل ممن ارسله * وكيف يكون السفير اعظم ممن سفر له * فان الكريم يعز من حيث يهون * ويشتد بأس الرمح حين يلين * وهو ايده الله تعالى الحكيم الذي لا يوصى * والمشير الذي لا يعصى * وإذا سعى في هذه الحاجة ففي امره سعى * وعن ماله نضح ورمى * وعن عاتقه القى حملا * وطرح ثقلا * لانه ان حرم سهمي الاصابة * ولم ترزق دعوتي الاجابة * فاني ملق كل خراجي عليه * وراجع به عنه اليه * إذ كنت لا أرى الفرح الا لديه وانشد .

سبيلي ان اعطى الذي تسألوني وحقي ان يجدي علي ولا اجدى

« وانتقيه »

إذا كنت لا انفك اغدومطالبا فلم انت عباد ولم أنـــا شاعر

فلينظر الشيخ إلى هذه الحاج بعين من يعلم انه فيها سهيم * ولصاحبهاقسيم * وانه يكدح كدحاً له بعضه * ويجلب جلباً له شطره * واني لا علم أني قد هتكت ستر الحشمة * وخرقت حجاب الهيبة * وان هذا الكلام ترق عنه صفحة الاحتمال * ولا تطلقه شرائط المهابة والاجلال * ولكن الثقة تطلق اللسان * وتجري الجنان *

* * *

« وكتب الى وزير صاحب خوارزم » :

وصل كتاب الشيخ وتصرفت من فصوله في لؤلؤ منثور * وطراز منشور * واستمليت منه نسخة الود الصريح * والعهد الصحيح * والخلق السجيح * ووجدت الشيخ قد استرقني رقاً لا تنحل عقدته ولا ترد عهدته * وكفاني مهما لا يكفيه إلا مثله * على ان ذكرى مثله ارجاف بالزمان وفعله * وكذب على الفلك واهله * وامنية من اكاذيب الاماني * وترهات من لساني * هيهات الدهر ابخل من ان يأتي بكريمته * ويجيء بمثل يتيمته * والكرم أقل مبتاعاً * واكسد مناعاً * من ان ينازع الشيخ بهاه * او يسلبه رداه *

والجود اخشن مساً يا بني مطر　　من ان تبزكوه كف مستلب

أخبرني الرسول بما عمله الشيخ من حيله الدقيقة * وفتله من اسبابه الوثيقة * في ذلك الحال حتى أخرجه من العدم إلى الوجدان * وصيره من الوهم إلى العيان * فحمدت الهي الذي رزقني صديقاً يحفظ علي * ما اضيعه بيدي * ويحسن بي من حيث تسيء نفسي إلي * وقد كنت خاطبت الشيخ في امر هذا المال بكمال جرأتي عليه * فصدق ثقتي بسعة ساحة احتماله * فان شكاني فقد كافاني * وان اسلفني شكراً فعلى اداؤه * وعلى الله جزاؤه * ولو انصفت الحال بيننا * والجهة الجامعة لنا * لخرجت لهذا الوافد الاثير لدي والكريم علي من مالي * ولقاسمته ولدي وعيالي * ولحملت العالم اليه بين طبق ومكبه * والفلك بين دنيا وآخره * ولكني نزلت على حكم طاقتي * وانتهيت إلى غاية وجدي وجدتي * وعولت على عقدي ونيتي * ونكست راس خجل منشور * وغضضت طرف قاصر مقصر * وانشدت :

لو كنت اهدي على قدري وقدركم　　لكنت اهدي لك الدنيا وما فيها

الذي طلبه الشيخ من الكتب سأحمله إلى خزانته ولو على رحلي * وانسخ ما ليس عندي ولو على خدي * ولوددت لو كان دمي حبراً وجلدي ورقا * وأصابعي أقلاما * وذاك عندي يسير ينسى * وصغير يلغى * وقليل لا يسمع ولا يرى * على أنه لو باسطني الشيخ فيما عدا الكتب * من الفضة والذهب * لكان آخر أمره منتظماً بأول امتثالي * وطرف قوله متصلا بطرف فعالي * فإن الناس يتخذون الأصدقاء *ليكسبوا بهم الثراء *وانا اكسب الثراء * لاتخذ به الأصدقاء *والصديق هو العقدة التي يحلها الدهر *والذخيرة التي لا يفسدها الخير والشر * والكنز الذي لاينقص منه الغنى والفقر *وسائر الاعلاق تفقد من حيث توجد * وتحل كما تعقد * ويدب اليها الفناء * كما يتفق لها البقاء * ويتسلط عليها الاعداء * كما يحسد عليها الاصدقاء * وتمسها النار فتحرقها * ويصيبها الماء فيغرقها * فالذهب والفضة حجران يغنيان ان حركا * ويفسدان ان تركا * والضياع والعقار جمادات وموات لا ترحل مع صاحبها ان رحل * ولا تنزل بنزوله ان نزل * والعبيد والاماء حيوان * يتحكم فيها الحدثان * ويعمل فيها عمله الزمان * فاذا حاربته الايام سقم * واذا سالمته هرم * فهو معرض للحادثات * اما بالحياة واما بالممات * والثياب والفرش ورق يجف اذا استعمل* ويخفي اذا اهمل * والعتاد والسلاح رفيق ربما خان من حمله * واعان على من قاتله * وصار في يد المحارب * آفة على الصاحب * والحلى والجواهر زجاج يسرع اليه الكسر * ويبطيء عنه الجبر * اظهاره خطر * واخفاؤه حذر * خفيف للحمل على من سرقه * ثقيل الوطأة على من فقده * والزرع خبز مخبوز فناؤه افتقار * وبقاؤه احتكار * من بذله عرضه للفناء * ومن بخل به عرض عرضه للهجاء * والاثاث والشوار اجسام هامدة اذا ابتذلت تمحقت وتكسرت * واذا رفعت صدئت وتغيرت * والفيء الماء * غريم كفيله

الارض والسماء * وهما كفيلان لا يغرمان * ولا يلزمان * ولا يلازمان * والخيل والسوام زرع تجففه الريح والهواء * ويحكم فيه الصيف والشتاء * ويتداوله الفناء * والكتب مالك جالس على قافية السرقة * موضوع على شبكة الخيانة * يسرقه كل امين * ويتهم عليه من ليس بظنين * وقد أكثرت ايها الشيخ في هذياني * ووضعت عنان قلبي وبناني بيد لساني * فان يكن ما جئت به مفيدا فقد ابدعت واغربت * وان تكن الاخرى فقد اضحكت واعجبت * فلم اخل ان جئت بفائدة * ان كنت ضحكة ونذ هته زائدة *

* * *

« وكتب الى ابن سهل سعيد بن عبدالله الكاتب » :

وصل كتاب سيدي المنتظر المؤتلف * والمستبطأ المتشوق * بعد ان عاتبت الدهر على تأخره ولمته * وبعد ان ذممت فيه البخت وشتمته * وبعد ان نظرت اليه وهو غائب مثالا * ورأيته في النوم خيالا * وبعد ان عددت له الليالي والايام عدا * وحسبت فيه الاوقات والانفاس ضربا وعقدا * وبعد ان ظننت الظنون بسيدي وبوده * وتوهمت الايام في وفائه وعهده * وحسبت وانا استغفر الله انه قد اثبت اسمه في جريدة الغدر * وجانس ابناء الدهر * وبعد ان انشدته فيه :

لم تزل تجهل الخيانـــة حتى   علمتك الايام كيف تخون

فويلي ان لم يعف سيدي عني * ولم يغفر لي ما بدر مني * ولم يجعلني في حل من سوء ظني * وفهمته * ولم ازل اكرر قراءته حتى حفظته * ثم تزودت في ذلك حتى حفظت غاية باءاته وصارت روايته تقطع على صلاتي * وتستهلك اكثر

اوقاتي * ثم عرضته على اصدقائي * واصدقاء ولائي * فما منهم الا من سألنيه * ونافسني فيه * واستعارنيه * ونيته ان لا يرد العارية * ولا يؤدي الامانة * ثم نسخوه ولو طلبته منهم لما اعادوه * ذكر سيدي من شوقي اليه ما لم يتكلم فيه الا عن لساني * ولم يترجم الا عن شاني * ولقد طويت بعده بساط المدام * ورفعت صحيفة المؤانسة والندام * وطلقت الراح ثلاثا * وفارقت الغناء بثاثا * حتى جفت الاقداح واستخصبتني الراح * ونسي بناني الاترج والتفاح * ولقد ترك سيدي بخروجه رسوم الطرب من اخوانه دارسه * وآثار الفرح والانس طامسة * وديار المنادمة والمجالسة مقفرة * واطلال المحادثة والمساعدة متنكرة * قد هبت عليها بغتة ريح الادبار * وطلع عليها نجم البلاء والاقفار * ونفذ فيها حكم الفناء * ولمستها يد العفاء * سألني سيدي عن ذكرى له وكيف لا يذكره من يراه * وان كان لا يلقاه * بل كيف يذكره من ليس ينساه * وكيف يسلو عنه * من لا يرى عوضا منه * وكيف يغب ذكره من لا يفتح عينيه * على اكرم منه عليه * واحب منه اليه * وقد عرفته انا هجرنا الشراب * واغلقنا هذا الباب * ثم ان شربنا في كل فترة نبوة * او بيعة خلافة * فلا نقل الا اتذكاره * ولا تحيه الا اذكاره * ولا حديث الا انسنا به كان ووحشتنا له الآن * ولا اقتراح على المغني الا شعر في اوله ذكر غيبته * وفي آخره تمني وبته * رد الله تعالى سيدي الى اخوانه الذين انا اولهم في المحبة * وان كنت آخرهم في الرتبة * على حالة يقع الشكر وراء حقها * وتكل مطايا التعديد والبشر في مسافاة طرقها * والناس يقولون ردك الله سالما الى سالمين * وانا اقول ردك الله تعالى غانما الى غانمين * فان من سعد بلقياه فهو غانم كما ان من حرم النظر الى طلعته فهو غارم * وارجو ان يتقدم سيدي بوصوله عند الفطر فيجتمع لي عيدان وفطران * كما اجتمع علي بغيبته صومان * على ان صوم

العين * اشد من صوم البطن * فان مسافة صوم العين مجهولة الأمد والعدد * مخوفة الزيادة والمدد * ومسافة صوم البطن يوم وشيك المهلة * قريب العشية من الغدوة * فحصتي من صوم هذه السنة المباركة حصتان * ويومي منه يومان * وتأبى صروف الدهر ان تأتيني الا مزدوجة في قران * وذلك اني صمت عن النظر الى طلعة سيدي شهري رجب وشعبان *وصمت عن الطعام والشراب شهر رمضان * وقد قال الخليع الشامي :

سكران سكر هوى وسكر مدامة   فتى يفيق فتى به سكران

وانا اقول :

صومان صوم نوى وصوم عبادة   فتى يعيش فتى له صومان

* * *

« وكتب الى أبي القسم وقد انهدمت داره عليه وسلم » :

بلغني خبر الهدة فالحمدلله الذي هدم الدار * ولم يهدم المقدار * وحين ثلم المال * لم يثلم الجمال * ولما سلط الحوادث على النشب والخشب * لم يسلطها على العرض والحسب * ولا على الدين والادب * ولا بد للنعمة من عوذة * ولا بد لعين الكمال من رقية * فلأن يكون ذلك في دار تبني * ومال يجني وينمى * خير من ان يكون في النفس التي لا جابر لكسرها ولا شيء يفي بقدرها * وصادف ورود هذا الخبر علي * رمدا في عيني * قد حصرني في الظلمة * وحبسني بين الغم والغمة * وتركني ادرك بيدي * ما كنت ادرك بناظري * كليل سلاح البصر * قصير خطوة النظر * قد ثكلت مصباح وجهي * وعدمت بعضي الذي هو آثر عندي من كلي * ابعد الاشخاص عني *

اقربها مني * فالبيض عندي سود * والقريب مني بعيد * قد خاط الوجع اجفاني * وقبض عن التصرف بناني * ففراغي شغل * ونهاري ليل * وطوال الحظي قصار * وقصار اوقاتي طوال * فانا ضرير وان عددت في البصراء * وامي وان كنت في جملة الكتاب والقراء * قد قصرت العلة خطوتي قلمي وبناني * وقامت بيني وبين يدي ولساني * وقد كانت العرب تزاوج بين كلمات تتماثل مبانيها * وتتكافأ مقاطعها ومباديها * فتقول العلة ذلة * والوحدة وحشة * والغلب سلب * واللحظة لفظة * والهوى هوان * والاقارب عقارب * وانا اقول المرض حرض * والرمد كمد * والعلة قلة * والقاعد مقعد *

* * *

« وكتب الى ابي احمد الرازي ببندر نيسابور » :

ورد علي كتاب الشيخ بعد ما كدت اتطفل عليه بخطبته * واسبقه الى المكرمة في الابتداء بمثله * ثم ابى الله تعالى ان يكون الفضل الا لاهله * وان ينبت الكرم الا على اصله * وفهمته وافادني من خير سلامته فائدة هي الغنى * بل المنى بل الكنوز والقنا * بل المراد والهوى * بل النساء والعلى * بل العالم والدنيا * بل خير الآخرة والاولى * وهي السلامة التي لا يتضرر بها الشيخ عني * ولا يختص بمزيتها دوني * اذ كانت الاحوال بيننا متقاسمة * وسائر اسباب السراء والضراء متساهمة * وسألت الله تعالى اولا * والآن اسأله ثانياً * ان يجري على الشيخ نعمته * ويرد غربته * ويعجل اوبته * ويبصره رشده * في الرجوع الى بلده * الذي هو بحضوره مصر مباه الامصار * وبغيبته عنه

مفاوز بل قفار * كما ان اهله اذا كان فيهم ناس * واذا غاب عنهم نسناس * والله يلهمه قول النابغة :

فحلي في ديارك ان قومــا متى يدعوا ديارهم يهونوا

وان اكرم الخيل اشدها حنينا الى وطنه * واعتق الابل اكثرها نزاعا نحو عطنه * والدنيا رستاق نيسابور قصبته * وعقد نيسابور واسطته * ولو علمت اني ادفع من غيبة الشيخ الى هذا الامد البعيد والنفس المديد * وانه اذا فارق قوما طلقهم * واذا لقي آخرين عشقهم * لاخذت من الزمان الف كفيل * ووضعت الارصاد بكل سبيل * ولو رده علي * لوكلت بحفظه عيني بل عيني *

شددت باعناق النوى بعد هــذه مرائر ان جاذبتها لم تقطع

والآن فقد ادبنا الشيخ ببعده * فما رأيه ان يعفو عنا بقربه * فيكون قد ارانا قدرته * ثم اسبغ علينا نعمته * وجمع بين تعريفنا مقدار النعمة اذا آب * ومقدار المحنة اذا غاب * كان كتاب الشيخ الطف من عتبه * واقصر من اوقاتي بقربه * واظنه اشفق علي من التعب فيه اذا طال * وظن بي الكسل والملال فما زلت اعرفه مشفقا علي * حميد الاثر لدي * وان استعفيه من هذه الصدقة * واشتهي ان لا يبرني بهذه الشفقة * وان تكون كتبه الي * اطول من يده علي * وابسط من لساني في شكري حميد آثاره لدي * فاني اذا رتعت في رياض قوله * واجلت عيني وخاطري في ميدان فضله وطوله * تقلبت في روضة وغدير * وادرت يدي في جنة وحرير * ولم اعدم معنى يلقح الذهن * ولفظا يمتع العين والاذن * وفقرة استفيدها * ونكتة اقرأها ثم اعيدها * وان كان تذكر الايام الماضية لا يفرغ قلبي لاستيفاء العائد :

فلا يبعد زمان منك عشــنا بنضرته ورونقه العجــاب

لياليه ليالي الوصل تمـــــت   بايام كايام الشبـــــاب

وكأن ابا تمام لم يقل هذين البيتين الا ليقتل نفسي * ويميت نفسي * وقد استسلمت للفراق فليمض في حكمه * لا بل فلينفذ في سهمه * وكتاب الشيخ يزيل بعض ما بي * ويشفيني من اوصابي * فليهده الشيخ الي فان اهداء السرور به الى مثل قلبي صدقة مبرورة * وصنيعة مشكورة * وكلما قرب مني الدواء فترا * تأخرعني الداء شبرا *

* * *

«وكتب الى صاحب الديوان يوم المهرجان» :

لولا ما يمن الشيخ من الانقباض عند الهدايا جلت او قلت وان كان ليس مع عطاياه جليل * كما انه ليس مع تواضعه قليل * لافنيت في هديتي اليه الاعلاق والجواهر * ولا تعبت في حملها اليه الخف والحافر * ولاسبقت في ذلك الاولين * واتعبت فيه المتأخرين * عرف الله تعالى الشيخ بركة هذا المهرجان * وافرده بذلك عن سائر ايام الزمان * ولا زال يلبس الايام قشيبها وهو جديد * ويقطع مسافات سعدها ونحسها وهو حديد * والسلام

* * *

« وكتب الى أبي سعد احمد بن شبيب » :

ما اقرب ما كانت المسافة بين لقاء صاحب الجيش وبين فراقه * وما اكثر ما انشدت بيت كشاجم في وداعه وعناقه :

لم استتم عناقه لقدومه حتى ابتدأت عناقه لوداعه

كأنه كان ذلك الرجل قائما معنا * او كأنه قاله هذا البيت لنا * ولقد كانت الايام بلقاء صاحب الجيش طويلة الوعد * قصيرة الرفد * فانها مطلتني بلقائه سنين طويلة ثم اسعفتني به ساعات قصار فبينما انا اشكو مطلها * اذ صرت اشكو بخلها * وبينا انا استدرك عليها الماضي * اذ اصبحت اطالب اليها الباقي * وبينا انا انشد :

ايا ليلة الوصل لا تنفذي ويا ليلة البعد لا تنفذي

غدوت أنشد * هذا الذي قيل له أطيب ما كان في * ولعمري أني موسر من الصبر * قوي بنية القلب والصدر * حيث أبيت ببلدة وصاحب الجيش بأخرى وليس بيني وبينه بعد الخافقين * ولاسد ذي القرنين * ولا جبل قاف * ولا سورة الأعراف * ولقد رضيت من الشوق بالدعوى * من اللقاء بالمنى * وغششت فيما بعته من الهوى * والله اسأل أن يجمع بيني وبينه على على ما يثلج صدري * ويقر عيني * وأن يريني الدهر وهو وافد من حشمه * والسعد وهو خادم من خدمه * والأيام وهي رسله في أوليائه واعدائه * والمنايا وهي سهامه في صباحه ومسائه * والاقبال وهو خليط من خلطائه * والسرور وهو نديم من ندمائه * والعز وهو مستدريء بأفيائه * والشرف * والشرف وهو مطنب بفنائه * وهذا الدعاء مني خجل قطعت به الحديث لما توجهت به المسألة على * وخرج الجواب من يدي ولو صدقت فيما ادعيته * وكنت من الشوق على ما حكيته * قلت للشوق إذ دعاني لبيك وللحادين كرا المطايا * ولانضيت الركاب * وفارقت الاحباب * وركبت كاهل الخطر * واعروريت ظهر السفر * حتى انيخ بحضرة طال ما حضرتها العلى * وانزل على سدة طال ما سدت زوايا الندى *

وانظر إلى طلعة عليها للكرم ديباجة خسروانية * وفيها للطلاقة روضة ربيعية رجعت من حضرة الوزير بعد أن افرغ علي من سجاله * واسبغ علي من نواله ما خفف ظهري بل اثقله * وانطق لساني بل اخرسه * وارخص شكري بل اغلاه * وابقى مديحي بل افناه *وأني حين امدح البحربأنه غزير *والبدر بأنه منير * وأعلم الناس أن الدهر كبير * وأن الرمل كثير * كنت كاحد عباد الله المكلفين الذين قولهم هبا * وعملهم جفا * أبقى الله تعالى ذلك السيد لتفتضح به اللئام وتفخر به الكرام * وتتجمل به الأيام والأنام * وأقام به سوق الكرام * وقد أقام * وأدام بسلامته عن الحمد والمجد وقد أدام * وليت المكارم كانت جواهر لا إعراضاً * وخلقاً لاخلاقاً * فتتمكن من رؤيته العين * ويأتي عليها الوزن والكيل * فيدركها الجاهل بحاسة بصره كما يدركها العاقل بحاسة فكره * فاستريح من الدلالة على معرفتها * ومن إقامة البينة على صفتها * وصلت الجارية وددتها لأني رأيت موصلها شابا وإذا اجتمع الشابان فقد اجتمعت النار والحلفاء * بل اجتمع الظمآن والماء * وهذا ميدان لابليس فيه مجال * وزاوية له فيها افعال * وأن النساء لحم على وضم * وصيد في غير حرم * إلا أن تلاحظ بعين غيور * وتلازم بنفس يقظ حذور *

* * *

« وكتب الى تلميذ له كتاب ترتفع الفاظه عن كتابة مثله وطلب نسخة شعره » :

نسخة شعري التي طلبتها يا ولدي سائرة إليك * وغير مضنون بها عليك

ولكني إذا امتعتك بها الآن اعنتك على طول غيبتك * وصرت بعض آفات اوبتك * فارجع فديتك * وانتجز ما وعدته واسمعه ممن قاله تزدد به عجبا فحسن الورد في اغصانه * رأيتك يا ولدي تخاطبني في كتابك بالفاظ إن كنت أنت ابا عذرتها لقد اختصرت طريق الكلام * وصرت بعض محاسن الأيام * وإن كنت اخذتها من غيرك لقد سرقت سرقة لا يلزم صاحبها رد * ولا يجب عليه فيها حد * ولا يعاقبه السلطان * ولا تتبرأ منه الأقوام * واغرت غارة لا يلزمك منها قود القتلى * ولا ارش الجرحى * ولا تتبعك فيها دعوات اليتامى والأيامى * وغصبت غصبا لا تطالب بتبعته ورثتك ولا يثلم له دينك وامانتك * فيا أيها المغير النظيف الغارة * والسارق البري الساحة * اشركنا رحمك الله في بعض ما رزقت * واجعل لنا سهما مما سرقت * واعطنا قليلا مما اخذت * ولا تبخل علينا بما ليس من ملك يديك * ولا من ميراث ابويك *

* * *

« وكتب اليه ايضاً » :

كتبك يا ولدي عندي تحف وشمامات * وانوار وباكورات * افرح بأولها * وانتظر ورود ثانيها * واشكرك على ماضيها * وأعد الأيام والليالي على باقيها فكثر على سوادها * ووفر على اعدادها * واعلم أني احبك حباً مستكناً وباديا *

احباك ما لو كان بين معاشر من الناس اعداء لجر التصافيا

وأني آنس بك حاضراً * واشتاق إليك غائباً * شوقاً لو عرفته لتكبرت علي

الورى * ولم تقم وزناً لأهل الدنيا * وكنت لا تنظر إليهم إلا بمؤخر عينيك ولا تكلمهم إلا ببعض شفتيك

* * *

« وكتب الى حاجب ركن الدولة بالري » :

الكتاب الذي عظم الحاجب باصداره شاني * وأعانني به على زماني * وأهل زماني * ورد وثمرة انفؤاد منه بعد في اكمامها لم تزهر فتغنم * ولم تدرك فتطعم * وإذا نتجت انشفاعة من حيث لقحت * وزكت اغراس المعونة من حيث زرعت * ولاحت على صفحات أحوالي أثار الزيادة * وظهرت فيها مخايل السعادة * اقمت رهج الحمد والشكر * وانطقت بهما لسان الدهر * وقات ما يتعب الراوي * ويحير السامع والرائي * ويوقع للخواطر شغلا طويلا * وللسان الاقلام عملا ثقيلا * وإلى أن تيسر من ذلك ما هو في ضمان الأيام * وفي ودائع الحظوظ والأقسام * فاني اسأل الله تعالى أن يطيل بقاء الحاجب مصوناً عن لحظات الغير * محروساً من عثرات القدر * اقباله وسعده مقتبل * وبابه مستقبل * وبنانه بل كمه بل تراب مجلسه مقبل *

* * *

« وكتب الى أبي عبدالله النحوي الخطيب بالري » :

إن تكلفت للشيخ ذكر ما اسلمني له فراقه من الهلع * وأهداه إلي من أنواع الغم والجزع * جريت معه في ميدان الاعتداد * واستقبلت بكلامي

قبلة الشكر والاحماد * ورأيتني أشكر نفسي على أن أؤدي فرضاً * وأحمد جوانحي على أن يجيب بعضها بعضا * وأن سكت بقيت في نفسي حاجة * واستولت على قلبي حسرة * ورأيتني ابخل على نفسي بشكاية المضرور * وانفث عليها نفثة المصدور * فلا أدري أأقول على أن القول كلفة * أم اسكت على أن السكوت غصة * ولكني أنشد قول المولد :

واشهد الله وحسبي به   أني إلى وجهك مشتاق

ما زال قلبي مقبلا لذكر ليالينا تلك الطوال القصار * اللواتي كانت ظلماتها أنوار * وساعاتها كلها اسحار * حاربنا فيها النعاس بجيش السمر * وسهرناها ولم نجد مس السهر * فكلما مال بنا النعاس إلى شقه * وكاد يستعبدنا الملال برقه * نفضنا عنا غبار الكسل * وجلونا عن أعيننا بل أنفسنا صدأ الفتور والملل * بحديث مطرز بالادب * مرصع باخبار العجم والعرب * يسكر من سمعه وإن لم يشرب * ويشهد على بهيمية من شهده إن لم يطرب * بألفاظ أنيقة النظم وثيقة النثر * ومنطق رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر * فيعود النشاط امضى ما كان حداً * وأصفى ما كان فرنداً * وأثقب ما كان زنداً * ولو عاوضني دهري * واشترى جميع عمري * وباقي عصري ورد إلى تلك الليالي الزهر * المحجلة الغر * لكان قد احسن إلي واربحني * وخسر علي * وهيهات الدهر تاجر لا يغبن في تجارته * وأمير لا يغلب على إمارته * ولكنا نقطع الدهر قالا وقيلا * ونعلل فيه قلباً عليلا * يسر الله لنا حالة يعود بها الأنس في أحسن زينته * واتم بهجته * وأدالنا على الفراق الذي وجدناه لئيم الظفر * قبيح المنظر والمخبر * وأعاد لي تلك الأوقات المسعودة المحمودة * التي سرقتها من دهري * ورأيتها غرة عمري *

وصقلت فيها بلقاء الشيخ ذهني وفكري * وانشدت فيها من شعري وشعر غيري :

وفرحة الاديب بالاديب　　　كفرحة الطبيب بالطبيب

ولو طلبت من الشيخ عوضاً لكنت قد اعنت الزمان * واستحققت بطلبتي المحال والحرمان * والفضل اليوم أقل طالباً * وأعز صاحباً * وأجذب جانباً * وأخيب كاسباً * من أن يعظم غير الشيخ بين طرفيه * أو يضم عليه كلتا يديه * سقى الله أيامنا بيد الشيخ الجليل * فاني لا أعرف سحابة تنُدى نداها * ولا تسقى سقياها * وإنما طلبت الغاية في الدعاء * وسموت إلى أقصى مراتب الاستسقاء * وقد قال أبو الطيب المتنبي :

سقى الله أيام الصبا ما يسرها　　　ويفعل فعل البابلي المعتق

وكأنه قال سقى الله أيام الصبى خمراً فانما فرحها ساعة * وطيبها مجاز لا حقيقة له مع بشاعة طعمها أولا * وثقل خمارها ثانياً * والذي دعوته به من السقيا يبقى ولا يفنى * ولا يستبشع بل يستحلي * ويستطاب ويستمري بلغني أن فلاناً زعم أن سمعه لا يسع لاستماع كلامي * وأنه يستعظم ما يرى عليه الناس من اعظامي * والذنب للعين العشواء في محبة الظلماء * وكراهية الضياء * وفم المريض يستثقل وقع الغذاء * ويستمر طعم الماء * والجعل يتغذى بالسرقين * ويموت من الورد والنسرين * ومن الريحان والياسمين ومن طمس عين الشمس * فقد نطق في الحس * ومن حارب جيش العقل وخلع ربقة العدل * ورضي لنفسه بمجانسة الجهل * فقد كفى خصومة مؤنة عتابه وعقابه * وقد أمن زيادة المحنة لتمام ما به * كتبت هذه الاحرف ولم يبق مني الحر الشديد * والسفر المديد * قلباً يدري * ولا بنانا يجري *

فاني * قد ذبت غير حشاشة ودماء * ما بين حر هوى وحر هواء * فأما حر الهواء فشاهده حاضر * ودليله ظاهر * وأما حر الهوى فان هواي مقصور على مولاي * وقلبي حمأ لا يحله غيره * ولا يعمره إلا ذكره * وأرجو أن لا أعدم على ما قلته من قلبه شاهداً * ومن علمي به رائداً *

* * *

« وكتب الى قاضي الري أبي الحسن بن شاذان » :

كتابي أيد الله تعالى القاضي من قم وأنا فيها بمكة حر الاحجاء * وبعمان هواء لا ماء * بل كتابي وأنا في سلامة إلا من الحر الذي يذيب دماغ الضب ويشبه قلب الصب * وهذا سرقته من رسائل الوزير الجليل ابن عباد وليس بأول غارة الكردي على الحاجي ولا بأول أخذ الطرار * مال التجار * ولا بأول تجمل المتكاتب * بكلام الكاتب * وهل عبرنا منذ عرفناه إلا عن بيانه * وهل أحرينا أقلامنا إلا على أثار قلمه وبنانه * وهل اغترفنا إلا من بحره * وهل نطقنا إلا بنظمه ونثره * وهل على الأرض عار أن تطلب سقيا السماء * وهل بالفقراء نقص أن يأخذوا صدقات الأغنياء * وهل يعاب النهر أن يستمد من البحر * وهل يضع من الساري أن يستنير من البدر * لا بل كتابي عن سلامة الاين مباينة الجمال * ومن عشرة الجمال * على أن الجمال حمل وهو ينطق بلسان * وتشبه خلقته خلقة الانسان * لا بل كتابي عن سلامة إلا من سبعي من كل حضرة بعد تلك الحضرة البهية * ومن كل نفس بعد تلك النفس الزكية * فاني منذ لقيتها وزنت العالم بأخف صنجه * وقومت الدنيا باوكس قيمة * على أني ما خرجت منها إلا طريد حياء *

ووفيلُ عطاء * وفدت على الوزير إبن عباد وحقائبي مملوة رجاء * وصدرت عني وهي مملوة مدحاً وثناء * ولقد غاص في معناي على دقائق من الكرم اخترعها * ونوادر من الجود ابتدعها * لو كانت ابياتاً لكانت أوابد * ولو كانت قصائد لكانت فلائد * ولو كانت ألوانا لكانت غرراً * ولو كانت حلياً لكانت درراً * فاما رأيت أن لا ازداد في صنائعه طبقة * ولا اترقى في نعمه درجة * إلا ازددت عنها تبلداً * وبحقها تقاعداً * هربت لأكون أوحد في الهزيمة من الجميل * كما انه أوحد في بذل الجزيل * ولا غرب في الهرب على الشعراء * كما أغرب في العطاء على الروساء * وليجمع بيننا ظاهر اسم الاختراع وفحواه * وأن فرقت بيننا حقيقته ومعناه خلفت على القاضي من دقائق اشغالي ما إذا تفكرت فيه قرعت له سني * وتعجبت منه ومني * ورأيتني قد ابتذلت الكبير للصغير * ونطت الحقير بالخطير * ولكن الكريم إذ رأى المكارم لم يجل عن دقيقها * ولم يدق عن جليلها * وقد يتواضع الأسد لصيد الأرنب * وافتراس الثعلب * وإن كان يفترس الفيل * ويصطاد الزندبيل * فأما أنا فاني اخترت لغرس مودتي من تزكو تربته * وتحمد صحبته * وانزلت حاجتي بمن داره مفيض حوائج الاحرار * وبابه مثابة الشكر من الاقطار * ومن نظر إلى ندماء الوزير وأصحابه * وإلى حجابه وكتابه * علم أنه لم يلقطهم إلا برائد الفراسة * ولم يغص عليهم إلا بمعونة من التوفيق والهداية * وأنه طالع ما وراء العواقب بمرآة من التجارب * وانه الرجل اذا قدح بالظن اثقب * واذا ولد بالرجاء انجب * واذا نظر الى الناس عرف النقاية فانتقاها * والنفاية فانتفاها * وعلى هذه الجملة كان اختيار القاضي فصادف صنعه مصطنعا * ووافق بدره مزدرعا ووقع الجميل منه موقعا * ليت القاضي لا يقول هذه الحاج لا تساوي كل هذا

الماق * وكل هذا السجع الملفق * فاني لم يبق في قلبي سجعه الا نشرتها * ولا في لساني فضلة الا احضرتها * والسلام

* * *

« وكتب إلى صاحب ديوان الحضرة » :

كان صدر عني الى حضرة الشيخ كتاب انشأه الشوق اليه * وكثرة التلهف عليه * وكتبته يد الحمد والشكر * واملاه لسان الحديث والذكر * وعزيز علي اني في هذا الفصل الذي هو شباب الزمان * ومقدمة الورد والريحان * غائب عن مجلسه الذي حضوره شرف دهر * وامتئناف عمر * ورفعة قدر * لا بل عن وجهه الذي اذا لقيته لقيت به السعد طالعا * والنجع مطالعا * وفارقته ففارقت شخص البركة واليمن * وهيكل الاحسان والحسن * والدهر غريمي في استئناف تلك الحالة القديمة * ومراجعة تلك الحضرة الكريمة * وانا اراجع * فهل الشيخ مراجع * وانا تائب * فهل رضي الشيخ الى آئب * وسالقي اليه ربقتي * واوقف عليه طاعتي * فان صفح فطالما انكسرت المودة ثم انجبرت * واقبلت الاحوال بعدما ادبرت * وطالما تقدم عتاب وتأخر اعتاب * وطالما زجي الساعي بالمضرب فخاب * ورمى بين الاحرار سهمه فما اصاب * وطالما كان قليل الهفوة * ويسير النبوة وعارض الجفوة * سببا لحميد الرضى * وكريم العتبى * وكثير الرحمى * لا بل الصلة خلف القطيعة ابقى * والمودة بعد النفرة اخلص وابقى * لان العتاب قد صفى ماءها * وجلا اقذاءها وابرز عن غش مفسديها * ودل على كذب من سعى بالنمائم فيها * وان دام الشيخ على حقده * ولم ينحل عن عقده * لم يجدني بحمد الله كاسد الشعر * رخيص المهر *

قوي الجزع ضعيف الصبر * ولم اسقط عليه سقوط الذباب في القدر * وانما الأدب سلعة تنفق على الكرام والشيخ منهم * وتكسد على اللئام وهو بنجوة عنهم * ولقد خصني من بين الازمان زمن لئيم * ووقع في قسمي من البخوت بخت ذميم * حيث صرت الزم خراجا التزم بنو المدبر اضعافه للبحتري * واضايق في ضيعة وهب امثالها محمد بن الهيثم الغنوي لابي تمام الطائي * حيث قال البحتري :

ولم لا اغالي بالضياع وقد دنا ... على مداها واستقام اعوجاجها
اذا كان لي تربيعها واغتلالها ... وكان عليكم عشرة وخراجها

وقال ابو تمام الطائي :

فدع ذكر الضياع في شماس ... اذا ذكرت وبي عنها نفار
ومالي ضيعة غير المطايا ... وشعر لا يباع ولا يعار

فان كان اولئك رؤساء فايس رؤساؤنا برؤساء * وان كان هؤلاء شعراء فلسنا نحن شعراء * وقد عرف الشيخ اني لا اقيم على الخسف * ولا احل الا خطة النصف * فان رأى ان لا يفجع خراسان بلسانها * ولا يليها من سيفها وسنانها * فعل :

«وله رحمه الله تعالى»

ورد علي كتاب من ورائي * من اسرتي ووكلائي * يذكرون فيه ان الشيخ قد ترك لهم خراج هذه السنة * وكفر عن تلك السيئة بهذه الحسنة * ومثله من عقب الفساد بالصلاح * وعفى بالمراهم على آثار الجراح * وانا اعلم ان ما كان منه من الاولى كانت نادرة وفلتة * وان ماكان منه من الاخرى كانت قصدا وعمدا وفطرة * فان الكريم اذا اساء فعن خطية * واذا احسن فعن عمد ونية * والحر اذا جرح اسا * واذا خرق رفا * واذا ضر من جانب * نفع من جانب *

وان يكن الفعل الذي ساء واحداً * فافعاله اللائي سررن الوف * والله تعالى يطيل بقاء الشيخ لممتحن يخلصه * ولفاضل يستخلصه * ولعارفة يسديها * وصنيعة يوليها * ورغبة يعطيها * ومعال يوشيها * وكريمة يجليها * ومهمة يكفيها * وملمة يداويها * وايام كايامنا هذه يداريها * ودولة سامية يليها * وجنية من جنيات الكرم يجنيها * ومسعاة من مساعي الشرف يبنيها * وذخيرة من ذخائر الشكر يقتنيها * وغاية من غايات الفضل يحتويها * ومسبق اليها اهاليها * وصفوة من المعالي يصطفيها * وحسنة يرغب فيها * وفي ذويها * اسأل الله تعالى ان يعينني على شكره * وان يزيدني من بره *

* * *

« وكتب الى الوزير ابن عباد لما فارقه ومر باصفهان وتوفيت اخت الوزير » :

كتابي اطال الله بقاء الوزير من حضرته الى حضرته * ومن مستقر عزه الى مستقر عزه * فانا بما تبعني من عنايته * وشيعني من عساكر حياطته ورعايته * ونسبت اليه من خدمته * ولاح على صفحات احوالي من مواسم نعمته * صالح الحال * بل ناعم البال * راض من الايام والليال * والحمد لله ذي الجلال * وصلى الله على محمد وآله خير آل * قد كنت احسب ايد الله تعالى الوزير اني اتوصل الى بره * واكرع من بحره * وارد شريعة نواله * واضرب عطفي بين جاهه وماله * اذا وردت حضرته البهية * وطالعت طلعته الزكية * فاذا فارقتها انحسمت على مواد المواهب * ولم تصافحني ايدي الرغبات والرغائب فاذا انا بنعمته يشيعني غائبا * كما تتلقاني حاضرا * وتمشي على عقبي ظاعنا *

كما تنزل ربعي قاطنا * كالغيث يستقبل الطالب * ويتبع الهارب وكالشمس تطلع على المسافر * طلوعها على الحاضر * وذلك اني وردت هذه الناحية المغمورة ببركات نعمته * المكنوفة بافضاله وفضله * فرأيت بها من غرائب الاكرام والاعظام * ومن دقائق الافضال والانعام * ما ترك مطايا الشكر محسورة مبهورة * وجعل ايدي التعديد قاصرة متصورة * وقدمت من خليفته فلان على رجل عجن من طينة الحرية * وضرب في قالب الفتوة والانسانية * وسخرت له المكارم يضرب فيها بسهام الاقتدار * ويصرفها على حكم الاختيار * اوله ثناء جميل * وآخره عطاء جزيل * وفيما بينهما ترحيب وتأهيل * وتعظيم وتبجيل * برحتى سر * وعظم حتى افحم * وافضل حتى اخجل * وتركني اتردد بين محاسن قوله وافعاله * واجيل طرفي بين طرفي تنزيله وانزاله * واذكر به اخلاق الوزير التي ما رأيت كريما الا ذكرنيها لاستيفائه منها * ولا لئيما الا مثلها لي للتخلية عنها * يذكرنيه كل خير رأيته وشر * فما انفك منه على ذكر * وكيف اتعجب من علق الوزير اتخذه ومن سيف بناله شحذه * ومن جواد هو ضمرة الرهان * ومن حر هو عمله نسخة الحسن والاحسان * ومن تلميذ استفاد منه * وخريج صدر عنه * فهيهات ان السيوف على مقادير الاعضاء تفري * وان الخيل على حسب فرسانها تجري * وحق لنهر انشعب من بحران يكون غزيرا * ولنجم استضاء من بدر ان يكون منيرا * على انه بالآباء تقتدى الاولاد * وعلى اعراقها تجري الجياد

والسيف ما لم يلف فيه صيقـــــل   من سنخه لم ينتفع بصقال

وقد ذكرني ما رأيته قول من سئل عن ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنهم قال له السائل اني لم استكثر منه فصفه لي فقال انظر الى اثره على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فماذا اقول في جمر هذا شرره * وفي سيف هذا اثره * وفي كريم هذا نتائج سؤدده * وآثار يده * فسبحان من

تجعل نعم الوزير تكنفني في الحضور والغيبة * وتحيط بي من الجوانب الستة * فاذا حضرته طالعني * واذا فارقته تبعني :

ففي كل نجد في البلاد وغـائر مواهب ليست منه وهي مواهبه

المصيبة التي قرعت صفاة الوزير في المتوفاة زكى الله عملها * وحقق في مغفرته املها * وان كانت نالت كلا من خدمه * ومتحملي اعباء نعمه * بالغم الذي لا تنجلي كربته * والجرح الذي لا تؤسى ضربته * وخصني من بينهم بالنصيب الاوفر * والقسم الاكثر * فاني اغار لجنبة الوزير من ذكر النساء اولا * واتطير لنعمته ان تتجللها التعازي والمراثي ثانيا * وآنف له من ان اقيمه مقام من يوعظ وينبه ثالثا * والا فالقريحة بحمد الله تعالى متدفقة والخواطر مجيبة * والشعر ليس بعازب * والشيطان ليس بغائب * والطريق الذي نهجه الوزير لنا في الادب عامر ومسلوك لامتروك وقد كان ابو الطيب عزى سيف الدولة عن اخت له فقال :

يعلمن حين تحيـى حسن مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشنب

ولو عزاني انسان عن اخت لي بمثل هذا لالحقته بها * وضربت رقبته على قبرها ولا مجال للهم والغم بين عزاء الوزير وبهائه * ولا مرتع للبكاء والفجعة بين بقاء النعمة عليه وبقائه * وانا اكتب للزمان سجلا انه اذا تخطأ فناه * واخطأت حوادثه حوباه * فسائر ما يأتيه صغير محتقر * ومنسي مغتفر * وباطل وهدر * وسيرد على الوزير شعر غلامه ليعلم انه لم يجهل مقتضى النعمة * ولم يخلد الى الغيبة * ولم يدخر شعره * ولم يخبيء بعد عروس عطره * ووالله ما انصفنا ولي نعمتنا * ومالك رقنا * وجالب رزقنا فيما نشاركه في نعمائه * ولا نشاركه في بكائه * ونساهمه في احوال الرخاء * ولا نقاسمه احوال البلاء * ولا نساعده على البكاء * ونتحمل اعباء منته * ولا نتحمل اعباء محنه * قضية والله سدمية *

وسنة حدوبية * لا زالت الحوادث عن فنائه ناكبة * والخطوب عن نفسه وانفس اعزته عازبة * وصروف الايام عن مستقر عزه مصروفة * والحاظها دون تطرف نعمته مطروفة * ولا زال يتعرف من الله تعالى صنعا يزكو طريفه على تليده * ويقع عتيقه وراء جديده * وارانا الله جماعة اوليائه فيه * ما تضيق ساحة رجائنا عن بغيته * ويأتي على صالح دعائنا برحمته * فلان خادم الوزير قد وقف على نفسه صانها الله * وماله ثمرة الله * وقلدني نعمة صارت الى نعم الوزير مضافة اذ كان في طريقه ذهب * وعلى قالبه ضرب * وكأن خادم الوزير كثرهم الله في تشابه افعالهم * وتكافؤ احوالهم * حلقة مفرغة * لا يدري ما طرفاها * وسبيكة ذهب لا يعلم اسفلها افضل ام اعلاها * وكلما فقدت منهم درهما وجدت دينارا * وكلما فقدت دينارا وجدت قنطارا * والوزير اوسع لمكافأة خدمه * فانما يتقارضون من فضلات ما عندهم ماء نعمه * ويعير بعضهم بعضا ما يتقلب فيه من بقايا مواهبه وقسمه * ثم مرجع الشكر بعد هذا اليه * ومدار الاحسان والاستحسان عليه * وما عسى اقول في مدح الوزير ونعمه * الآن استعير لسان طفيل الغنوي فاقول :

جزى الله عنا جعفرا حين ازلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
ابوا ان يملونا ولو ان امنـــــا تلاقي الذي يلقون منا لملت

* * *

«وكتب ايضاً الى بندار نيسابور من الري لما رجعت الوزارة الى الوزير ابن عباد وعفا عن ندماء ابن العميد» :

كتابي اطال الله بقاء سيدي من حضرة الوزير عن سلامة بسلامته مشتبكة *

وحال بجميع احواله متمسكة * والحمدلله تعالى على النعمة عليه اولاً * وعلينا به اخرا *وقد صدر كتابي الى سيدي مشحونا بجد رجوت انه يعجبه *وهزل لم اشك انه يطربه * والجد في غير وقته كثافة * كما ان الهزل في غير موضعه سخافة * وخير الكلام ما انتزع من ضده الى ضده * ورتع بين هزله وجده * واستوفى صفة القائل رحمه الله تعالى « وكلام كأنه قطع الروض وفيه الصفراء والحمراء »

وردت ايد الله سيدي من حضرة الوزير على رجل زادته الرفعة تواضعا * والصيانة تبذلا * حتى كأن الايام كتبت له وثيقة بان يستبقي جميل عهدها بجميل عهده ويستديم جزيل رفدها بجزيل رفده * وكأن صروف الدهر شارطته انها لا تفيء له حتى يفيء لاخوانه * ولا توافقه حتى يخالف اهل زمانه * وما ظن سيدي برجل نفذ توقيعه في البر والبحر * وجاز حكمه في اهل نجد والغور * وخدمه اعيان العرب والعجم * وقبل يده ملوك الجبل والديلم * وصارت لحظة منه تغني * ولفظه منه تفني * وسطر من سطوره يحي املا * ويقرب اجلا * وخلوة من خلواته تزيل نقما * وتحل نعما * وهو مع ذلك بين سكر الدولة وسكر الشبيبة * ثم هو بعد ذلك كله على عهده القديم تواضعا وتقربا * وعلى سجيته المعروفة المألوفة ترددا وتحببا * يصل ببشره * قبل ان يصل ببره * ويحيي القلوب بلقائه * قبل ان يميت الفقر بعطائه * اكرم الناس عليه * اكثرهم حوائج اليه * وابعدهم منه * اشدهم انقباضا عنه * حتى كأن الله تعالى لم يبلغه ما بلغه * ولم يسبغ عليه ما اسبغه * الا ليكذب الفرزدق في قوله :

قل لنصر والمرء في دولة السلطان اعمى ما دام يدعى اميرا
واذا زالت الولايـــة عنـــه   واستوى بالرجال عاد بصيرا

وليصدق زيادة الاعجم في قوله :

فتى زاده السلطان في الحمد رغبة   اذا غير السلطان كل خليل

وانا من بين الجماعة قد خضت به بحر الغنى * وركضت به في ميدان المنى * ورأيت يقظان ما لم اكن احتلم به وسنان * وزفت لي الايام بمشاهدته من ابكار النعم ما اتقاعد عن نشره * واصغر من قدره * ولست اسمح من البياض بالمقدار الذي يسع تفصيل هذه الرغائب * ويستوي في اقسام هذه المواهب * ولكني اقتصر بالمكاتبة على الجملة * واكل التفصيل الى المشاهدة * فلسان العيان * انطق من لسان البيان * وشاهد الاحوال * اعدل عن شاهد الاقوال سيكون الالتقاء قريبا فان الشاعر اذا استغنى حن الى اهله * ورجع الى اصله * واحب ان يرى عليه عنوان اليسار * ويجلو نفسه على عدوه وصديقه في معرض الاستظهار * ويعلم الناس انه زرع رجاء * فحصد عطاء * واسلف من الكلام عرضا زاهقا * فأخذ من المال جوهرا نافقا * وفرح الشاعر اذا قبل شعره * ونفق سعره * كفرح التاجر * صاحب الجواهر * اذا اشتريت يتيمته * والشيخ ابي البنت اذا خطبت كريمته * وجدت فلانا وفلانا ندماء ابن العميد رحمه الله وقد البسهم الخذلان ثيابه * ونفض عليهم الادبار ترابه * ونبذهم الاقبال وراء ظهره * ونظر اليهم الزمان بمؤخر عينه * فهم ارخص من الثمر بكرمان * واضيع من الورد في شهر رمضان * واثقل من الفرو في حزيران * واكسد من ابي بكر الخوارزمي في خراسان * وكذلك تكون مصارع البغي والعدوان * وحقائد البهت والبهتان * ولقد جلسوا على قارعة الامصار * واعترضوا يد التحكم والاقتدار * واستهدفوا لسهام الايام والاقدار * لولا ان امورهم افضت الى رجل عليه من التوحيد والعدل مانع * ولديه من الحلم والحياة وسيلة وشافع * هذا وقد ولغوا في دمه * ورتعوا في لحمه * وخبوا واعنقوا في ذمه * بل في شتمه * فلم يبقوا في القوس منزعا *

ولم يتركوا للصلح موضعا * فلما دفع الاقبال رقبتهم اليه * وصارت حياتهم وموتهم في يديه * اسبل عليهم ستر العفو والمغفرة * واسبغ فيهم حكم الصحيح بعد المقدرة * وقلم عنهم اظافر الحدثان * وقام دونهم في وجه الزمان * وما قتلهم الا يوم احياهم * ولا افناهم الا حيث استبقاهم * ولو كانوا يرجعون الى نفس مرة * والى اعراق حرة * لكانوا الى نظر عين الشمس اقوى عينا من النظر الى طلعته * ولكان المقام في القفر بل في القبر اهون عليهم من المقام في حضرته * ولئن غرهم الكرم والتكرم وطردهم الحياء والتندم * فلعن الله تعالى من لا يعرف الالم الا في جسمه * ولا النقصان الا في ماله * ومن لا يقتله العفو ولا يأسره الانطلاق ومن لا يعد الا حفظ اللغة والاعراب * ورواية اشعار العرب * هذا جسم الادب فاين روحه * وقشر الفهم فاين لبه * ولو كانت المرؤة رجلا لكان كريم الطرفين * شريف الجانبين * مهذب العرق * حسن الخلق والخلق * ولو كانت المرؤة امرأة لكانت غضيضة الطرف * ناصعة الظرف * وفية جميلة العشرة للأهل ولو كان كفران النعمة طعاما لكان قذرا وضرا * او شرابا لكان عكرا كدرا * ولكن كل انسان ينمي الى عرق اوليه * وكل اناء يرشح بما فيه * وما اذكر المتوفي رحمه الله تعالى الا بخير * ولا اقابل نعمه الا بشكر ولكني احب لرئيس مثله ان يختار ندماءه * وان يشترط على المحاسن جلساءه * وان يكون اختصاصه لهم من حيث شرائط الاختصاص والاكرام * لا من حيث حظوظ الجدود والاقسام * وان يكون افضاله عليهم * على مقدار ما يجده من الفضل اليهم * ليكون قد اصاب بعارفته مظنة الاستحقاق * ولم يلقها على طريق الاتفاق * وليكون قد ارتاد فاحش الارتياد * وانتقد فلم يظلم الانتقاد * فاما ان تكون الندماء * يتقربون الى الملوك بهتك الاسرار من الاستار * ويأكلون خبزهم بلحوم الاحرار * فذلك مما يضيق عنه مسلك الحرية * وينطق بحضرته

لسان الانسانية * ولقد كشفت الايام من حلم هذا الصدر عن غاية لم تطمح اليها عين * ولم تقرع بها اذن * ولم يعثر بها ظن * فصارت صلاته من الاجال * كصلاته من الاموال * وتصدق بعرضه على اعدائه * كما تصدق باموا له على اوليائه * ليكون الجود متكافىء الطرفين * والسؤدد متعادل الوصفين * ولئلا يبقى في الكريم غاية الا انتهى اليها * ولا للمدح جليلة ولا دقيقة الا غاص عليها * فلان قد ابطأ علي * فليت شعري الريح قلعته * ام الارض ابتلعته * ام الافعى نهشته * ام السباع افترسته * ام الغول اغوته * ام الشياطين استهوته * ام اصابته بائقة * ام احرقته صاعقة * ام رفسته الجمال * ام اغتاله الجمال * انتكس على ظهر جمل * ام تدحرج من رأس جبل * ام وقع في بئر * ام انهار عليه جرف شفير * ام جفت بداه * ام قعدت رجلاه * ام ضربه الجذام * ام اصابه البرسام * امجمش غلاما فقتله الغلام * ام تاه في البرام * اغرق في البحر * ام مات من الحر * ام سال به سيل زاعب * ام وقع فيه سهم من سهام الاجال صائب * ام عمل عمل لوط فارسلت عليه حجارة من طين منضود * مسومة عند ربك وما هو من الظالمين ببعيد * وكأني به وقد سمع هذا الفصل فغضب علي * وشتم طرفي * وما اردت بما قلته غير الشفقة * ولا نطقت الابلسان المقة * وانما اتبعت فيه السنة * فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الفال ويكره الطيرة * وهذه مزحة خفيفة * وان كانت ثقيلة عليه * وظريفة وان كانت سخيفة لديه * ومحببة الى سامعها وان كانت بغيضه اليه * وقد اعتذرت والعذر وان قل * دواء كل ذنب وان جل * والسلام

* * *

« وله الى بعض حكام الرساتيق لما رجع الى نيسابور » :

كتبت وقد اذن الدهر بالعتبي بعد العتب * وبالصلح بعد الحرب * ورد الله تعالى علي من الاقبال * ما كان غصبنيه البخت الغائر * والحظ الغادر * ورد كيد الساعي في نحره * وردد غصته في صدره * والحمد لله تعالى على انعامه علينا بما ليس له عندنا شكر * ودفعه عنا ما ليس لنا عليه صبر * فما اعظم النعم على غير الشاكر * وما اعجب زوال المحنة عمن ليس بصابر * ذكر سيدي حال تلك الضيعة الضائعة * التي اول عهدي بها آخر عهدي بالوجه المصون * والعرض المخزون والخطب ايد الله تعالى سيدي في تلك الضيعة جليل * والحديث فيها طويل * لا اسع له حتى اعقد لعجائبها حساباً * وا صنف فيه كتاباً * واستأجر لتفصيل ذلك وشرحه كتاباً * يرتبونه باباً باباً * ويجعلون له رؤوساً واذناباً * هذا بعد ان اشترى كاغد سمرقند كله * وابرى قصب الدنيا دقه وجله * ويكون مدادي ماء البحر * وعمري عمر النسر بل الدهر * وما ظن سيدي بضيعة الزمتني الجزية بعد ان كنت الزمها الصغير والكبير * واستأديها الرعية والامير * واخرجتني من عز السلاطير إلى ذل الدهاقين * وجمعت على فتون الاغنياء وغم المساكين * وشغلني صداعها عن اشغال الدنيا والدين * يستغل الناس الغلة * وانا استغل القلة والذلة * ويزرعون في الارض حباً * فيحصدون حبوباً * وانا ازرع في قلبي كرباً * واحصد كروباً * وقد صرت من اجلها اخدم قوماً كنت استخدمهم * واسلم على اناس كنت إذا كلموني لا اكلمهم * ويحجبني من لو حضر بابي من قبل حجبته ويعرض عني من لو سألني فيما مضى ما اجبته * قد كنت أبغض الهوان اذا مر ببابي * فاليوم قد ادخلته داري وبين ثيابي * وإلى من يشكو المفعول به وهو الفاعل * ومن يطلب بالقتيل وهو القاتل * والسلام .

* * *

« وكتب اليه ايضا » :

كان الحاكم قدم في امر ضياعي وانا حاضر ما قوي حسن ظني به وانا غائب، وحفظ الصديق حاضراً ود * وحفظه غائباً عهد * ومن احسن مشاهدة فقد حفظ الاخاء * ومن حفظ على ظهر الغيب فقد رعى الوفاء * فلما غبت عن الناحية اصابت تلك الناحية عين الغير * ودب إلى الحاكم حوادث البشر * ووقع في تلك الضيعة من الصنيعة * وفي تلك الغلة من القلة * ما بغض إلي المال * وحبب إلي الفقر والاختلال * وتركني كلما سمعت بذكر ضيعة قرأت المعوذتين * وانهزمت فرسخين * واقمت ديدبانين على مرقبين * وانما يكره الفقر لما فيه من الهوان * ويستحب الغني لما فيه من الصوان * فاذا نبغ الغم من تربة الغنى فالغنى هو الفقر * واليسر هو العسر * لا بل الفقر على هذه الصفة والحالة والقضية اجمل من الغنى حالا * واقل منه اشتغالا * لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق * منفك الرقبة من كل رق * لا يلزمه اداء الزكاة * ولا تتوجه اليه غوائل النائبات * ولا يستبطئه اخوانه * ولا تطمع فيه جيرانه * ولا ينتظر في الفطر صدقته * ولا في النحر اضحيته * ولا في شهر رمضان مائدته * ولا في الربيع باكورته * ولا في الخريف فاكهته * ولا في وقت الغلة شعيره وبره * ولا في وقت الجباية خراجه وعشره * فانما هو مسجد يحمل اليه ولا يحمل عليه * وعلوي يؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه * يتجنبه الشرطي بالنهار * ويتوقاه العسس بالليل وفي الاسحار * فهو اما غانم او سالم والغني انما هو كالغنم غنيمة كل يد سالبه * وصيد كل نفس طالبه * وطبق موضوع على شارعة النوائب * ومنصوب على مدرجة المطالب * تطمع فيه الاخوان * ويأخذ منه السلطان * ويتطرق اليه الحدثان * ويتحيف ماله النقصان * فاذا كانت حاله حالي فوقع عليه اسم الاغنياء * واصابه من الضرر ما يلحق بالفقراء *

فقد نظم له بين المحنتين * وخرج عليه الزمان من كمينين * لأن حقوق الاغنياء ترهقه من جانب * وتبذل الفقراء ومهانتهم تلحقه من جوانب * فلا هو غني فيتسلى بوفره * ولا هو فقير فيستريح إلى فقره * فهو كمؤدي الخراج وليس له غلة * وكالراهب المعذب نفسه بالعبادة والخلوة وليست له ملة * فقد جمع المشئمة والمضرة الحاضرة * وخسر الدنيا والآخرة * ولولا ان تضييع المال * ضرب من العجز والاخلال * وخصلة من خصال النساء لا الرجال * لكنت اترك تلك الضيعة نسياً منسياً * واجعل حديثها بساطاً مطوياً * ولكني لا اغبن عن الصغير * كما لا أبخل بالكبير * ولا أغالط في القليل من حيث لا اضايق في الجليل * ولقد كسدت بخراسان لاني بها موجود والموجود مملول * كما ان المعدوم مسئول * وما ارخص الماء إذا وجد * واغلاه إذا فقد * وربما غلا الشيء الرخيص والله تعالى أسأل ان يهب ريح الكرم * ويطلع نجم الهمم * ويجلو عن خلقه صدأ هذه الاخلاق والشيم * بمنه وكرمه *

* * *

« وله الى فقيه بلاد قومس وقد ورد عليه أبنه للقراءة » :

ورد على كتاب الفقيه بعد نزاع كان اليه * وحرص كان عليه * وبعد ان اقترحته على الدهر * وخلعت فيه ربقة العزاء والصبر * ولم أدر بايهما انا اشد سروراً ابالكتاب وهو ايسر واصل * ام بحامله وهو اجل حامل * فلان ولدي قد اقتطعت له من فراغي فلذة على انني لو درسته حتى تحفي الاقلام * ويفنى الكلام وتحصر الافهام والاوهام * ثم لقمته العلم لقمة * وسبكت له الادب فقرة * والهمته جوامع الكلم وافرغت في خاطره اداب العرب والعجم *

وخرجت له من حد الافهام * إلى حد الالهام * لكنت فيه عن قضاء حق من حقوق الفقيه قاصراً * ولكان وقوعي دون ادنى واجبه على ظاهراً * ولكن الاقرار عذر قوي * كما ان الانكار ذنب طوي * وقد كان هذا الولد اديباً مجملا * فصار بحمد الله تعالى اديباً مفصلا * وكان اغر فصار اغر محجلا * وارجو ان الله تعالى يحيي به مآثر سلفه الصالحين * ويعلي به منازل آبائه الاولين وان يكون اولهم علماً وادباً * وان كان آخرهم ميلاداً ونسباً *

* * *

« وله الى خلف بن احمد » :

ورد كتاب الامير متضمناً المواعظ التي تفلق الصخر * والحكم التي تشرح الصدر * يأمرني فيه التأدب بادب الله تعالى والتنجز لموعوده ويشير علي بأن اتدرع درعاً من التماسك * ترد عني داعية التهالك * وفهمته ولعمري ان الرزيئة بفلان رحمه الله تعالى وان كانت عظيمة تنسى العظائم * وتوهي العزائم * فان عظة الامير مما يهون الخطب * ويكشف الكرب * ويداوي القلب ولقد ضربني الزمان بحد حسامه * ورماني بانفذ سهامه * فان اجر على سبيلي الاولى في الجزع * وادرع داعية الوجد والهلع * فلعظم خطب الرزية * ولثقل وطأة البلية * ونفوذ السهام النبلية * ولئن استسلمت للقضاء * واستقبلت قبلة الصبر والعزاء * فلبلاغة العظة * وللزوم الحجة * ولما وفق الامير له من مداواة القرحة * ورد ضالة السلوة * على أني اوثر الآخرة على الاولى * واحمل التأسي على الاسى لاكتسب بذلك من رضى الله تعالى في الاجل ذخراً * ومن طاعة الامير في العاجل فخراً * فاكون قد نسقت بين الطاعتين *

واستوجبت بهما الثواب في الدارين * ولاكون قد اصبت بمصيبة احاط بها اجران * وابتليت بعسر اكتنفه يسران * فاذا المحنة فراداً * وإذا النعمة مثنى * والله تعالى يرحم الماضي رحمة تضيء قبره * وتحط وزره * وتضاعف اجره * وتلحقه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى لم له وعترته * وبمواليه وشيعته * ليرتع معه في روضه * ويشرب بيده من حوضه * وليحشر في اعلام اهل دينه * ويعطي كتابه بيمينه * ويطيل عمر الامير حتى تصير خدمه من ابنائه * ويعز نصره حتى يكون خدمه وحشمه من اولاد اعدائه * ان رأى الامير في هذه المخاطبة لفظة ينبو عن قبولها طبعه * ويتجافى عن استماعها سمعه * صرف ذلك إلى دهش الروعة * وشغل القلب بالفجعة * على أنا ان اصبنا فبدولته * وان اخطأنا فلهيبته *

* * *

«وكتب الى أبي قاسم بن ابي الفرج كاتب ركن الدولة لما عزل» :

أنا اهنىء الدنيا يوم عزلك * كما كنت عزيتها يوم ولايتك * فلئن عد اقبالك في مثالبها * لقد ذكر ادبارك في مناقبها * ولئن كانت عوتبت يوم رفعتك * لقد اعتبت يوم وضعتك * وانت والله الجليل يسر بفراقه * والخليل هنيء بطلاقه * ولقد كان معرض النعمة قبيحاً عليك * مستغيثاً من يديك * كأنك أبا القاسم لم تتول الا لتصديق الاول :

وكل ولايـــة لا بد يوماً مغيرة الصديق عـــلى الصديق

ولم تعزل الا لتترجم عن قول الآخر :

ستعزل ان عزلت ولا يســاوي صنيعك في صديقك نصف فلس

لا بل كأنك ما قلدت الا ليشتد غيظ الاحرار * ويقوي طمع الأشرار * ولتصل زيادة في ذنوب الايام إلى الكرام * وحجة عليها للئام ولقد خالفت قول الحجاف :

نحن الذين إذا علوا لم يفخروا يوم الهياج وان علوا لم يضجروا

فلقد ظفرت فلم تضبط نفسك نشاطاً * ونكبت فلم تملك استك ضراطاً * فضقت عن احتمال الفرحة * كما عجزت عن احتمال الترحة * فلم توجد يوم سعدك شاكراً * ولا يوم نحسك صابراً * فالحمد لله الذي جعل امسك لنا عبرة ويومك لنا نعمة * ولا عدمنا فلكا دار بردك إلى قيمتك * وصير حالتك في وزان آلتك * فلا زلت بعدها غضيض الطرف * راغم الانف * صديقك يرحمك * وعدوك يظلمك ويتهضمك * اقرب الناس اليك * اكثرهم بكاء عليك * وادناهم منك * اشدهم هرباً عنك * والسلام على من قال آمين .

* * *

«وكتب الى أبي علي البلعمي بعد ابيات استبطأ جوابها»:

قد حملت إلى حضرة الشيخ ابياتاً عاتبته بها * بل اعتبته فيها * وهي عروس كسوتها القوافي * وحليتها المعاني * ولعمري لقد زففتها إلى كفوء كريم * وعرضتها من كرمه على قيم عظيم * فان كانت حظيت ورضيت فبالرفاء والبنين * مائة سنة على مئين * وان كانت الاخرى فقد يصبر الكريم على من لا يحبه * ولا يميل اليه قلبه * والعاقل إذا ابغض انصف * وإذا احب الطف * وعلى كل حال ان وجد الشيخ حرة فليسق إلى مهرها * وان لم تكن حرة فليوفر على خدرها * وليعلم انني غريمه فيها * وخصمه عنها * والسلام .

* * *

«وكتب الى تلميذ له من فقهاء نيسابور لما هرب من محمد بن ابراهيم»:

قد كنت أيها الفقيه عزمت ان اواتر عليك كتبي * وانبئك فيها بخبري * وافضي اليك بعجزي وبجري * وأستأمنك في جل احوالي ودقها * وفي باطل اشغالي وحقها * ولكني عورضت من المحن بما لم يترك لي قلباً يعقل * ولابناناً يعمل * واقل ما لحقني غضب الامير علي وهذه حالة يفقد بها العقل * ويشيب لها الطفل * ويتوقع معها الموت بل القتل * ولقد نشبت بين اظفار الخوف * وعقلت بحبالة الحنف * فلا انا لما ورئي آمن * ولا لما امامي آمل وما كنت احسب أني أنظر إلى قبري * قبل انقضاء عمري * ولا أني ارى شخص ملك الموت في حياتي * قبل ان يجيء وقت وفاتي * ولعمري لقد رأى الحاسد ما كفاه وشفاه * واضحكه مني مثل ما ابكاه * فلئن كان وشى بي الواشي لقد ابلغ * ولئن كان قد تعنى في افناء اجلي لقد افرغ * ولقد كنت ارجو ان يسعني ما يسع الاحمر والاسود * ويشملني ما شمل الادنى والابعد * ولقد اعتذرت فان عذرت * فاليوم قبرت ثم نشرت * وان تكن الاخرى فهذه غدرة الا تكن نفعت * فان صاحبها قد تاه في البلد فالى اين المهرب من الفلك الدوار * ومن القدر الجبار * ومن خطر الليل الذي هو مدركي * وان خلت ان المنتأي عنه واسع * ومن المجير من رجل الانام داخل تحت ملكه * والايام منخرطة في سلكه * وهل الهارب من المجدود الا كالهارب اليه * وهل الصادر عنه الا كالوارد عليه ومن ذا يزاحم ركن الزمان * ومن ذا يبيت على وساد الثعبان * ومن ذا يرجو الدواء والموت داؤه * ويثق بالاصدقاء والايام اعداؤه * فلان قد احس المحضر * وحارب عني القضاء والقدر * وليس الكرم عن مثله ببديع ولا الجميل من اهل بيته بنزيع * فانما يجري على عرق جاذب * ويعمل على

قياس واجب * واني لاتلهف عليه تلهف آدم على الجنة * واحبه حب الصحابة للسنة * واشتاق اليه شوقه إلى وجه سؤاله * واعشقه عشقه لبذل نواله * والسلام.

* * *

«وكتب الى ابي علي البلعمي لما بلغ منه عتبه وخرج توقيعه بالتقريع واللوم»:

ذكر الشيخ أني تنقلت بعرضه المصون * وتمندلت بقدره المكنون المخزون * وقد كنت أحسب الشيخ امنع على السعاة جانباً من ان يقرعوا صفاة حلمه * ويخترقوا بأباطيلهم طريق عزمه وحزمه * ولقد هدم على الوشاة * حصناً كنت اعددته * وحلوا عقداً وثيقاً كنت عقدته * وسلبوني علقاً نفيساً اشتريته بنفسي لا بمالي * وحاربوني بعدة كنت احسبها انها لي * ولقد كنت ارى البعيد به قريباً مني واسرى في الظلماء بضوء رضاه عني *

فمن لي بالعين التي كنت مـــرة إلى بها في سالف الدهر تنظر

وها أنا هارب من نفسي فانها ان غضب الشيخ علي * كانت اقرب اعدائي إلي * ومتهم لاعضائي فانها عيونه وجواسيسه لدي * ومن عاداه الشيخ حاربته نفسه * وزحف اليه نحسه * وصار خير يومه امسه .

ولا وساد على سم الاساود لي ولا قرار على زأر من الاسد

لعن الله من يفسد ذات البين * ويسعى بالنميمة بين المحبين * فلقد حارب بسلاح كليل ألا أنه قطع * وضرب بعضد واهية الا أنه اوجع * وانما التمائم من سلاح النساء * ومن حصون الضعفاء .

* * *

«وكتب اليه لما طال عتابه وكثرت رقاعه اليه :»

او بغير المـــاء حلقي شرقـــا كنت كالغصان بالماء اعتصاري

كيف يقدر ابقى الله الشيخ على الدواء * من لا يهتدي إلى وجه الداء * وكيف يداري اعداءه من لا يعرف الاصدقاء من الاعداء * وكيف يعالج علة القرحة العمياء * ام كيف يسري بلا دليل في الظلماء * ام يخرج الهارب من بين الارض والسماء * الكريم ايـــد الله تعالى الشيخ إذا قدر غفر وإذا اوثق اطلق * وإذا اسر اعتق * ولقد هربت من الشيخ اليه * وتسلحت بعفوه عليه * والقيت ربقة حياتي ومماتي بيديه * فليذقني حلاوة رضاه عني * كما اذاقني مرارة انتقامه مني * ولتلح على حالي غرة عفوه * كما لاحت عليها مواسب غضبه وسطوه * وليعلم ان الحر * كريم الظفر * إذا نال اقال * وان العبد لئيم الظفر إذا نال استطال * وليغتم التجاوز عن عثرات الاحرار * ولينتهز فرص الاقدار * وليحمد الله تعالى الذي اقامه مقام من يرجى ويخشى * وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتى * واخلق العالم وذكرها طري * فجعله في الميـــلاد كريمها وسليلها * وفي الرتبة قدوتها وجليلها * وليعتقد انه قد هابه من استتر * ولم يذنب اليه من اعتذر * وان من رد عليه عذره فقد خرج إلى الشجاعـــة بعد الجبن * واخرج ذنبه إلى صحن اليقين من ستره الظن * وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب اوليائه * وعصمه بما يزيد به في جماجم اعدائه * وليس بين الموالاة والمعاداة الالقية بشعة * او لفظه قذعه *

* * *

«وكتب الى ابن سمكة القمي وقد اهدى اليه مع كتابه هدية»:

لما وردت الناحية تسالبوني تسالب الطرفة * وتهادوني تهادي السمامة ووزنوني بمعيار الامتحان * واجروني في ميدان الرجحان والنقصان * فوجدوني بحمد الله تعالى جواداً يجري ما وجد مذهباً * وهزوا سيفاً يقطع ما صادف مضرباً * ولقد عاينوا رجلا هون عليهم من قبله * وبغض اليهم من بعده * واجلت الغبرة عن المزور وهو حامد * وعن الزائر وهو شاكر * حملت إلى سيدي كذا غير طامع في قضاء حق من حقوقه علي * ولا شق غبار حسنة من حسناته لدي ولو اهديت اليه تاج كسرى * وخراج الدنيا * وخاتم سليمان * وذخيرة الهرمزان * وصدقة البصرة * وجوهر الشمسرة * وكسوة الكعبة * مع الدرة اليتيمة * مع جواهر الخلافة * نعم ولو اتحفته بمال قارون الاسرائيلي * وكنز النطف بن حير التميمي * وملك عمرو بن حريث المخزومي * ولو كسوته البردة النبوية * واعطيته الشطرنج الكسروية * ولو غرست شجرة طوبى في داره * واجريت نهر الكوثر على بابه * وجعلت ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد في قبضته * ولو قلت فيه ما قال حسان بن ثابت في آل جفنة * ومدحته بما مدح به زهير هرم بن سنان بن أبي حارثة * وشهدت له بما شهدت به الخنساء لاخويها صخر ومعوية * وصنفت فيه ما صنفه الجاحظ في محاسن احمد بن ابي داود الايادي * واغرقت اغراق الامامية في المهدي * وفضلته تفضيل الشيعة للوصي عليه السلام واعتقدت فيه اعتقاد النصارى في المسيح اولا * واعتقاد المانوية في ماني ثانياً * وانقطعت اليه انقطاع الاخطل إلى بني مروان * واعتذرت اليه في تقصيري عن مدحته اعتذار النابغة إلى النعمان * ثم لم أدع بيتاً نادراً * ولا مثلا سائراً * الا جعلته سلكاً انظم به محاسنه * وقيداً اقيد به مناقبه * حتى افنى في ذلك بياض سمرقند واحفى اقلام مصر وواسط

واشغل فيه وراقي الكوفة وكتاب السواد فانهم منبع هذه الصنعة * ومعدن هذه الحرفة * لا بل لو تجردت لمدحه تجرد السيف الحميري للطالبين * وتجرد هروان بن أبي حفصة للعباسيين * واتعبت في ذلك الكرام الكاتبين * حتى تركتهم محسودين لاعبين * لما كنت الا مقصراً ولكني إذا قررت عذري * واقررت بتقصير سيري * وقصور قدري * فقد جاوزت عقب الاستزادة وسيدي اعلم بخفايا عقدي * واعرف بحاله عندي * والسلام .

* * *

«وكتب الى تلميذ له لما تخلص من يد محمد بن ابراهيم» :

كتابي وقد خرجت من البلاء * خروج السيفي من الجلاء * وبروز البدر من الظلماء * وقد فارقتني المحنة وهي مفارق لا يشتاق اليه * وودعتني وعي مودع لا يبكي عليه * والحمد لله تعالى على محنة يجليها * ونعمة ينيلها ويوليها * كنت اتوقع امس كتاب الشيخ بالتسلية * واليوم بالتهنئة * فلم يكاتبني في ايام البرحاء بانها غمته * ولا في ايام الرخاء بانها سرته * وقد اعتذرت عنه إلى نفسي * وجادلت عنه قلبي * فقلت اما اخلاله بالاولى فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها * واما تغافله عن الاخرى * فلانه احب ان يوفر على مرتبة السابق إلى الابتداء * ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء * لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة * ومحتوفة من كل رتبة * فان كنت احسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الاحسان * وليكتب إلي بالاستحسان وان كنت اسأت فليخبرني بعذره * فانه اعرف مني بسره * وليرض مني باني حاربت عنه قلبي * واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي * وقلت يا نفس اعذري اخاك *

وخذي منه ما أعطاك * فمع اليوم غد * والعود احمد *

* * *

« وكتب الى احمد بن شبيب » :

ورد كتاب صاحب الجيش مكتوباً بيد خلقت للسيف والقلم * بل خلقت لبذل الدينار والدرهم * بل خلقت لامساك العنان والعلم * بل خلقت للنعم والنقم * بل خلقت لجميع آداب العرب والعجم * فرويته لما رأيته * وحفظته لما لحظته * ولو انصفته لجعلت الفلك صحيفته * والدهر راويته * ولما اجلت فكري فيه * واحطت علماً بمعانيه * ورتعت بطرفي وخاطري في مقاطعه ومباديه * وتفكرت في رتبة صاحب الجيش في الرتب * وفي رتبة كتابه في الكتب * انشدت :

ولما رأيت الناس دون محلـــه تيقنت ان الناس للناس ناقد

ولو انصفت هذا الكتاب لما فرغت منه * إلى الجواب عنه * ولكن بعض الاجوبة خدمه * كما ان بعض الابتداءات نعمه *

* * *

« وكتب اليه لما خرج من حبس محمد بن ابراهيم : »

كتبت ايد الله صاحب الجيش وقد خرجت من تلك الاهوال * خروج المشرفي من الصقال * لا بل خروج البدر من خلل السحاب * وحالي الآن بين

الرجا والقناعة متماسكة والحمد لله * وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله * وعلى آله صفوة الله * وصل كتاب صاحب الجيش وافادني من خبر سلامته ما غفرت له ذنوب الايام إلي * وجناياته علي * وفهمته فوجدت صاحب الجيش في غضبه علي * رقيق صفحة الاحتمال * قريب غور الصفح والاجمال * مضايقاً من حيث تتوسع الكرام * مخالفاً لما توجبه الاحلام * يفطن للذنب الخفي ويتغاضى عن العذر الجلي * لا ينزل في المكافأة إلا على حكم الاعداء * ولا يستقبل بالمعاملة إلا قبلة الاستيفاء * ولا يعلم ان للعبيد على الموالي ذمة وان كان عليهم حق * وان للمماليك من طريق العشرة احرار وان لزمهم رق * هذه حالة المملوك فكيف بالحر الذي يأخذ مثل ما اعطى * ويستوفي على قدر ما اوفي * واما انا فانما ادللت على صاحب الجيش لاطرق له على إلى الاحتمال * ولا وفر له نصيبه من الفضل والادلال * على انه يحمل التواضع على الكبر * ويميل مع المحاباة على القدر * فاذا اخذ بنا في طريق المؤاخذة * وعاشرنا على المكايلة والموازنة * فماله عندي الا السكوت حتى يرضى * والسكوت بعد الرضى حتى يرضى الدهر فاني اظن ان الدهر لا يرضى عن ذلي إلا بقتلي * ولا يتوفر من اعناتي * إلا عند وفاتي * وهلا حاربني الدهر بسلاح غير صاحب الجيش فيعلم كيف قراعي للاقران * وكيف صبري عند الضراب والطعان * ولقد رماني الادبار بسهم على أني لم البس له جنة * ولم اعد لوقعه عدة * فاني والله لست بالصبور على مس العتاب * ولا بالقلب على وحشة الاحباب * ولاني لست على هجرك جلد القوي ولا على عتبك شاكي السلاح ومن غرائب القضاء * ونوادر اخبار السماء * اني ما قرأت لصاحب الجيش كتاباً اطول من هذا طولا * ولا أضفى منه ذيولا * فليت شعري لم طول هذا التطويل * وجاء بهذا الكلام العريض الطويل * إلا أنه لم يشف قلبه الا بلوغ النهاية في الشكاية ام لانه

ما وضعني تحت القلم الا درت على اخلاف كتابته * وانهارت قوافي اجراف خطابته * أم لأنه أراد أن يعرفني أنه طويل امد العربدة * مديد نفس المذمة والمحمدة * إذا شاء قال * وإذا قال اطال * وإذا غضب كان عقابه جليلا * وإذا رضي كان ثوابه جزيلاً * ولم يبق لي الآن شيء اعلل به قلبي العليل * واداوي به همي الدخيل * الا فرحي بما اسمعه من خبر سلامته في نفسه نفس الله تعالى مدتها * وفي اسبابها حرس الله تعالى جنبتها * ولقد رضيت بالقليل ونزلت على الربح الطفيف ولكن كل اللباس يلبس العريان * وكل الطعام يأكل الغرثان * واستغفر الله ليس لي سلامة صاحب الجيش بالطفيف * ولا تؤذن الموهبة فيه بالخفيف * ولكن خوفي غضبه قد حيرني حتى سلبني عقلي * وحتى صيرني لا أملك قياد قولي * وما اعتذر من هيبتي في مثل هذا المقام الهائل * ولا الام على دهشتي لهذا الخطب النازل * والشجاعة في غير مكانها خرق * والجلادة على ما لا يقتضي الحال حمق *

* * *

« وكتب الى كاتب خوارزمشاه وقد تخلص من المصادرة يشتكي اليه وزير صاحبه »:

قرأت كتاب الشيخ فكاد سروري بسلامته * لا يفي بندامتي على مفارقته * وذكر الشيخ ما فتحه الله تعالى عليه من ابواب المنن * واغلقه عليه من ابواب المحن * فسبحان من اذا اغلق بابا * فتح ابواباً * وإذا قطع سبباً اوصل اسباباً * واذا بخل عباده فخزائنه مفتوحة * وإذا قبضوا ايديهم بالرزق فيده مبسوطة *

وانا إلى الشيخ مشتاق شوقاً لو قسم على القلوب لملأها صبوة * ولم يدع فيها سلوة * وما اشكر نفسي على ان تشتاق إلى من لا ترى منه بديلا * ولا تجد إلى السلو عنه سبيلاً * ويحسب الشيخ ان طرفي بطرفه معقود * وان باب نسيانه وتناسيه على مسدود * واني ان اصدرت كتابي اليه بالسلامة مع ان قلبي غير سليم من الالم * ولا صحيح من الوان السقم * فانما اريد بذلك التفاؤل للكتاب * واتباع رسوم الكتاب * فلان قد بلغني اطنابه في ذكري * وتفضيله لي على ابناء عصري * وهذا سلف اسلفنيه * وانا بمعونة الله تعالى اؤديه * وما ازن نفسي بالضجة التي بها يزنني * ولا أزينها بالفضل الذي به يزينني * فان كان كما قال فلعل الفضل دب إلي * وخرج من الكمين علي * لاني عاشرته فاعداني فضلا * وهذبني قولا وفعلا * وانا في ذلك جنيبته ان قبلني جنيبه * وخليفته ن قبلني خليفه * ولقد اغرب ذلك الحر على اهل دهره * وخالف طريقة غيره * حين ذكرنا ونحن اصدقاء العسرة * واخوان الفترة * فلم يغيره السلطان ولم يطغه الشيطان * ولقد شهد له وحده بانه كريم * ومن اللؤم واللوم سليم * على قضية قول أبي تمام :

وان أولى البرايا ان تؤاسيه   عند السرور لمن آساك في الحزن
ان الكراماذا ما اسهلوا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

وشهادة أبي تمام في الكرم * تقوم مقام شهادة امة بل امم * ولئن كان خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين عند الانبياء والحكام * فان ابا تمام ذو الشهادتين عند الاحرار والكرام * ولي على ذلك الولد حق الابوة * كما ان له على حق البنوة * والآباء ابوان ابو ولادة * وابو افادة * فالاول سبب الحياة الجسمانية والآخر سبب الحياة الروحانية * والسلام .

* * *

«وله الى وزير خوارزمشاه لما نكب» :

قد امتدت مدة هذا البلاء * واوهمتنا ان الدار دار البقاء * لا دار الفناء * وصار الخطب فيها سبباً من اسباب سوء الظن بالانام * وداعية إلى قلة الاستنامة إلى الايام * ونصرة لفعال اللئام على الكرام * ولقد عجبت من ذلك الامير كيف استبدل العبيد بالاحرار * وكيف تحول من ظهر الفرس إلى ظهر الحمار * كأنه لم يسمع في الخبر * بدل الاعور * اريد بذلك قول الشاعر :

افنيت مذ قلنا غداة اتيتنا   بدل لعمرك من يزيد الاعور

ولما سمعت ايد الله الشيخ بهذه النادرة التي تضحك الثكلى * وتترك العقول حيرى * قلت لا إله إلا الله وما اعرف لها فائدة إلا أنها انطقت الناس بالتوحيد * وان كان على وجه التعجب لا على وجه التهليل والتحميد * اللهم اجعلنا ممن يتعجب إذا رأى العجائب * ويتغرب إذا سمع الغرائب * فانه إذا كثر العجب زال التعجب كما قيل :

على انها الايام قد صرن كلها   عجائب حتى ليس فيها عجائب

فاما الآن فقد كان ما كان فاني أرى للشيخ ان يلبس للدهر ثوباً من الصبر ثخيناً * ويولي حوادثه ركناً من التماسك ركيناً * وان تجده الايام حراً * وان تصفيه الحوادث إذا اذاقته مراً * وان يداري مع ذلك سلطانه * ويصغر بلسانه اساءته * ويكبر احشاءه ويروض لسانه في الخلق على شكره * لئلا يجمح به في الجلوة إلى غيره * فانما ايام المحنة موج من تطأطأ له تخطاه * ومن وقف على طريقه ارداه * ومن قابل ايام الادبار بوجهه صدمته * ومن قاتل عساكر الاقبال في ايام كرهاً هزمته * ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيراً * ومن

حاسب على قليل من العتب لقي كسيراً * وافة الناصح آلته * وعيب الكامل في وقت المحنة دالته * لانه يطالب بثمن نصيحته * ويدل على صاحبه بكفايته * ويعتقد ان طول الخدمة * آكد حرمة * وان تأكد الحرمة عنده قرابة ولحمة * ولعمري ان ذلك كذلك ولكن الغضب ينسى الحرمات * ويدفن الحسنات * ويخلق للبري جنايات :

وان امير المؤمنين وفعلــه   لكا لدهر لا عار بما فعل الدهر

* * *

«وكتب الى ابي محمد العلوي» :

لولا أني لا أحب ان افتتح كتابي إلى السيد بعتاب * وان اكلفه إلى تكلف حجة وجواب * لوجد سهامي في الملام مسددة * وسيوفي في التقريع محددة * وعلم اني إذا ضربت بلساني لم تقم ضريبتي * واذا رميت لم تنجح رميتي * ورد كتاب الشريف ايده الله تعالى وهو الكتاب الشريف كاتباً * السعيد حاملا * المغبوط ناسخاً * المحسود راوياً * وفيه الكلام الذي لا يبليه الزمان * ولا تمجه الآذان * وقد افرد السيد فيه كل واحد من اوليائه وشيعته بلطف وتناوله من البر والتحفي بطرف غيري وما كنت اعلم أني سكيت الحلبة * ولا أني ساقة الكتيبة * ولا أن اسمي آخر الجريدة * ولعمري ان شيعة السيد لكبار ولكني لا اصغر عنهم وانهم لكثير ولكن مثلي لا يضيع فيهم واعوذ بالله تعالى من الكساد * فانه اخو الفساد * واستجيره من اكون محباً غير محبوب فان المحبة شجرة لا تثمر إلا على عرقين * وسقف لا يبقى إلا على عمادين *وصفقة

لا تتم إلا ببيعتين * وان قوماً انا صغيرهم لكبار * وان امة ابو ذر شرها لخيار * خرج السيد فخبا نجم العلم وافلت شمس الادب وانهدم ركن السحاب وفل سيف العطاء وغارت عين الاريحية * وانثلم جانب الانسانية * وانهزمت عساكر الكرم * واغبر وجه السيف والقلم * ونضب ماء الحياء * وركدت ريح البهاء * وخرب بنيان العقل * وتضعضع جبل التوحيد والعدل * واخلقت ثياب الافاضل والفضل * وتهافت نظم القول والفعل * ودك جبل السخاء والبذل * وانشد كل من وجد من فقده * ونظر إلى ثكل المكارم من بعده * ما حال من كان له واحد * يؤخذ منه ذلك الواحد * وانا من بين الجماعة كالواله الثكلى * وكالفاقد الحرى * اقلب طرفي لا ارى من احبه * وفي الدار ممن لا أحب كثير * إذا نظرت إلى عرصات المكارم والمجد خاليه * وإلى ربوع الفضل عافيه * وإلى سدة الشرف وقد خلا جنابها * واصطفقت ابوابها * انشدت :

وأصبح بطن مكة مقشعراً ... كأن الارض ليس بها هشام

وقد رحل السيد إلى حضرة رجل هو للكرام انشى نفساً * وللفضل امثل شخصاً * إذا ناظره العربي صار اعجمياً * وإذا ناظره الاعجمي صار عربياً * وإذا رآه المعجب بنفسه طاق كبره * وفارق فخره * فهو رفيق الجود وخليله * وزميل الكرم ونزيله * وغرة الدهر وتحجيله * حضرته حضرة الآجال والاموال لا بل حضرة الاقوال والافعال * لا بل حضرة الرجال والكمال * تنصب اليها مواد الرغبات * وتنشد فيها خيول الطلبات * من تأمله علم ان الله تعالى فرق المحاسن على أهل كل زمان * وجمعها في زماننا هذا في انسان * فسبحان من إذا شاء خص بعض عباده بالفضل * ورفع بعض بلاده على بعض بالاهل * من غير ان يكون ظلم احداً أو حابى احداً وصف عراقي خراسان فقال :

نسوانها كرجالنا * ورجالها كجبالنا * ورأيت انا اصفهان فقلت : صبيها كرجلنا * ورجلها ككهلنا * وكهلها كشيخنا * وشيخها كنبينا * ولم لا تخرج اهل تلك البلدة في قالب الكمال * ولا يستوفون شرائط الرجال * ولا ينظمون في طرفي القول والفعال * وهم يرون كل يوم وارداً * ويشهدون وافداً * ويسمعون نغمه * ويطالعون نعمه * لأن فيهم مثابة الجود * وقرارة الوفود * وكعبة الآمال * ومحط رحال الرجال * وهم يلتقون على باب الوزير مع كل كاتب وحاسب * ويجلسون في سدته مع كل ناثر وشاعر * ولا يعدمهم ان ينظروا إلى ذي صناعة معاشية او معادية * وإلى ذي آلة رياضية او عقلية * فترق السنتهم وتصفو اذهانهم * وتتنزه ابصارهم * وتدق افكارهم * لاقتباسهم علم كل مكان * واستماعهم تبيان كل لسان * ولترددهم بين اللغات المختلفة * وبين الاخلاق المتمايزة * فهم يبصرون ويستبصرون * ويرون فيروون * ويسمعون فيحفظون * واين بهم عن ذلك وهم يترددون في مغيض العلم والادب * وينزلون في موسم العجم والعرب * وهذا الى ما يسمعونه من كلام الوزير الذي لو سمعته الوحش لأنست * ولو خوطبت به الخرس لنطقت * او استدعيت به الطير لنزلت * ومن جالس صاحب صناعة حذقها *

ومن طال استماعه الحكم نطقها ونعم المعلم الجوار * ونعم الرسول الاسماع والابصار * كتاب كذا يجب ان يجعل المنع منه صوانه * والعين بل القلب مكانه * فان الغيرة على الكتب من المكارم * لا بل هي اخت الغيرة على المحارم * والبخل بالعلم على غير اهله * قضاء لحقه ومعرفة لفضله * واني لاحسد على الورقة من لا احسده على البدرة * وانافس في حرف او حرفين * ما لا أنافس في دينار أو الفين * واغار على الادب الكريم * من المتأدب اللئيم :

وارثي له من موقف السوء عنده   كمرثيتي للطرف والعلج راكبه

ولوددت لو ان يكون الادب في جبهة الاسد * ولو اصبحت الدفاتر في انياب الاساود ووددت لو ان كتب ورقة بدينار * او كتب دفتر بقنطار فلا يتأدب الاشجاع كمي * ولا يحرز الدفاتر إلا جواد سخي * طولت على السيد واكثرت * وهذيت فيما حررت واضجرت * ولسان المذر * ناطق بالضجر * والسلام .

* * *

«وكتب الى ابي العباس كاتب محمد بن ابراهيم وقد طلب منه نسخة رسائله» :

قد اسلفت الشيخ من شكري * ما اوجب عليه صلاح امري * والسفارة بيني وبين دهري * والسلف في الدراهم محظور مستقبح * وفي الشكر مباح مستملح * وحاجتي هذه من صغار الحوائج ولكن كرم الشيخ يسع جلائل الامور ودقائقها وكنت طويت مسألة الشيخ في أدراج المتاركة * ودخلت في باب المساكتة ثم ردني اليه * اني لم ار معبر الكرم إلا عليه * ولا أرى منبع الارزاق إلا من يديه * طلب الشيخ شيئاً من رسائلي فمرحباً بانجح طالب * واكرم خاطب * ومن سعادة الصهر كرم اختانه * ومن اقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر في ديوانه * ولو قدرت جعلت الورق من جلدي * بل من صحن خدي * والقلم من بناني * والمداد من اجفاني * ولامليت هذه النسخة على السفرة البررة ليكتبوه بيد العصمة * ويجلدوه في بيت الحكمة * بل لو علمت ان مثل الشيخ يطلبه * وان مثل يد الشيخ بسطها الله تعالى بالخيرات تكتبه * لحاسبت عليه قلبي ولساني ادق حساب * وطالبت شيطاني بتنقيحه وتهذيبه اشد طلاب

ولقلت لخاطري دقق طرزك * وجود بزك * فان المبتاع كريم * والثمن عظيم * وقد قيل الراوية احد الشاعرين * وانا اقول الراوية احد الشعرين .

* * *

«وكتب الى ابي الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل»:

كتابي عن سلامة لا اتهنأ بها إلا بسلامة الشيخ والحمد لله تعالى على سلامته * وعلى سلامتي في جملته * وصلى الله تعالى على سيدنا محمد النبي وعلى عترته * لما وردت هذه الناحية وجدت النجاح تقدمني اليها * وانتظرني لديها * فنزلت منه في اوسع منزل * وعلى اكرم منزل * اكرمني الشيخ نازلا * وشيعني راحلا * وقضى حقي عاجلا وآجلا * وفي الجملة ان الشيخ وجد امري ميتاً فأحياه * ورأى النجاح مني بعيداً فادناه * وصادف اقبالي مريضاً فداواه * ولقد اراحني الشيخ ببره * بل اتعبني بشكره * وفرغني بصادق قيامه * لا بل شغلني بتعديد احسانه وانعامه * وخفف ظهري من ثقل المحن * لا بل اثقله باعباء المنن * واحياني بتحقيق الرجاء * لا بل اماتني بفرط الحياء * فانا له بعد اليوم عتيق * واسير بل طليق * ومن انقذ انساناً من الفقر * وانتاشه من مخالب الدهر * وفكه من اسار العصر * فقد اعتقه من الرق الاكبر * ونجاه من الموت الاحمر * والرق رقان * رق الملك ورق الهوان * والاسر اسران * اسر العدو واسر الزمان * ولست ارضى لشكر السيد لساني ولا بناني * ولا استصلح لذكر مآثره وآثاره كلامي * فاني ولا كفران لله كليل شفرة الكلام * سليم وقع الاقلام * قصير رشاء اللسان * قريب غور البيان * ولكني استعين في ذلك بألسنة اصدقائي * واقلام معارفي واودائي * فنجتمع عليه * ونهدي ما نلفقه

بيننا اليه * لا زال الشيخ للاحرار عضداً * ولساناً ويداً * وعماداً معتمداً * ولا زالت الالسن عليه بالثناء ناطقة * والقلوب على مودته متطابقة * والشهادات بالفضل له متناسقة * ولا زالت اولياؤه مستدرين بافيائه * منيخين بافنائه وعفائه * مستعلين به على اعدائه * وجعلني الله فداه ان كنت اصلح لفدائه * واحسن عني جزآه إذ كان اوسع لجزائه * واطال بقاءه إذ كان بقاء المكارم في بقائه *

* * *

«وكتب الى ابي سعيد المتوفي بناحية محمد بن ابراهيم من هراة»:

وردت الناحية بعدما قاسيت السير والسرى * وخضت غمار المهالك والردى * ونظرت إلى الآخرة وانا في الدنيا واول ما مر بي سوء الدخول على ظهر الحمار ومعاشرة الحمار * على ان الحمار ايضاً حمار * إلا أنه قصير الاذنين * يمشي على رجلين * وكأني كنت بين حمارين * إلا أني كنت بين جنسين غير اني ادركت المراد * وحمدت المراد * وساعدني الزمان وما كاد * ومن تعلق بذيل المقبل اقبل * ومن جعل مثل الشيخ سلماً فقد وصل * فها انا ذا للشيخ صنيعه ولامره تابع وجنيبه وظيفتي * في الملأ شكره * وفي الخلاء ذكره * والسلام .

* * *

« وله اليه »

قضيت بهذه الناحية حاجتي * وعمرت بعد الخراب حالتي * إذ سرت اليها ممتطياً عنـــاية الشيخ بي * ومرافقـــاً نظره لي * ولولا سكون قلبي إلى حفظه

على ما ورائي * وقيامــه دوني في وجوه اعدائي * لما تقدمت إلا وقلبي متأخر ولا أقبلت إلى مقصدي إلا وعزمي متذبذب * فان القلب إذا اشتغل بما وراءه لم ينفذ رأيه فيما امامه * والرجل إذا قيدها عقال الوجل * لم تنطلق نحو مظنة الامل * فسبحان من ذخر لي كنزاً * ووهب لي من جانبه شرفاً وعزاً * وجعلني اطير بجناحيه * واتناول ما اريد من يديه * وإذا مات ملكي احياه * وإذا تبلد بختي امضاه * وإذا سخط علي دهري ارضاه * فلا جرم لقد ملكني ملكا لا تنحل عقدته * ولا تخاف عهدته * لا سلبني الله تعالى النعمة ببقائه * ولا نزع عني ثوب الجمال ببهائه *

* * *

«وكتب الى فقيه هراة بعد ان خرج منها عليلا» :

تأخرت كتبي عن حضرة الفقيه لشواغل كثيرة القلة صغراها * والعقلة وسطاها * والغيبة كبراها * وما لي عذر في واحدة منهن * ولا منهن كلهن * ولكن المحجوج بكل شيء ينطق * والغريق بكل حبل يتعلق * ولقد عققت الود * وظلمت العهد * ونصبت جنبي للملام * واستهدفت اسهام الكلام وكأني بعساكر العتاب وقد زحفت إلي * وحملت علي * والتقريع على مقدمته * والتوبيخ على ساقته * والهجر الصرف على مجنبته * فارقت تلك الناحية والحمي رفيقي وزميلي * والنافض عديلي ونزيلي * وقد ودعت الدنيا * وحصلت في مخالب أبي يحيى * حي اليأس والوسواس * ميت النفس والانفاس * لاتطاوعني يدي ورجلي * ولا يساعدني لساني وعقلي * ابعد شيء عني الحياة * واقرب

شيء إلى الوفاة * ولا أظن عمري الا حسوة طائر * او لفتة ناظر * ثم ساق الله تعالى إلى عافية اخرجت من الكمين * ولم تهجس لي في الظنون * فجاء اسمي من جريدة الموتى * ورجعت إلى الاولى من الاخرى * وعاش الامل * ومات الوجل * ولولا أني معتزلي لقلت تأخر الاجل * فالحمد لله تعالى الذي قرب الاجل ثم اخره * واورده حوض المنية ثم اصدره * لا بل اماته ثم انشره * وحقيق ان يشكر ربا إذا ابتلى عوض الاجر * وإذا غفر عرض للزيادة بالشكر * حمداً يتصل امداده * ولا يفنى اعداده * .

* * *

« وكتب الى تلميذ له ورد عليه كتابه بانه عليل » :

وصل كتابك يا سيدي فسرني نظري اليه * ثم غمني اطلاعي عليه * لما تضمنه من ذكر علتك * جعل الله تعالى اولها كفارة وآخرها عافية * ولا اعدمك على الاولى اجراً * وعلى الاخرى شكراً * وبودي لو قرب على متناول عيادتك * فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعض اعباء علتك * فلقد خصني من هذه العلة قسم كقسمك * ومرض قلبي لمرض جسمك * واظن اني لو لقيتك عليلا لانصرفت عنك وانا اعل منك فاني بحمد الله تعالى جلد على اوجاع اعضائي * غير جلد على اوجاع اصدقائي * ينبو عني سهم الدهر إذا رماني * وينفذ في إذا رمى اخواني * فاقرب سهامه مني * ابعد سهامه عني * كما ان ابعدها عني * اقربها مني * شفاك الله وعافاك * وكفاني فيك المحذور وكفاك * ورفع جنبك * وغفر ذنبك * وشرح قلبك * واعلى كعبك *

* * *

«وكتب اليه وقد ورد كتابه بافاقته وحمل اليه تفاحاً» :

وصل التفاح في طيب نشرك * وحلاوة نظمك ونثرك * وحسن ذكرك * وكان اعبق من كل طيب غير خلقك * واحسن من كل حسن غير خلقك * وعدتني سرعة انكفائك * وذكرت افراقك من دائك * فما ادرى على اي الخبرين كان شكري لله تعالى اكثر عدداً * واكثف مدداً * وباية البشارتين كانت نفسي اسر * وعيني اقر * صدق الله هذه البشرى * واتم عليك هذه النعمى * وها انا قد مددت إلى الطريق عيني * واخذت اعد الخطى بينك وبيني * أحسب كل انسان رسولا * وكل شخص كتاباً إلي محمولا * فجعل الله تعالى انحافنا بنفسك * ولا أحرمنا حظنا من انسك *

* * *

«وكتب الى كاتب من كتاب الحضرة» :

تأخر عني كتاب شيخي حتى نسيت ايام المراسلة * وصرت ارى في المنام اوقات المكاتبة والمواصلة * وحتى ظننت ان الاقلام قد حفيت * وان القراطيس قد فنيت * وان الكتابة قد نسيت * وان المطالعة والمفاوضة قد طويت * وان المداد قد صار في جبهة الاسد * او يجلب من السويس الابعد * وان الدواة قد اصبحت تامية * وان الدولة قد عادت اعجمية * ثم راجعت فناظرت نفسي * فوجدت الذنب مقسوماً بينه وبيني * فتحملت حصته منه * وانفردت بجميعه عنه * وذلك أني خرجت وسافرت هذه السفرة * فوقعت في الحال فترة * والغائب ملقى وملقى * ومنسي او متناسى * فلان كان افقر من الانبياء

فان فقراءهم اكثر من الاغنياء * وأعرى من الحية * وانقى كيساً من الراحة * يده صفر * ومنزله قفر * وغدآوه الخوى * وعشاؤه الطوى * ووطاؤه الارض * وغطاؤه السماء * وادامه التشهي * وطعامه التمني * وراحته زوجته * ورجله مطيته * لا يرى الدرهم إلا في المنام * ولا يحس الدينار إلا بالاوهام * ولا يشع إلا في اضغاث احلام * بابه مجلس الغرماء * وذيله متعلق الخصماء * قد ضرب عليه الخذلان رواقاً * وبنى فوقه الادبار طاقا * ونشز عليه الرزق * وحرمه الخالق والخلق * واسع المنى * ضيق الغنى * افرغ داراً من فؤاد أم موسى عليه السلام لو مرت به الريح لاخذ منها * ولو زار الذباب لطمع فيها * خصيب العين * جديب البطن * لان العين تشبع بنظاره * ولا يشع البطن الا عن حقيقه * كأن الارزاق قسمت ورزقه غائب * وكأن البخوت وضعت وبخته هارب * وكأن الفلك يعاديه * والدهر يناويه * وكأنه اثكل الرزق ولداً * او كسر له رجلا ويداً * فعمدت اليه فجبرت كسره * وطردت عنه فقره * وحاربت دهره * وزففته زف الهدى إلى منى * وعللته تعليل الصبي بالمنى * ورأيت حاله قد انحرفت انحرافاً لا يتدارك * وانحلت انحلالا لا يتماسك * فلم ازل ارفو خرقها * وارتق فتقها * واجلو عنها صدأ للادبار * واغسل عن اطرافها وضر العسر والاقتار * فماهو الا انرأى بيده الدرهم والدينار * وطوى مراحل العسر إلى اليسار * حتى نسي نفسه * وجحد أمسه * وتطاول بيد قصيره * وتعظم بنفس حقيرة * وقلب على مجن غادر * وصافح نعمتي عليه بيد كافر * وقبح لقاءه لي وكان حسناً * وخشن مسه على وكان ليناً * فلما رأيت سوء جواره لنعمة الله تعالى وتركه التأدب بادب الله تبارك وجهله حق رزق الله تقدس رددته إلى قيمته * وجعلت نقمته في وزن نعمته * ونزعت عنه قميص عافية اساء لبسه واستعماله * ولم يعرف له بهاءه وجماله * وتعلقت بذيل ذلك المال

وقد كاد يفوت * ورددت اليه روحه وقد ابتدأ يموت * فمن رآني فليتهم على الدهر يديه * وليوكل به عينيه * وليجعل وكيله نفسه * وقهرمانه كيسه * وشريكه فعله * وحارسه عقله * وخادمه خاتمه * وصديقه صناديقه * وليعلم ان درهمه إذا فارقه يرجع اليه * واذا صالح يد غيره لم يصالح يديه * وإذا اعطى اباه او اخاه فقد زاد في عدد اعدائه * كما نقص من عدد اصدقائه * ومن اراد ان يشتري الاعداء بماله * وان يحارب يمينه بشماله * فليخالف طريقي * ولا يقبل نصيحتي *

* * *

«وكتب الى صاحب ديوان الحضرة»:

كتابي إلى الشيخ من الديوان * وانا فيه ملتحف بالحرمان * مشتمل بالذل والهوان * قاعد بين النقصان والخسران * عن يميني مستخرجان * وعن يساري وكيلان * والحمد لله على تصاريف الدهر واحواله * وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله * قد احفيت قلمي ويدي في كتبي إلى الشيخ اخطب نظره لي * وانشد ما اضللته من عنايته بي * فلم يعطف علي عطفه * ولم يشغل بجانبي طرفه * وإذا ادباري مصمت لا يسمع الدعوى * ولا يقبل الرقى * وما اشكو إلا نحسي * ولا اهجو إلا نفسي * وما خصمي غير حرماني * ولا قرني إلا زماني * ورد علينا فلان * ونحن نيام نوم الامنة * وسكارى سكر الثروة * ومتكئون على فراش العدل والنصفة * فما زال يفتح علينا ابواب المظالم * ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدراهم * ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السنور في الغار * ولا يستخيرها المسلمون في الكفار * حتى افتقر الاغنياء * وانكشف الفقراء * وحتى ترك الدهقان ضيعته * وجحد صاحب

الغلة غلته * وحتى اخرب البلاد * بل اخرب العباد * وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا * وحبب الفقر إلى أهل الغنى * وحتى نشف الزرع والضرع * واهلك الحرث والنسل * وحتى لقب بالجراد * وكني ابا الفساد * وصار الدرهم في ايامه * اقل من الصدق في كلامه * وصار الامن في اعماله * اعز من السداد في افعاله * فليته إذ اوحش الرجال * حصل المال * وليته إذ ضيع المال * ارضى الرجال * ولكنه حرم الاثنين * فافلس من الجهتين * والله ما الذئب في الغنم بالقياس اليه إلا من المصلحين * ولا السوس في الخز في الصيف عنده إلا من المحسنين * ولا الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق الا اول العادلين * ولا يحسب الاثيم في أهـــل فارس بالاضافة اليه إلا من النبيين والصديقين * ولا فرعون في بني اسرائيل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقربين * فان كنا به معاقبين فقد تنقضي مدة العقاب * وتختم صفحة العذاب * وان كان الفلك غلط به * والزمان اخطأ فيه * فقد يراجع الغالط حسه * ويحاسب المخطىء نفسه * فيجبر ما كسر * ويتلافى ما بدر * والسلام .

* * *

« وكتب الى ابي الوفا صاحب جيش عضد الدولة » :

كتابي وانا بما يبلغني من صالح اعمال الشيخ مغتبط ومسرور * وبما يعرفه الزمان واهله من اعتضادي به مصون وموفور * والله تعالى على الاولى محمود وعلى الاخرى مشكور * التطفل وان كان محظوراً في غير مواطنه * فانه مباح في اماكنه * وان كان في بعض الاحوال يجمع عاراً ووزرا * فانه في بعضها يجمع فخراً وذخراً * ورب فعل يصاب به وقته فيكون سنة * وهو في غير وقته بدعة *

وقد تطفلت على الشيخ بهذه الاحرف اخطب بها مودتي عليه وأسأله ان يرسم لي في لساني وقلبي رسماً * ويختم عليهما ختماً * وصرت وكيله فيهما فهما على غيره حمى لا يقرب * وبحيرة لا تحلب ولا تركب * ولما نظرت إلى آثار الشيخ على الاحرار * ونشرت طراز محاسنه في ايدي القاصدين والزوار * واقيمت له عندي بالفضل شهادة الاخبار والاشعار * وهما شاهدا عدل * بكل نقص وفضل * ثم لما رأيت نفسي غفلا من سمة مودته * وعطلا من جمال عشرته * حميت لها من ان يحمي عليها ورد مورود * ويحسر عنها ظل على الجميع ممدود * وعجبت من سحاب اخطأني جوده وهو صيب وبحر عداني سيله وهو مفعم :

وبدر اضاء الافق شرقاً ومغربـا   وموضع رجلي منه اسود مظلم

* * *

« وله الى ابي الحارث من ولد هاشم بن ماسجور وهو ملك الجبل وقد ارسله يستدعي كتابه » :

مكاتبة مثلي للامير سوء ادب ودعة * وقلة حياء ومسكة * وتركي مكاتبته بعدما امكنتني وقرب متناولها مني تضييع لفرصة من فرص العز * ونهزة من نهز الفوز * والعاقل يختار خير الشرين * ويميل مع اعدل الشقين * لم ازل ايد الله تعالى الامير اقترح على دهري ان يسعدني * وعلى عمري ان يسعفني * فاتعلق من تلك الخدمة بطرف * واتوصل إلى تلك الحضرة بسبب ويأبى الدهر إلا أن يحلئني عن ورد احوم عليه برجائي * ويغلق علي باباً استفتحه بدعائي * فلما غلبني الدهر على مرادي * وخالف بين طريق اصداري وايرادي * رضيت

من المائدة باللقمة * ومن الفضل بالبلغة * * وسلكت مع بختي طريق المصانعة * إذ كان قد سد علي طريق المصادرة * وقلت لا أقل من ان ادس اسمي في اسماء خدم تلك الحضرة الجليلة * واترب يدي بغبار تلك الصنائع الجميلة * واخدم ذلك السيد قولا * وان كنت لم ارزق خدمته فعلا * واكاتبه غائباً * إذ كنت لا أصل اليه حاضراً * فكتبت هذه الاحرف اصل حبلي بحبله * واعرض بها نفسي لفضله * وانا اخرج إلى الامير من عهدة هذه السلعة * واشهد اني وسط في هذه الصنعة * فان الهيبة تحصر بنان الكاتب * وتعقل لسان الخاطب * فكيف حالها مع المتكاتب * وانا شاكر للامير وان كنت لم ارد بحره * ولم احتلب دره * لما سمعته من شكر الشاكرين لفضله * ومن اطباق الجميع على ذكر محاسن قوله وفعله * لا بل شكري له عن غيري اعظم * والحق لي فيه الزم * لاني لو شكرته عن نفسي شكرته عن انسان * واحتجت في ذلك إلى لسان * وإذا شكرته عن الناس شكرته عن امة * واحتجت إلى السنة جمة * على انني

اطري الحسام إذا مضى * وان كان يوم الروع غيري حامله * جزى الله تعالى الامير عن الجود خيراً فقد اقام له سوقاً كانت كاسدة * واهب منه ريحاً كانت راكدة * واحيى منه ارضاً كانت هامدة * ولقد سلك الامير من الكرم طريقاً يستوحش فيها لقلة سالكها * وعمر للمعروف داراً لا يستأنس بها لعدم ساكنها وبيته في قفارها * لدروس آثارها * وانهدام منارها * اعانه الله تعالى على صعوبة الطريق * وقلة الرفيق * والهمه صبراً يهون عليه احتمال المغارم * ويقرب عليه مصافاة المكارم * فبالصبر تنال العلى * وعند الصباح يحمد القوم السرى *

* * *

«وكتب الى حسين صاحب ديوان الحضرة» :

تأخر كتابي عنك يا ولدي لاني كرهت ان اكاتبك عن فكر متشعب * وقلب متقلب * واردت ان اخلي خاطري لجوابك * وان اقضي بذلك حق كتابك * فمن صيانة صاحب الكتاب * ان لا يتجوز له في الجواب * على ان مصون كلامي عند مثلك غير مبتذل * ومدخر بري عندك ليس بمستعمل * ولا لوم على الفقير * إذا حمل ما عنده من اليسير إلى المياسير * وقد بذل جهده * واتي اقصى ما عنده *

* * *

« وله إلى كاتب بعض الامراءِ وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب » :

وقفت على ما شكاه سيدي من العلة شفاه الله تعالى منها * وعوضه الصحة عنها * وودت لو قبلتني العلة فداءه * وامكنني ان اقرض سيدي شفاءه * فكنت انقل اليه الصحة نقلا * وابذل له ما عندي من العافية بذلا * الجرب حكة عافى الله تعالى سيدي منها مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب * زندهما الذي يقتبسان منه طعام وشراب * وفضله فدفتها الطبيعة إلى الظاهر * ودفع الله تعالى شرها عن الباطن * وعسكر من عساكر البلاء * تمده القذارة وتهدمه الطهارة * وتنقص منه البرودة والرطوبة * كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة * ومن داوى ظاهره * وترك باطنه * فانما يبل حائطاً وراءه النار الموقدة * ويرش على سطح بيت فيه الشرار المبثوثة * ويقعد تحت قول الاول :

خليلي داويتما ظاهراً فمن ذا يداوي جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفي عن ظاهر الجسد * وهي تتوقد في باطن الكبد * وكيف يزول داء سمه مكايله * وترياقه موازنه * وكيف يصح جسم حميته دواؤه * وغذاؤه داؤه * وكيف يقوم قليل الترياق بكثير السم * او يفي صغير البناء بكبير الهدم * وكيف يرجو الشفاء من لا يضبط شهوته * ولا يملك يده * ولا يهاجر حبيبه * وطعامه وشرابه * حتى لا يراهما الا خلسة * ولا يذوق منهما الا بلغة * ارى لسيدي ان يصبر على الجوع مع مرارته * وعلى العطش مع حرارته * وان يقتصر من الطعام على ما يكون في اوسط طبقات الرطوبة * وفي اعدل موازين البرودة * ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل إلى أطرافه فاما البقول فيجب ان لا ترى ولو في المنام * ولا تمس ولو بالاوهام * والسمك وما ناسبه بلية * واللبن وما خرج منه منية * حتى إذا حس في معدته بالخلاء * ووقف من طبيعته على الصفاء * ومن اخلاط جسمه بالاعتدال والاستواء * استخار الله تعالى وشرب شربة قوية تكنس فضول السوداء * وتخرج خبايا الصفراء * وتقمع سلطان البلغم *وتصفى كدورة الدم * فاذا انجلى عنه خمار ضعفها * وتقشعت غيابة سكرها * امدها بفصاد يخص به الاكحل فانه نهر العروق * والطريق الذي يفضي منه إلى كل طريق * تصعد اليه السفلى * وتنزل عليه العليا * وتلقى عليه الاولى والاخرى* فاذا فرغ منه * وخرج باذن الله تعالى سليماً عنه * وعلم انه لم يبق من العارض إلا هباؤه * ومن الخوف إلا زبده وجفاؤه * يعالج حينئذ باللطوخ التي تغسل ظاهر الجسم * ويجلو صدأ السقم * ولا ينسين الاستكثار من الغسل والاغتسال* ومباشرة الماء الحار على كل حال * فان الجرب في حيز الحرارة * كما ان الماء في حيز البرودة * والبارد إذا لقي الحار اطفى بعضه * وان لم يقطع اصله * والضد إذا زاحم الضد وهن سلطانه* وان لم يهدم اركانه* وملاك الأمر الحمية

فانه لا يكون قوي الحمية إلا من كان قوي الحمية * ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية * وانخلع عن ربقة الانسانية * وحق على العاقل ان يأكل ليعيش * لا يعيش ليأكل * وكفى بالمرء عاراً أن يكون صريع مأكله * وقتيل انامله * وان يجني ببعضه على كله * ويعين فرعه على اصله * فكم من لقمة اتلفت نفس حر * وكم من اكلة منعت اكلات دهر * وكم من حلاوة تحتها مرارة الموت * وكم من عذوبة خلفها بشاعة الفوت * وكم من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر * وقطعت جسداً كانت تنبو عنه السيوف البواتر * وهدمت عمراً هدمت به اعمار * وخربت بخرابه بيوت بل امصار * والعلل كلها وان لم يشملها اسم * ويجمعها حكم * فهي متباينة الاقدار * متمايزة المقدار * متخالفة الطبقات في باب النقيصة والعيار * فعلة العشق دليل على لطف الغريزة والترحم عن الرقة الروحانية * وعن النفس الخاصة الانسانية * وعلة النقرس على التنعم والقعود * وعلى قلة تجشم الهبوط والصعود * وعلى ان صاحبها مخدوم مكفي * او ملك حظي * وعلة الجرب دليل على تضييع واجب النفس من التعهد * وعلى التفريط في العلاج والتفقد * تنطق بأن صاحبها ضعيف المنة في التوقي * اسير في يد الحرص والتشهي * غاش لنفسه * قليل البقيا على روحه * وكيف يحفظ اصدقاءه * من لا يحفظ اعضاءه * وكيف يبقى على غيره * من لا يبقى على نفسه * وكيف يؤتمن على من لا يتماين عنه * من لا يؤتمن على بعض منه * وهذه علة تكسب صاحبها خزياً وحياء * وتورثه خجلا واسترخاء * ينظر إلى الناس بعين المريب * ويتستر عنهم كتستر المعيب * تنفر عنه الطباع وتستقذره النفوس * وتنبو عن مواكلته العيون * واقل ما يصيبه انه يحرم آلة المطاعم وهي يداه * وآلة اللقاء والزيارة وهي رجلاه ولو لم يكن من دقائق آفاتها * ومن عجيب هباتها * إلا أنها تشيخ الفتيان * وتمسخ الانسان *

وتجعله امياً بعد ان كان غير امي واعجمياً وليس باعجمي * تنفر عن نفسه نفسه * وتهرب من فراشه عرسه * ويتباعد عنه اقرب الناس منه لقد كانت جديرة ان يحتشد لدوائها * وتبذل الرغائب في افنائها ثم هي ربع من ارباع الخذلان * وقسم من اقسام الحرمان * قال الشاعر :

اعـــاذك الله من اشياء اربعة الموت والعشق والافلاس والجرب

وما ظن سيدي بداء قد سارت به الامثال * وقيلت فيه دون تساير الادواء الاقوال * قال رؤبة وقد ذكر علة * هي اعدى من الجرب * عند العرب *

« وقال ابو تمام » :

لما رأت اختها بالامس قد خربت كان الخراب لها اعدى من الجرب

« وقال لبيد » :

ذهب الذين يعاش في اكنافهم وبقيت في خلف كجلد الاجرب

فجعله رأس الادواء * ووصفه بأنه غاية البلاء * وانما ذكرت فيه ما ذكرت لازيد سيدي فيه في الهرب منه رغبة * وفي الصبر عليه زهادة * من الله تعالى على سيدنا بالشفاء * وجعل عهده بهذا الداء * آخر عهده بالادواء * انه طبيب الاطباء * وخالق الداء والدواء * وكاشف البلاء *

* *

«وله إلى قاضي الري أبي الحسن الهمداني» :

قد ملأت مسمع قاضي القضاة ايده الله تعالى بكتبي اليه في الحاجات واني لاعلم أني قد دللت عليه حتى امللت * واوجفت حتى اجحفت * ولكني اتطاير بنعمة الله تعالى عليه من ان اعرضها لليأس منها * وانسى جوابها برد الناس عنها * والسلام .

* * *

«وله إلى أبي المعالي وزير صاحب الجبـــل» :

وصل كتاب الشيخ بعد ان احتلمت به وسنان * وهذيت بذكره يقظان * فلما رأيته خررت له ساجداً * وشكرت الله تعالى بادياً وعائداً * والحمد لله تعالى الذي اراني محنة الشيخ قد ادبرت بقفا مبتور * ودولته قد اقبلت بوجه مسرور * وادال ايام سعده على ايام نحسه * وابعد ما بين الحوادث وبين نفسه وجعل يومه خيراً من أمسه * وشر من المحنة كثرة الشامتين * وخير مـــن انكشافها كثرة الشاكرين * فان الذي يشمت بالناس في وقت الرحمة لئيم * وان الذي يثبت الناس على وده بعد العزل لكريم * والشيخ بحمد الله تعالى ومنه لما امتحن انطق الله تعالى بالدعاء له السنا * وابكى بالشفقة عليه اعيناً * لا زال البكاء بعد هذا مقصوراً على عيون اعداءه فان اعداء الفاضل اعداء فضله واضداده اضداد فعله * وكل امرىء صديق امثاله وشكله *

* * *

«وله إلى سعيد بن سمكة» :

نظرت إلى ذنبي الذي استحققت به الهجران * وتقصيت طرق افعالي لاقف منها على الفعل الذي اوجب الحرمان * فوجدت نفسي قد كلفت الشيخ حوائج وحملت اليه بالغرائر والسفاتج * ولو تركت مكاتبتي إلى الشيخ نقية الاطراف من وضر السؤال * خفيفة الاكناف من ثقل الادلال * لما تجلى على بالمقال * من لا يبخل علي بالمال * وضايقني في العرض اليسير * من لا يضايق في الجوهر الكثير * لينزلني الشيخ ايده الله تعالى من قلبه * حيث انزلتني الثقة به وليضعني من نفسه بحيث وضعني الود منه * وليعلم اني سيفه الذي لا يفله طول الضرب * ولا يمله مراس الحرب * ولسانه الذي يذب عنه في الملا * ويدعو له في الخلا * واخوه الذي ان لم تصرفه اخوة الولاد * صرفته اخوة الوداد * ويجاوز ذلك إلى الممازجة والاتحاد * فلان قد استشارني في مشايخ تلك الحضرة فعرفته انهم بساط الشيخ صدره * وافق هو بدره * وان ما تفرق فيهم من الفضل ففيه متجمع * وعنه متفرع *

* * *

«وله إلى أَبي نصر الميكالي يشكره على اصطناعه فقيهاً من تلامذته» :

ابلــغ قتادة غــير سائلــه جزل العطاء وعاجل الشكم
اني شكرتــك للعشيرة إذ جاءت اليك برقــة العظم

المحمدة اطال الله تعالى بقاء الشيخ لذاتها حسنة * كما ان المذمة لنفسها قبيحة منقصة * والمحسن إلى الناس كلهم حبيب * ومن القلوب كلها قريب *

يمدحونه وإن لم يحسن اليهم * ويشكرونه وان لم يفضل عليهم * كما ان المسيء في النفوس صغير وان كثر مالا وحالا * وقبيح وان حسن زيناً وجمالا * على هذا اسست البنية * وعليه وضعت الفطرة * وفيه اتفقت الخاصة والعامة * ثم ان الاحسان وان كان كله حسناً على طبقات * كما ان الاساءة سيئة وان كانت كلها على درجات * فمن اصاب بالاحسان بقعة لا يخلف شجرها * ولا يمر ثمرها * واسداه إلى كريم يرب الصنيعة بلسانه * ويخرج الاحسان في موضع استحسانه فقد سددت رميته * واصيبت رميته * وزكا صنعه * ونما ربعه * وما اعرف اهل بيت احسن لموضع الصنائع ارتياداً * واجود لاهلها انتقاداً * واصوب لها اصداراً وايراداً * من اهل بيت الشيخ ابقى الله تعالى مشايخهم وشبانهم وجمل بهم مكانهم وزمانهم * والشيخ بحمد الله تعالى على سبيلهم نهج وعلى منوالهم نسج * فصنائعه في قوالب الحمد والشكر * وعلى طريق الاجر والذخر * لا يقع الا بين الشرف والثواب * ولا يوجد الا بين العلوم والآداب * فهي ككافل الكريمة لا يزوجها حتى يستكرم صهرا * او يحكم مهرا * او كبائع الجوهرة النفيسة لا يبرزها حتى يرى ثمنا * او يأمن غبنا * والجواد محتكر بر * لا محتكر بر * والكريم تاجر جمال * وان لم يكن تاجر مال * والحر وقاية الحر من فقره * وسلاحه على دهره * ولله تعالى بقايا من عباده * في بلاده * خلقهم ليعيش بهم العاسر * ويشد بازرهم الفاقر * ويحي بحياتهم المعالي والمآثر * فهم ملح الارض اذا فسدت * وعمارة الدنيا اذا خربت * ومعرض الايام والليالي اذا حشدت * بلغني ما صنعه الشيخ مع فلان فما استكثرته قياسا على قدره العظيم * وبره الجسيم * ولم اتعجب من ولد تقبل قبلة الوالد * ومن طريف نازع التالد * ومن غصن من اغصان الشرف * نما على عرقه في السلف * ومن نفس رضعت ثدي المكارم * وربيت في حجر الاكارم *

فجرت على سنن اوائلها * واحيت فضائلهم بفضائلها * وانما تعجبت من حسن ما تحرى الشيخ لمعروفه وارتاد * ومن صواب ما عزا واراد فما اكثر من اخطأ بصنعه طريق المصنع * وخالف بزرعه موضع المزرع * وما اكثر من يلد معروفه فلا ينجب مما ولد * ولا يبلغ به صاحب المقصد * وهذا الفقيه بين نفس مقبلة * ودولة مقتبلة * يرمي به كماله ورآه ميلاده * ويسبق فضله غايات آبائه وجداده * وللدهر فيه مقاصد * وللأيام فيه مواعد * ولله تعالى لطائف سيبلغ الكتاب منها اجله * ويكمل الاقبال في تمامها عمله * والحمد لله تعالى الذي جعل الشيخ ممن ابي عذره اصطناعه * واول من بسطت يده ومد باعه * والحمد لله تعالى الذي جعل همم الشبان مصروفة الى افتراع ابكار الجواري * وهمة الشيخ مقصورة على اقتراع ابكار المعالي * فالمصطنع في الرؤساء والامراء * كالمصطنع في العلماء والفقهاء * فسبحان من وفق بين الشكلين * وزاوج بين المثلين * وجعل الصنيعة غضة طرية من جانبين * وصيرها شابة من النشأتين هذا وقد نسج الشيخ الفقيه من شكر الشيخ طرازا لا يبلى * واوقد من ذكره شهابا لا يخفى * فملأ بقوله الاسماع والنواظر * بل القلوب والخواطر * بل الكتب والدفاتر * حتى لم يبق رئيس الا تمنى لو انه كان المصطنع * كما لم يبق فقيه الا تمنى انه كان المصطنع * وحتى قلنا :

ما لقينا من احمد بن علي ترك الناس كلهم فقهاء

او نسينا :

ما لقينا من جود فضل بن يحيي * ترك الناس كلهم شعراء

لا زال الشيخ يستولي على الامد كل غاية بفعله وقوله * وينفرد بحمى كل مكرمة بفضله وطوله * ولا زال يستبضع اليه الشكر من البلدان * فيشتريه باغلى الاثمان *

«وكتب إلى حاكم سرخس وقداهدى اليه كتاباً طلبه منه»:

تأخرت حاجة الحاكم وختم الله تعالى دولة الحمد بقضائها * ونبت عن طالبها في اقتضائها * فكنت الخصم والحاكم * والمحاكم والمحاكم * وما ابطأ من اجدى * ولا اسرع من اكدى * وارتدت نسخة مقروءة قد عمل فيها القلم والبنان * واثر فيها التبيين والبيان * وسودت حواشيها * ولاحت مياسم التصفح فيها * ولم تكن في حسن خط كاتبها * ولا جودة تجليد صاحبها * ولا استقامة حروفها * ولا تساوي جوانبها وحروفها * بعد ان سلمت من التحريف والتصحيف * ومن سقم الاشكال والحروف * فانما الكتاب الحسن ظاهرا السقيم باطنا مثل المرأة الحسناء العاهرة يسرك خلقها * ويسوءك خلقها * ومثل الروضة الغناء الوبيئة تحمدها العين ويذمها البطن وكانت تقع بيدي النسخة الاولى التي هي مائدة منقوشة ليس عليها دسم * وكيس مصرر ليس فيه درهم * وتقع الثانية خلافها كالعجوز المنتقبة * وكالقفل على الخربة * فانما هي كسوة عامي غبي * او مقبرة يهودي غني * وتقع في يدي الثالثة وهي اسم ولا جسم * ودعوى ولا علم * قد قرئت على متعالم غير عالم لا يدري * ولا يدري انه لا يدري * فراؤها زاء * وميمها حاء * وطاؤها ظاء * والنظر فيها يعمي * والاستدلال بها يعمي * ومن آفة العلم خيانة الوراقين * وتخلف المعلمين * كما ان من آفات الدين * فسق المتكلمين وجهل المتعبدين * وكما ان من آفات الدنيا كثرة العامة * وقلة الخاصة * وكما ان من آفات الكرم ان الجود ضد المنع * والبخل سبب الجمع * وان المال في ايدي البخلاء * دون ايدي الاسخياء * وكما ان من آفات الحلم ان الحليم مأمون الجنبة * وان السفيه منيع الحوزة * قاعد في خفارة البذاء والسفاهة وكما ان من آفات المال اذا صنته فقد

عرضته للفساد * واذا ابرزته عرضته للنفاد * وكما ان من آفات الشكر انك اذا قصرت عن غايته ذممت من اصطنعاك * واذا بلغتها وابلغت فيه اوهمت من سمعك * وكما ان من آفات الشراب انك اذا اقللت منه حاربت شهوتك * ولم تقض نهمتك * واذا استكثرت اعترضت للإثم والعار * وابرزت صفحتك للألم والخمار * وكما ان من آفات المماليك انك اذا باسطتهم افسدت آدابهم واذهانهم * واذا قبضتهم افسدت وجوههم والوانهم * اكما ان من آفات الاصدقاء انك اذا استكثرت منهم لزمتك مواجبهم * وثقلت عليك نوائبهم وكسبت الاعداء من الاصدقاء * كما يكتسب الداء من الغذاء * وكما ان من آفات المغنين ان الوسط منهم يميت الطرب * والحاذق ينسي الادب * وكما ان من آفات النساء انهن اذا اكرمن قبح خلقهن * واذا اهن فسد خلقهن * فلما تمادت مدة الاكداء * ولم اصل الى من ينظم طرفي مرادي ببهة ولا شراء * نزلت على حكم الامكان * وجريت في التجوز على رسم الزمان * وحملت نسخة ان لم تكن بتلك السليمة * فليست بتلك السقيمة * وانا اعتذر اليوم منها قولا * وغدا فعلا * واحصل اخرى ولو بروحي ومهجتي * وبدنياي وآخرتي *

* * *

«وكتب إلى أبي بكر بن سمرد» :

انا مترجح بين ان اقر للشيخ بذنبي * واخبره بعيبي * وبين ان اسكت سكتة متجاهل واصفح صفحة متغافل * وان كنت اعلم ان العفو الى المقر * اسرع منه الى المصر * وان وضر الذنوب لا يغسله الا الاقرار * ولا يزيله الا

الاعتذار * وقد كان في حكم ما اولانيه من نعمه التي يفنى الابد ولا تفنى * ويخفى الصباح ولا تخفى ويبلى الجديدان ولا تبلى * وينسى القوم ولا تنسى * ان يكون لي عنده كل يوم فتح قاصد * بل رسول وارد * لا بل كان ينبغي ان اجعل رسولي اليه الريح فانها اسرع * واكتب اليه في الفلك فانه اوسع * ولا تطلع شمس الا وجنبها مني اليه كتاب * اما ابتداء واما جواب * ولكن ابن آدم للنعمة كفور * وبالعهد غدور غافل عن غده ناس لامسه مرتهن بيومه واني لاحسد كتابي اذا ورد ذلك الباب * ونزل ذلك الجناب * واود لو كنت سطرا فيه * او حاشية من حواشيه * وللايام عندي اذا وصلتني بالشيخ نعمة لا اسع عنها الثواب * ولها علي اذا ابعدتني جناية لا اقدر على كفائها من العقاب * وقد كنت اعيب من الشعراء من مدح انسانا ثم هجاه * وانسبه الى ضعف المسكة والى وهن العزيمة وانحلال العقدة حتى بليت الآن بهجاء الدهر وطالما مدحته * ودفعت الى حربه وطالما صالحته * قد تعرفت للشيخ عوارف حيرتني بين طيها ونشرها ورجحت بين تركها وذكرها * فان ذكرتها قصر عنان الطاقة عن مقتضى حكم النية وان تركت ذكرها لاحت على فعلي سمة الكفران * وعرفت بسوء مجازاة الاحسان * وحرمت نفسي ثمرة اللسان * فقد اسكت الشيخ لساني من حيث انطقه * وحصر بناني من حيث اطلقه * وعلى ذلك فقد اسمعت شكري كل من له اذن * واريت اثر صنيعته كل من له عين * حتى لقد حسدني عليه الاقارب * وتعرف الي فيه الاجانب * وهابني ورجاني منذ عرفته الحاضر والغائب * ثم لم يرض ان احسن بي * حتى احسن الى من يرسل اليه بكتبي * فاضاف النعمة الاخرى الى الاولى * وعقب الصنيعة الكبرى بالصغرى * على ان اصغر صنائعه كبير * كما ان اكبر شكري له صغير * ولكن الكبير من الكبير يصغر * كما ان الصغير من الصغير يكبر * فكيف اهلني الشيخ لاحسانه ثانيا * ولم اقض حق احسانه باديا *

وكيف حملني النفل وقد تقاعدت عن اداء الفرض وجمع على الكل وقد ضعفت عن البعض * وكيف نبع على بره من كل منبع وطلع الى السعد به من كل مطلع * ودب الى احسانه من كل مكمن وكان سبيلي ان يستوفي علي قبل ان اوفي وان احاسب على الحاصل الاول قبل ان يثنى وان اعامل على قول الاول :

اذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن   قضاء ولكن كان غرما على غرم

* * *

«وكتب إلى تلميذ له عن كتاب وقصيدة» :

وردت القصيدة الغراء * بل الدرة العذراء * بل الهدية العظيمة * بل الشمسة الكريمة * بل الياقوتة اليتيمة * بل فريدة الدر * بل غرة الغر * بل شمس الكرام * وغريبة الايام * بل الخطاب الجزل * والمنطق الفصل * بل الحسن والاحسان * بل التبيين والبيان * بل واحدة القصائد * وخاتمة القلائـــد * وآبدة الاوابد * بل اميرة النظم والنثر * بل ملكة الرجز والشعر * بل حسنة الالسن * ونزهة القلوب والاعين * بل بستان الافكار * وجلاء الابصار * بل روح المعاني والمباني * وهيكل الاوزان والقوافي * بل عقيلة الدهر * ونادرة العصر * وثمرة العمر * وبيضة العقر * وترياق القلب بل ملبسي تاج الفخر * ومورثي كنز الذخر * لا بل ليلة القدر * فانها خير من الف شهر * وهذه خير من الف بيت شعر * ولم اعن بيت الموزون * انما اردت البيت المسكون * ففتحت كتابها عن النور المنثور * وعن الديباج المنشور * وفليت معانيها عن روح البديع وقلبه * ومبانيها والفاظها عن حب الفصيح ولبه *

ووددت طرفي منزهاً في روضة سقاها اللسان وعملها البنان * ونافس عليها زمانها الازمان * ولم يبق فيها بيت الا رويته * ولا فصل الا حكيته * ولا لفظ الا كررته وثنيته * ووددت لو كانت اعضائي كلها للنظر اجفانا * ولاستماعها آذانا * ولتناولها وجسها ايديا وبنانا * بل لو كان الحرف منها سطرا * والكلمة من كلماتها عشرا * فيمتد نفس استيفائها روية ورواية * ويعظم حجم استقصائها فهما ودراية * وغرت عليها من هذا الزمان الذي لا يستحق ان يكون له ولد نجيب * ولا يقتضي ان ينبغ فيه عالم ولا اديب * ثم رجعت الى الحقائق فعلمت ان الانسان ابن امه وابيه * لا ابن ايامه ولياليه * وان قول الناس ابناء الدهر لفظ مجازي * ومعنى اصطلاحي * وقد نحلني فيها من هذا الفضل ما ان طولبت بجدواه * لم اخرج من عهدة دعواه * فان تكن تلك شهادة منك اسلفتنيها * وسلعة جازفت لي فيها * فقد يسامح الكريم اخاه * ويحابي الحر من بايعه وشاراه * وان كنت تظن في هذا الفضل فاسأل الله تعالى ان لا يجمع بيننا فانك ان ساهدتني رجعت عن ظنك * ورددت بعينك حكم اذنك * وانا المعيدي وان لم يكن لي في العرب نسب * ولا بيني وبين معد قرابة ولا سبب *

* * *

«وكتب إلى أبي الفرج خليفة الوزير بنيسابور» :

فهمت ما ذكره الشيخ في كتابه * وجعلت قبولى عظته بدلا من جوابه * ذكر الشيخ أني لو اقتصرت على خدمة الأمير * وعلى منادمة الوزير * لمالت الصروف عن جانبي ناكبه * وولت الخطوب عني هاربه * ولو لم

انتجع غير نيسابور بلدا * ولا غير من بها أحدا * لعشت معهم عيشة رغدا
وجواب الشيخ تحت قول الأول :

فبالخير لا بالشر فاطلب مودتي وأي فتى يقتال منه الترهب

مثلي أيد الله تعالى الشيخ لا يحمل على الخدمة بالتقريع والتثريب * ولا بالتهديد والترهيب * ولا تحتلب اخلاف مودته بالاذلال * ولا يدرك مصون ما عنده بالامتهان والابتذال * وإنما يحبس مثلي بالرغبه * ويقيد بقيد من الذهب والفضه ويرضى منه بالحياء والوفاء كفيلين * وبالشكر والتذمم ضمينين وإنما الحر زجاج رقيق ثمين إذا رفق به واستعمل في موضع مثله زين المجالس وامتع المجالس * وكان مالا إلا أنه جمال * وجمالا إلا أنه مال * وإذا خرق به انكسر فعقر الكاسر * واتعب الجابر * وغم السامع والناظر * وكان ينبغي لأصحابنا أن يقتنصوني بحبالة الاحسان والبر * ويرتبطوني بحبال الحفاظ والشكر * ويعلموا أن البازي العتيق لا يصبر على الاضاعة * ولا يقيم في بيت المجاعة * ومن اصطنع اليوم شكر غداً * ومن وجد الاحسان قيدا تقيد * ولكن كيف يصون الادب مغرم * ولم يؤد عنه إلى المؤدب درهم وكيف يخالف الانسان مقتضى نسبته * ويطيب الثمر مع خبث تربته * هيهات إن الفرس الجواد يجري على عتقه * وأن الفرع ينزع إلى عرقه :

وإن مقامي حيث خيمت محنة تدل على فهم الكرام الاجاود

ولكن جزى الله أصحابنا عن تعليمهم خيراً * فقد تحولت شكايتي لهم شكراً وذلك انهم عرفوني بمقادير الكرام * وقاموا في تأديبي مقام تصاريف الايام ودبغتني بهم التجارب * وراضتني بأيديهم النوائب * ولاحت لي ببركاتهم الغيوب والعواقب * فأنا تلميذهم في ائتمام الأيام * وخريجهم في معرفة أحوال الانام * والمستفيد فيهم وبهم معرفة سياقة ما بين الفعل والكلام

فكيف لا اشكر قوماً أفادوني عقلا وإن لم يفيدوني نيلا * وزادوني ادبا وإن لم يزيدوني نشباً وعهدي وأنا بالعراق مفيد * فاصبحت وأنا بخراسان مستفيد * وهذه الزيادة من عطايا هذه الحضرة وهذه النادرة التي توجهت إلي من بركات هذه الدولة والسلام

* * *

«وكتب إلى كثير بن أحمد لما هرب إلى الري» :

ورد علي كتاب الشيخ وفهمته * والمواعيد التي أراد الشيخ أن يسحرني برقاها * ويخدعني عن بواطن عيوبها بظواهر حلاها * فقد طلبت عنها ثواباً * ولها جواباً * فلم أجد غير قول عبيد:

لا اعرفناك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا

أنا أيد الله الشيخ رجل قد اخترت نيسابور دارا * واخترت سلطانها من الملوك جارا * حتى جعلتها بيتاً اعمره * والدنيا جسراً اعبره * لآمن بها على مالي وولدي بعد مماتي * ولا أخاف بها على روحي وعرضي في حياتي * ولو علمت أني اسأم خدمة من ليس له أثر علي * واصادر على نعمة لم تصل إلي * لفارقت دار الهوان * ولكان جناحي وافر الطيران * ذكر أنه تلطف بالأمير حتى سل منه السخيمه * وحمله على أن اغتفر الجريمة * وما عرفت لي جرماً يحتمل معذره * أو ذنباً يستوجب مغفره * فان كان الأمير غفر لي ما سأجنيه من السيئات * فهلا شكرني على ماسآتيه من الحسنات * وكيف استخار السلف فيما يتعلق بالعقوبة * ولم يستخره فيما يتعلق بالمثوبه * فان كان مراده أن أقر على نفسي بذنب ما اتيته والتزم بشكر جميل ما اوتيته *

فهذه صدقة قد سامنيها والصدقة لا تحل من الفقراء إلى الاغنياء * ولا يحسن بالامراء قبولها من الشعراء * وإن كان يريد أن يتوصل بهـذا إلى اجتناء ثمرات اللسان * ويحب أن يسير ذكره في أثناء هذه المعاني الحسان :

فالناس اكيس من أن يحمدوا رجلا ما لم يروا عنده آثار احسان

وإنما لساني خادم من خدم فؤادي * ومتصرف من متصرفي مرادي * فكيف يفتات علي بشكر غيره * وكيف يجود بما هو متصرف فيه لغيره * وإنما لسان الشاعر روضة لا تسلف الزهر * حتى تستسلف المطر * ولا تضحك في وجه السماء * إلا بعد أن تستوفي حقها من الانداء * وإن كان الشيخ يرضي بعد هذا كله بظاهر اعتذاري * فقد خرجت إليه من عهدة اضماري * وأنا أقر بذنوب العالمين * حتى بذنب ابليس في الاولين * وحتى بذنب هاروت وماروت في المتقدمين * والتزم كل المعايب حتى معايب بني أميه * ومعايب بغلة أبي دلامه وأقول قد ادبني الليل والنهار * وثقفتني الاحوال والاطوار * فأبصرت قصدي * وتبينت رشـــدي * فليلبسني الامير برضاه عني ثوب العزه * كما البسني بغضبه علي ثوب الذله * وليجعلني عبداً اعوج فقوم * وجهل فعلم * فلما عرف نفسه * وتلافى بيومه امسه رد عليه مكانه * ورجع إليه زمانه * فادعى أن النابغة الذبياني ما اعتذر إلا عنى * ولم يلك لسانه إلا بضعة مني * وانتحل قول علي بن الجهم :

ليس عندي وإن تغضبت إلا طاعة حرة وقلب سليم

وانتظار الرضا فان رضا السا دات عفو وعتبهم تقويم

* * *

«وكتب إلى رئيس قم» :

بسطني الشيخ ثم انقبض عني * ودعاني ثم هرب مني * وكان وليس له مثل الاكمن خطب إلى حر كريمته فلما زفها إليه أغلق عنها بابه * وارخى دونها حجابه * فعرض الصهر للهجنه * والعروس للتهمه * ولعلي اتيت مني * واصبت الشيخ بعيني * لما رأيته قد احيا مواتاً من الود * وسبق إلى باكورة من كرم العهد * وقد ثبت من أن انظر إلى اصدقائي بعين العجب بهم * وارمقهم بما يدعوني إلى الحب لهم * لا بل سأتعامى عن محاسنهم إن رأيتها * واتغابى عنها وان دريتها * إن شاء الله تعالى .

* * *

«وكتب إلى مؤدب أمير خوزستان» :

ذكر الشيخ من غمه بغيبتي فيما كان * وفرحه باوبتي الآن * ما قلبي عليه شاهد * وعلى الشهادة زائد * لأنه لا يمين على شاهد * وأنا احلف على هذه الشهاده * فأكون قد وفيت بما وعدته من الزيادة * ولقد رأيت الاخوان غير شيخي ومودتهم خلق يبيعونه ممن اشتراه * ويعرضونه على كل من رآه * ومهر هذه الحال قلبي فقد احتوى عليه * وودي فقد تمسك بطرفيه * والاحرار تستعبد بالاحسان * من حيث تستعبد المماليك بأغلى الاثمان * على أن المملوك يعتق بلفظه * ويباع في صفقة ويزول عنه الرق في لحظه * والحر لا تزيده الايام إلا رقاً لمن اصطنعه * وتواضعاً لمن رفعه ولقد عجبت من محاسبة الشيخ نفسه عن اصدقائه * ومؤاخذته قلبه بشرائط

وفائه * مع أنه في زمان قد مرجت فيه عهود الاخوان * وأعطوا وأخذوا أموالهم بالميزان * ومالوا مع الرجحان على النقصان * ورضوا من القلب باللسان * ومن الغيب بالعيان * وإذا تبين التاجر كساد السلعه * تجوز في الصنعه * وإذا قل المتاع * فتر البياع * والحمد لله الذي رزقني من شيخي صديقاً يتجمل بقربه ويوثق بغيبه * ولا يخاف الغير من لسانه ويده * فلا سلبت هذه النعمى * ولا حوسبت على هذه الموهبة العظمى * فان الايام قلما رأت بيدي علقاً نفيساً إلا سلبتني * وقلما اعطتني مما احب شيئاً إلا حاسبتني * حتى أني لو صادفت الهواء لجعلته حمى لا يطال جانبه * ولو اختصصت بالماء لصيرته منبعاً لا يروى شاربه * فأما الناس فما احصي فيهم عدداً ممن ابتعته فباعني وحفظته فأضاعني * واستعنت به على الزمان فأعانه علي * واستظهرت بمكانه على الاعداء فكان مقدمهم الي * اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت * وأصلح قلوب الناس فقد فسدت * ولا تمتني حتى يبور الجهل * كما بار العقل * ويموت النقص كما مات الفضل

* * *

«وكتب إلى أَبي سعيد رجاءَ بن الوليد الاصفهاني» :

بشرني كتاب الشيخ من سلامته ببشارة صغرت عندي البشائر * وفاتت النظائر * وملأت المسامع والنواظر * فلا زالت امداد صنع الله تعالى له متناسقة * والايام له بما يهوى موافقة * وجعل الله تعالى تلك العثرة غلطة تاب الدهر منها * وخطيئة انكرها ورجع عنها * فان الشيخ يحسن في لباس النعمة * ويقبح في زي المحنة وان غيره إذا لبس النعمة كانت عليه

اجنبية ويعلم أنه اخذها عارية اليسير الذي رسم لي الشيخ به حملت إليه جملته ولو اخذني فيما اخذه مني لاستقللته له واستصغرته دونه والذي ارجع إليه فهو مقسوم بينه وبيني * فان أذن فهوله دوني * حملت إلى الخزانة نسخة رسائلي فنصفها مصحف * ونصفها محرف * والكلام الوسط بالخط الوسط كالعجوز السوداء تجلي على العيون فينضاف قبح الجلوة * إلى قبح الكسوة * وتغطي على ظلمة الدواء * ظلمة الوعاء * وتتضاعف السماجة ضعفين وتقذى العين من لونين * فيصير القلب أسير العين * بلغني أن الشيخ قد اغتم لما ندب لعمل يصغر فيه ويكبر عنه فأنكرت ذلك من فعله * وكتبته في هفوات عقله * العمل أيد الله تعالى الشيخ ثوب يحسن بصاحبه * ومركب يحل براكبه * فالصغير منه بالكبير كبير * والكبير منه بالصغير صغير * وكأني بالتمييز وقد نبع منه نابع * وبدولة الانتقاد وقد طلع من سعودها طالع وبرجالات الحضرة وقد تذكروا مظان الآجال * ومساقط الرجال * فعثروا باسم الشيخ فردوا عليه رتبته * وقوموه قيمته * وجاء الدهر يعترف بما اقترف * ويأتنف خلاف ما سلف * وإنما خدمة السلطان نار * بينما هي شرار * إذ ملأت داراً * وأحرقت أوقاراً * وصيرت الليل نهاراً * ولا صغير من الولاية كما لا كبير من العطلة والسلام

* * *

«وكتب إلى جماعة الشيعة بنيسابور لما قصدهم محمدبن ابراهيم واليها»

سمعت ارشد الله سعيكم * وجمع على التقوى امركم * ما تكلم به السلطان الذي لا يتحامل إلا على العدل * ولا يميل إلا على جانب الفضل

ولا يبالي بأن يمزق دينه إذا رفا دنياه * ولا يفكر في أن لا يقدم رضا الله إذا وجد رضاه وأنتم ونحن أصلحنا الله وإياكم عصابة لم يرض لله لنا الدنيا فذخرنا للدار الاخرى ورغب بنا عن ثواب العاجل * فأعد لنا ثواب الآجل * وقسمنا قسمين قسماً مات شهيداً * وقسماً عاش شريداً * فالحي يحسد الميت على ما صار إليه * ولا يرغب بنفسه عما جرى إليه * قال أمير المؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام المحن إلى شيعتنا اسرع من الماء الى الحدور وهذه مقالة اسست على المحن * وولد اهلها في طالع الهزاهز والفتن * فحياة اهلها نغص * وقلوبهم حشوها غصص * والايام عليهم متحاملة * والدنيا عنهم مائلة * فاذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائض والسنن * ومتبعي آثارهم في كل قبيح وحسن فينبغي أن نتبع آثارهم في المحن * غصبت سيدتنا فاطمة صلوات لله عليها وعلى آلها ميراث ابيها صلوات الله عليه وعلى آله يوم السقيفة وآخر امير المؤمنين عن الخلافة وسم الحسن رضي الله عنه سر * وقتل اخوه كرم الله وجهه جهرا * وصلب زيد بن علي بالكناسة وقطع رأس زيد بن علي في المعركة وقتل ابناه محمد وابراهيم على يد عيسى بن موسى العباسي ومات موسى بن جعفر في حبس وسم علي بن موسى بيد المأمون وهزم ادريس بفخ حتى وقع إلى الاندلس فريداً * ومات عيسى بن زيد طريداً شريداً * وقتل يحي بن عبد الله بعد الامان والايمان * وبعد تأكيد العهود والضمان * هذ غير ما فعل يعقوب بن الليث بعلوية طبرستان * وغير قتل محمد بن زيد والحسن بن القاسم الداعي على أيدي آل ساسان * وغير ما صنعه أبو الساح (كذا) في علوية المدينة حملهم بلا غطاء ولا وطاء من الحجاز إلى سامر وهذا بعد قتل قتيبة بن مسلم الباهلي لابن عمر بن علي حين اخذه بأبويه وقد ستر نفسه * ووارى شخصه * يصانع عن حياته * ويدافع عن وفاته * ولا

كما فعله الحسين بن اسماعيل المصعبي بيحي بن عمر الزيدي خاصة * وما فعله مزاحم بن خاقان بعلوية الكوفة كافة * وبحسبكم أنه ليست في ببضة الاسلام بلدة إلا وفيها لقتيل طالبي ترة تشارك في قتلهم الاموي والعباسي * وأطبق عليهم العدناني والقحطاني :

فليس حي من الاحياء نعرفه   من ذي يمان ولا بكر ولا مضر

إلا وهم شركاء في دمائهم   كما تشارك ايسار على جزر

فأدتهم الحمية إلى المنية * وكرهوا عيش الذلة فماتوا موت العزة * ووثقوا بما لهم في الدار الباقية * فسخت نفوسهم عن هذه الفانية * ثم لم يشربوا كأساً من الموت إلا شربها شيعتهم وأولياؤهم * ولا قاسوا لوناً من الشدائد إلا قاساه أنصارهم وأتباعهم * داس عثمان بن عفان بطن عمار بن ياسر بالمدينة ونفى أبا ذر الغفاري إلى الربذة وأشخص عامر بن عبد قيس التميمي وغرب الاشتر النخعي * وعدي ابن حاتم الطائي * وسير عمر بن زرارة إلى الشام ونفي كميل بن زياد إلى العراق وجفا كعب واقصاه * وعادى محمد بن حذيفة وناواه * وعمل في دم محمد ابن سالم ما عمل * وفعل مع كعب ذي الحطبة ما فعل * واتبعه في سيرته بنو امية يقتلون من حاربهم * ويغدرون بمن سالمهم * لا يحفلون المهاجري * ولا يصونون الانصاري * ولا يخافون الله ولا يحتشمون الناس قد اتخذوا عباد الله خولا * ومال الله دولا * يهدمون الكعبة * ويستعبدون الصحابة * ويعطلون الصلاة الموقوتة ويختمون اعناق الاحرار * ويسيرون في حرم المسلمين سيرتهم في حرم الكفار * وإذا فسق الأموي فلم يأت بالضلالة * عن كلالة قتل معاوية حجر بن عدي الكندي * وعمرو بن الحمق الخزاعي بعد الايمان المؤكدة والمواثيق المغلظة وقتل زياد بن سمية الالوف من شيعة الكوفة وشيعة

البصرة صبرا * وأوسعهم حبساً واسرا * حتى قبض الله معاوية على اسوأ اعماله * وختم عمره بشر احواله * فأتبعه ابنه يجهز على جرحاه ويقتل ابناء قتلاه * إلى أن قتل هانئ بن عروة المرادي ومسلم بن عقيل الهاشمي أولا وعقب بالحرث بن زياد الرياحي * وبابي موسى عمرو بن فرطة الانصاري وحبيب بن مظهر الاسدي * وسعيد بن عبد الله الحنفي * ونافع بن هلال الحملي * وحنظلة بن أسعد الشامي * وعابس بن أبي شبيب الشاكري * في نيف وسبعين من جماعة شيعة وامر بالحسين عليه السلام يوم كربلا ثانياً ثم سلط عليهم الدعى ابن الدعي عبيد الله بن زياد يصلبهم على جذوع النخل * ويقتلهم الوان القتل * حتى اجتث الله دابره ثقيل الظهر بدمائهم التي سفك عظيم التبعة بحريمهم الذي انتهك * فانتبهت لنصرة اهل البيت طائفة اراد الله يخرجهم من عهدة ما صنعوا ويغسل عنهم وضر ما اجترحوا فصمدوا صمد الفئة الباغية * وطلبوا بدم الشهيد الدعي ابن الزانية * لا يزيدهم قلة عددهم * وانقطاع مددهم * وكثرة سواد اهل الكوفة بازائهم إلا اقداماً على القتل والقتال وسخاء بالنفوس والاموال * حتى قتل سلمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجية الفزاري وعبد الله بن وال التميمي في رجال من خيار المؤمنين * وعلية التابعين * ومصابيح الانام * وفرسان الاسلام * ثم تسلط ابن الزبير على الحجاز والعراق فقتل المختار بعد ان شفى الاوتار * وادرك الثار * وافنى الاشرار * وطلب بدم المظلوم الغريب فقتل قاتله * ونفى خاذله * واتبعوه ابا عمر بن كيسان واحمر بن شميط ورفاعة بن يزيد والسائب بن مالك وعبد الله بن كامل وتلقطوا بقايا الشيعة يمثلون بهم كل مثلة * ويقتلونهم شر قتلة * حتى طهر الله من عبد الله بن الزبير البلاد * واراح من اخيه مصعب العباد * فقتلهما عبد الملك ابن مروان * كذلك تولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون بعدما حبس

ابن الزبير محمد بن الحنفية واراد احراقه * ونفى عبد الله بن العباس واكثر ارهاقه * فلما خلت البلاد لآل مروان سلطوا الحجاج على الحجازيين * ثم على العراقيين * فتلعب بالهاشميين واخاف الفاطميين * وقتل شيعة علي ومحا آثار بيت النبي وجرى منه ما جرى على كميل بن زياد النخعي * واتصل البلاء مدة الملك المروانية إلى الايام العباسية حتى إذا اراد الله ان يختم ملكهم بأكثر آثامهم * ويجعل اعظم ذنوبهم في آخر ايامهم * بعث على بقية الحق المهمل * والدين المعطل * زيد ابن علي فخذله منافقوا اهل العراق وقتله احزاب اهل الشام وقتل معه من شيعته نشر بن خزيمة الاسدي * ومعاوية بن اسحق الانصاري وجماعة من شايعه وتابعه وحتى من زوجه وادناه وحتى من كلمه وماشاه * فلما انتهكوا ذلك الحريم * واقترفوا ذلك الاثم العظيم * غضب الله عليهم * وانتزع الملك منهم * فبعث عليهم ابا مجرم * لا أبا مسلم * فنظر لا نظر الله اليه إلى صلابة العلوية وإلى لين العباسية فترك تقاه * واتبع هواه * وباع آخرته بدنياه * وافتتح عمله بقتل عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وسلط طواغيت خراسان * وخوارج سجستان * واكراد اصفهان على آل أبي طالب يقتلهم تحت كل حجر ومدر ويطلبهم في كل سهل وجبل حتى سلط عليه * احب الناس اليه * فقتله كما قتل الناس في طاعته * واخذه بما اخذ الناس في بيعته * ولم ينفعه ان اسخط الله برضاه * وان ركب مالا يهواه * وخلت من الدوانيقي الدنيا فخبط فيها عسفاً * وتقضي فيها جوراً وحيفاً * إلى ان مات وقد ملأت سجونه بأهل بيت الرسالة ومعدن الطيب والطهارة قد تتبع غائبهم وتلقط حاضرهم * حتى قتل عبدالله بن محمد بن عبدالله الحسني بالسند على يد عمر بن هشام بن عمر التغلبي فما ظنك بمن قرب متناوله عليه * ولان مسه على يديه * وهذا قليل في جنب ما قتله هرون منهم * وفعله موسى

قبله بهم * فقد عرفتم ما توجه على الحسن بن علي بفخ من موسى وما اتفق على علي بن الافطس الحسيني من هارون وما جرى على احمد بن علي الزيدي وعلى القاسم بن علي الحسني من حبسه وعلى ابن غسان حاضراً الخزاعي حين اخذ من قبله والجملة ان هرون مات وقد حصد شجرة النبوة واقتلع غرس الامامة وانتم اصلحكم الله اعظم نصيباً في الدين من الاعمش فقد شتموه * ومن شريك فقد عزلوه * ومن هشام بن الحكم فقد اخافوه * ومن علي ابن يقطين فقد اتهموه * فأما في الصدر الاول فقد قتل زيد بن صوحان العبدي * وعوقب عثمان بن حنيف الانصاري * وخفي حارثة بن قدامة السعدي * وجندب بن زهير الازدي * وشريح بن هانيء المرادي * ومالك بن كعب الارحبي * ومعقل بن قيس الرياحي * والحرث الاعور الهمداني * وابو الطفيل الكناني * وما فيهم إلا من خر على وجهه قتيلا * او عاش في بيته ذليلا * يسمع شتمة الوصي فلا ينكر * ويرى قتلة الاوصياء واولادهم فلا يغير * ولا يخفى عليكم حرج عامتهم وحيرتهم كجابر الجعفي * وكرشيد الهجري وكزرارة ابن اعين وكفلان وابي فلان ليس إلا أنهم رحمهم الله كانوا يتولون اولياء الله * ويتبرؤن من اعداء الله * وكفى به جرماً عظيماً عندهم * وعيباً كبيراً بينهم * وقل في بني العباس فانك ستجد بحمد الله تعالى مقالا * وجل في عجائبهم فانك ترى ما شئت مجالا * يجبى فيؤهم فيفرق على الديلمي والتركي ويحمل إلى المغربي والفرغاني * ويموت امام من ائمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته * ولا تجصص مقبرته * ويموت ضراط لهم او لاعب * او مسخرة او ضارب * فتحضر جنازاته العدول والقضاء * ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاه * ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً او سوفسطائياً ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً ومانوياً ويقتلون من عرفوه شيعياً *

ويسفكون دم من سمي ابنه علياً * ولو لم يقتل من شيعة اهل البيت غير المعلي ابن حبيش قتيل داود بن علي ولو لم يحبس فيهم غير ابي تراب المروزي لكان ذلك جرحاً لا يبرأ * ونائرة لا تطفأ * وصدعاً لا يلتئم * وجرحاً لا يلتحم * وكفاهم ان شعراء قريش قالوا في الجاهلية اشعاراً يهجون بها امير المؤمنين عليه السلام ويعارضون فيها اشعار المسلمين فحملت اشعارهم * ودونت اخبارهم * ورواها الرواة مثل الواقدي ووهب بن منبه التميمي ومثل الكلبي والشرقي بن القطامي والهيثم بن عدي ودأب بن الكناني وان بعض شعراء الشيعة يتكلم في ذكر مناقب الوصي بل في ذكر معجزات النبي صلى الله عليه وسلم فيقطع لسانه * ويمزق ديوانه * كما فعل بعبد الله بن عمار البرقي * وكما اريد بالكميت ابن زيد الاسدي * وكما نبش قبر منصور بن الزبرقان النمري * وكما دمر على دعبل بن علي الخزاعي * مع رفقتهم من مروان بن أبي حفصة اليمامي * ومن علي بن الجهم الشامي ليس إلا لغلوهما في النصب * واستيجابهما مقت الرب * حتى ان هرون ابن الخيزران * وجعفر المتوكل على الشيطان لا على الرحمن * كانا لا يعطيان مالا ولا يبذلان نوالا * إلا لمن شتم آل أبي طالب * ونصر مذهب النواصب * مثل عبدالله بن مصعب الزبيري * ووهب بن وهب البختري * ومن الشعراء مثل مروان بن أبي حفصة الاموي * ومن الادباء مثل عبد الملك بن قريب الاصمعي فأما في ايام جعفر فمثل بكار بن عبد الله الزبيري * وابي السمط بن ابي الجون الاموي * وابن أبي الشوارب العيشمي * ونحن ارشدكم الله قد تمسكنا بالعروة الوثقى وآثرنا الدين على الدنيا وليس يزيدنا بصيرة زيادة من زاد فينا * ولن يحل لنا عقيدة نقصان من نقص منا * فان الاسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ كلمة من الله * ووصية من رسول الله * يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ومع اليوم غد * وبعد السبت احد *

قال عمار بن ياسر رضي الله عنه يوم صفين لو ضربونا حتى نبلغ سعفات هجر لعلمنا انا على الحق وانهم على الباطل ولقد هزم رسول الله صلوات الله عليه ثم هزم * ولقد تأخر امر الاسلام ثم تقدم * ألم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولولا محنة المؤمنين وقلتهم * ودولة الكافرين وكثرتهم * لما امتلأت جهنم حتى تقول هل من مزيد ولما قال الله تعالى ولكن اكثرهم لا يعلمون ولما تبين الجزوع من الصبور * ولا عرف الشكور من الكفور * ولما استحق المطيع الاجر * ولا احتقب العاصي الوزر * فان اصابتنا نكبة فذلك ما قد تعودناه * وان رجعت لنا دولة فذلك ما قد انتظرناه * وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آلة * ولكل مقامة مقالة * فعند المحن الصبر * وعند النعم الشكر * ولقد شتم امير المؤمنين عليه السلام على المنابر الف شهر * فما شككنا في وصيته * وكذب محمد صلى الله عليه وسلم بضع عشرة سنة فما اتهمناه في نبوته * وعاش ابليس مدة تزيد على المدد فلم نرتب في لعنته * وابتلينا بفترة الحق ونحن مستيقنون بدولته * ودفعنا إلى قتل الامام بعد الامام والرضا بعد الرضا ولا مرية عندنا في صحة امامته * وكان وعد الله مفعولا * وكان امر الله قدراً مقدوراً * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون * ولتعلمن نبأه بعد حين اعلموا رحمكم الله ان بني أمية الشجرة الملعونة في القرآن * واتباع الطاغوت والشيطان * جهدوا في دفن محاسن الوصي واستأجروا من كذب في الاحاديث على النبي صلى الله عليه وسلم وحولوا الجوار إلى بيت المقدس عن المدينة والخلافة زعموا إلى دمشق عن الكوفة وبذلوا في طمس هذا الامر الاموال * وقلدوا عليه الاعمال * واصطنعوا فيه الرجال * فما قدروا على دفن حديث من احاديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ولا على تحريف آية من كتاب الله تعالى ولا على دس

احد من اعداء الله في اولياء الله ولقد كان ينادي على رؤسهم بفضائل العترة ويبكت بعضهم بعضاً بالدليل والحجة لا تنفع في ذلك هيبة * ولا يمنع منه رغبة ولا رهبة * والحق عزيز وان استذل اهله * وكثير وان قل حزبه * والباطل ذليل وان رصع بالشبهة وقبيح وان غطى وجهه بكل مليح قال عبد الرحمن بن الحكم وهو من انفس بني امية :

سمية امسى نسلها عدد الحصا　　وبنت رسول الله ليس لها نسل

« غيره »

لعن الله من يسب عليـــا　　وحسيناً من سوقة وامام

وقال أبو دهبل الجمحي في حمة سلطان بني امية وولاية آل بني سفيان .

تبيت السكارى من امية نومــا　　ويا لطف قتلي ما ينام حميمها

وقال سليمان بن قتـــة :

وان قتيل الطف من آل هاشم　　اذل رقاب المسلمين فذلت

وقال الكميت بن زيد وهو جار خالد بن عبد الله القسري

فقل لبني امية حيث حلــوا　　وان خفت المهند والقطيعا

اجـــاع الله من اشبعتموه　　واشبع من بجوركم اجيعا

وما هذا بأعجب من صياح شعراء بني العباس على رؤسهم بالحق وان كرهوه وبتفضيل من نقصوه وقتلوه قال المنصور بن الزبرقان على بساط هرون:

آل النبي ومـــن يحبهـــم　　يتطامنون مخافـــة القتـــل

ومن النصارى واليهود وهم　　من امـــة التوحيـــد في ازل

وقال دعبل بن علي وهو صنيعة بني العباس وشاعرهم :

ألم تراني مـــذ ثمانين حجة　　اروح واغدو دائم الحسرات

ارى فيأهم في غيرهم متقسما وايديهم من فيئهم صفرات

وقال علي بن العباس الرومي وهو مولى المعتصم :

تأليت ان لا يبرح المرء منكم يتل على حر الجبين فيعفج
كذاك بنو العباس تصبر منكم ويصبر للسيف الكمي المدجج
لكـــل اوان للنبي محمـــد قتيل زكي بالدماء مضرج

وقال ابراهيم بن العباس الصولي وهو كاتب القوم وعاملهم في الرضا لما قربه المأمون :

يمـــن عليكم باموالكم وتعطون من مائة واحدا

وكيف لا ينتقصون قوماً يقتلون بني عمهم جوعاً وسغباً * ويملأون ديار الترك والديلم فضة وذهباً * يستنصرون المغربي والفرغاني * ويجفون المهاجري والانصاري * ويولون انباط السواد وزارتهم * وقلف العجم والطماطم قيادتهم * ويمنعون آل أبي طالب ميراث امهم وفيء جدهم يشتهي العلوي الاكلة فيحرمها * ويقترح على الايام الشهوة فلا يطعمها * وخراج مصر والاهواز * وصدقات الحرمين والحجاز * تصرف إلى ابن ابي مريم المديني وإلى ابراهيم الموصلي وابن جامع السهمي وإلى زلزل الضارب وبرصوما الزامر واقطاع بختيشوع النصراني قوت اهل بلد وجاري بغا التركي والافشين الاشروسني كفاية امة ذات عدد والمتوكل زعموا يتسرى باثني عشر الف سرية * والسيد من سادات اهل البيت يتعفف بزنجية او سندية * وصفوة مال الخراج مقصور على ارزاق الصفاعنة * وعلى موائد المخانثة * وعلى طعمة الكلابين * ورسوم القرادين * وعلى مخارق وعلويـــة المغني وعـــلى زرزر وعمر بن بانة الملهي ويبخلون على الفاطمي باكلة او شربة * ويصارفونه

على دانق وحبة * ويشترون العوادة بالبدر * ويجرون لها ما يفي برزق عسكر * والقوم الذين احل لهم الخمس وحرمت عليهم الصدقة وفرضت لهم الكرامة والمحبة يتكففون ضراً * ويهلكون فقراً * ويرهن احدهم سيفه * ويبيع ثوبه * وينظر إلى فيئه بعين مريضة * ويتشدد على دهره بنفس ضعيفـــة * ليس له ذنب إلا أن جده النبي وابوه الوصي وامه فاطمة وجدتـــه خديجة ومذهبه الايمان * وامامه القرآن * وحقوقه مصروفة إلى القهرمانة والمضرطة * وإلى المغمزة وإلى المزررة * وخمسة مقسوم على نقار الديكة الدمية والقردة * وعلى عرس اللعبة واللعبة * وعلى مربة الرحلة * وماذا اقول في قوم حملوا الوحوش على النساء المسلمات * واجروا لعباده وذويه الجرايات * وحرثوا تربة الحسين عليه السلام بالفدان * ونفوا زواره إلى البلدان * وما اصف من قوم هم نطف السكارى في ارحام القيان * وماذا يقال في اهل بيت منهم نبغ البغا وفيهم راح التخنيث وغدا وبهم عرف اللواط كان ابراهيم بن المهدي مغنياً وكان المتوكل مؤنثاً موضعاً وكان المعتز مخنثاً وكان ابن زبيدةمعنوهاً مفركاً وقتل المأمون اخاه * وقتل المنتصر اباه * وسم موسى ابن المهدي امه * وسم المعتضد عمه * ولقد كانت في بني امية مخازي تذكر * ومعايب تؤثر * كان معاوية قاتل الصحابة والتابعين * وامه آكلة اكباد الشهداء الطاهرين * وابنه يزيد القرود * مربي الفهود * وهادم الكعبة ومنهب المدينة وقاتل العترة * وصاحب يوم الحرة * وكان مروان الوزغ ابن الوزغ لعن النبي صلى الله عليه اباه وهو في صلبه * فلحقته لعنة الله ربه * وكان عبد الملك صاحب الخطيئة التي طبقت الارض وشملت * وهي توليته الحجاج بن يوسف الثقفي فاتك العباد * وقاتل العباد * ومبيد الاوتاد * ومخرب البلاد * وخبيث امة محمد الذي جاءت به النذر * وورد فيه الاثر * وكان الوليد جبار بني امية * وولى الحجاج على

المشرق وقرة بن شريك على المغرب وكان سليمان صاحب البطن الذي قتله بطنه كظه ومات بشما وتخمه وكان يزيد صاحب سلامة وحبابة الذي نسخ الجهاد بالخمر * وقصر ايام خلافته على العود والزمر * واول من اغلى سعر المغنيات * واعلن بالفاحشات * وماذا اقول فيمن اعرق فيه مروان من جانب * ويزيد بن معاوية من جانب * فهو ملعون بين ملعونين * وعريق في الكفر بين كافرين * وكان هشام قاتل زيد بن علي * مولى يوسف بن عمر الثقفي وكان الوليد بن يزيد خليع بني مروان * الكافر بالرحمن * الممزق بالسهام القرآن * واول من قال الشعر في نفي الايمان * وجاهر بالفسوق والعصيان * والذي غشى امهات اولاد ابيه * * وقذف بغشيان اخيه * وهذه المثالب مع عظمها وكثرتها * ومع قبحها وشنعتها * صغيرة وقليلة في جنب مثالب بني العباس الذين بنوا مدينة الجبارين وفرقوا في الملاهي والمعاصي اموال المسلمين * هؤلاء ابرشدكم الله الائمة المهديون الراشدون * الذين قضوا بالحق وبه يعدلون * الذلك يقف خطيب جمعتهم * وبذلك تقوم صلاة جماعتهم * فان كسد تشيع بخراسان فقد نفق بالحجاز والحرمين * والشام والعراقين * وبالجزيرة والثغرين * وبالجبل واليغارين * وان تحامل علينا وزير او امير فانا نتوكل على الامير الذي لا يعزل * وعلى القاضي الذي لم يزل يعدل * وعلى الحكم الذي لا يقبل رشوة ولا يطلب سجلا ولا شهادة واياه تعالى نحمد على طهارة المولد * وطيب المحتد * ونسأله ان لا يكلنا إلى انفسنا * ولا يحاسبنا على مقتضى عملنا * وان يعيذنا من رعونة الحشوية * ومن لجاج الحرورية * وشك الواقفية * وادجاء الحنفية * وتخالف اقوال الشافعية * ومكابرة البكرية * ونصب المالكية * واجبار الجهمية والنجارية وكسل الراوندية * وروايات الكيسانية * وجحد العثمانية * وتشبيه الحنبلية وكذب الغلاة الخطابية * وان لا يحشرنا على نصب

أصفهاني ولا على بغض لاهل البيت طوسي او شاشي ولا على ارجاء كوفي ولا على تشبيه قمي ولا على جهل شامي ولا على تحنبل بغدادي * ولا على قول بالباطن مغربي ولا على عشق حنيفة بلخي ولا على تناقض في القول حجازي * ولا على مروق سجزي * ولا غلو في التشيع كرخي وان يحشرنا في زمرة من احببناه * ويرزقنا شفاعة من توليناه * إذا دعا كل اناس بامامهم * وساق كل فريق تحت لوائهم * انه سميع قريب * يسمع ويستجيب *

«وكتب الى وزير صاحب خوارزم بعد محنته» :

فهمت ما ذكره الشيخ من توبة الدهر اليه من ذنبه * وخطبته لسلمه بعد حربه * وما يزال يتعرفه مذ انقشعت ضبابة المحنة * وانجلت غمرة الكربة * من صنع جديد في ظل يوم جديد لم نحتسبه * وعز مؤتنف في كل ساعة لم نحسبه * حتى لقد اشم روائح عود الحال إلى مائها الناضب * ورجوع الدولة إلى رسمها الذاهب * وهكذا تكون احوال المقبلين * فان الايام إذا غلطت فجنت عليهم * رجعت فاعتذرت اليهم * والزمان إذا حاربهم خطأ سالمهم عمداً فيستوفون في الحالين اجر المحنة * وزيادة بشكر النعمة * ثم يختم لهم بما هو بحالهم اليق وبمقاديرهم اوفق * والمحنة إذا كانت بعروض زوال فليست بمحنة * كما ان النعمة إذا انتظر بها التغيير فليست بنعمة * وانما الانسان من دهره في يومه فاما امسه فافل * واما غده فاسل * وكل غم سبب السرور فهو سرور * وكل ظلمة كانت طريقاً إلى النور فهي نور * ومن محاسن ايام المحن ان الانسان يعرف بها غش الاصدقاء * ويقف منها على اوزان الثقات والاولياء * ويميز بين من هو صديق البلاء * وصديق الرخاء * ومن فوائدها انها تعلم المرء مقدار العافية وتعرفه اخراج زكاة الجاه والدولة * وتحلي في فمه ما يجده بعدها من طعم السلامة * ومن منافعها انها تطلع الناس على مقادير قوم لولا المحنة لم يطلعوا عليها * وتظهر كفاية اناس لولا غيبتهم وحضور البدل منهم لم يهتدوا اليها والآن عرف الشيخ بحقيقته * ووزن بزنته * ووقف السلطان والرعية على تفصيله وجملته * بحضور غيره وغيبته * وانما يعرف حق الافاضل * من دفع بعدهم إلى عشرة الاراذل * ويشد يده بالخاصة * من ابتلي بعده بالعامة

وما اغلى الماء على من فقده * وارخصه عند من وجده * هذا وقد صقلت هذه الفترة خلائق الشيخ بالتجارب * ووضعت في يده مرآة النظر في العواقب * وهذبت افعاله من كل شوب * وغسلت عنه كل عيب * على انه لم يزل مبرأ من كل رذيلة * ومخصوصاً بكل فضيلة * ولكن الايام عملها في التعليم * وخاصتها في باب التنبيه والتقويم * فالحمد لله الذي رد إلى ذلك الامير جماله وبهاءه * وعمر بابه وفناءه * وسر شيعته واولياءه * وغم حسدته واعداءه ولم يفجعه بالعلق النفيس الذي لا يشترى بالأثمان * ولا يوزن بالميزان * ولا يكال بالقفزان * ولا يرى مثله في هذا الزمان * كما لم ير في سائر الازمان * ثم الحمد لله الذي حول كتبي من التعزية إلى التهنئة واخرج القاضي من ميدان الصبر * إلى ميدان الشكر * وجعلني رطب اللسان بالحمد لله * بعدما كنت رطب اللسان بانا لله * ثم الحمد لله الذي استجاب دعائي * ورحم بكائي وعلمني كيف تطلب الحاجات * ومتى تستجاب الدعوات * وعرفني ان الدهر غريم ربما يفي بما يعد * وحبلى ربما تتم فيما تلد * ثم الحمد لله الذي اراني اهل خوارزم وقد عرفوا رجحان من فقدوه بمن وجدوه * كما عرفوا نقصان من وجدوه بمن كانوا فقدوه * وانشدوا قول حنظلة بن عرادة التميمي :

عتبت على سلم فلما فقدتـــــه وعاشرت اقواماً رجعت إلى سلم

وقول دعبل :

وترجعني اليك وان تناءت دياري عنك تجربة الرجال

«وكتب الى رئيس سمرقند» :

وصل كتاب سيدي بعد ان كنت ظننت لتأخره ظنوناً اعيذه بل اعيذني بالله من ان تصدق بها فراستي * او تتحقق مخيلتي * وظن المحب متوزع * والشفيق بسوء الظن متولع * الكتاب الذي ذكر سيدي لم يصل * ولقد كان الناغد للجواب عنه موجوداً * والكاتب مشهوداً * والوقت بحمد الله تعالى ومنه طويلا ممدوداً * افهم غير المفهوم وليت شعري كيف سلط على كتبنا حتى اقتطعها دوننا سليك بن السلكة السعدي واوفى بن مطر المازني * وعمر بن براقـــق الهمداني والشنفري الازدي وتأبط شراً الفهمي والسمهري العكلي ومالك ابن الريب المزني وشطاط وبرجان وكعب حدر ومالك بن خزيم وعمر الكلب الهذلي * وجحدر البكري والمنتشر بن وهيب الباهلي * وابو النشناش الحنظلي * والقتال الكلابي * وابو حردبة والحطيم التميمي * واكتل ورزام الخربان * واسكاب والغداف القاطعان * وطهمان ومن مثل طهمان وعبد العزيز وعرقل التميميان ووبرة الغفاري وحاجر بن عمرو الازدي هؤلاء لصوص العرب وصعاليكها الذين كانوا يسلبون الناس سلباً * ويأخذون كل سفينة غصباً * واما بعد اليوم إذا كتبت إلى سيدي كتاباً قرأت عليه المعوذتين * وعلقت في جيده تميمتين * واخذت من حامله كفيلين * احدهما ذو الجناحين * والآخر ذو النورين * حاجتي في كذا قضيت بسيدي لا زال قيامه بالحوائج يحل ما يعقد * ويسهل ما يشدد * ولا زالت عنايته تفك اسيراً * وتيسر عسيراً * لا جرم لقد كتب على سجل رق * وقلد رقبتي له حقاً يوفى على كل حق * وان رجلا نقل هذا الدهر اللئيم من المذمة إلى المحمدة * وعلمه انجاز الموعدة * لرجل يحسن ان يغير الشيم * وان يعلم اللئيم الكرم * فلا زلت اتحمل لسيدي

عارفة تنضاف إلى سائر عوارفه * وآنف صنيع إلى سالفه * حتى تسود حواشي جريدة نعمه علي * واياديه إلي * فاعمل جريدة غيرها * واضيف اليهـــا مثلها *

* * *

« وكتب الى ابي سعيد احمد بن شبيب جوابا عن كتاب له ورد عليه يبشره فيه بخلاص وزير خوارزم شاه من المحنة » :

كان كتاب صاحب الجيش ورد مشحوناً ببشارتين * اوردتا فرحتين * اوجبتا شكرين * احداهما وهي كبراهما خبر سلامته * وسلامة احواله ونعمة الله تعالى عليه في جملته * والثانية خبر ما اتاح الله تعالى للوزير أبي فلان من الفرج الذي وافى بغتة * وورد على القلوب والاسماع فلتة * فما أدرى باية النعمتين كنت اكبر اعتداداً * واكثر بها لمحاسن الايام تعداداً * وبأيةالبشارتين كان سروري اكبر حجماً * واعظم جرماً * ولاية الفرحتين كان قلبي اطرب * ولساني بشكر الله تعالى ارطب * على ان سلامة صاحب الجيش وان كانت البشارة التي توفى على البشائر * والنعمة التي تربي على النعم البواطن والظواهر فانها جرت مجرى الثيب إذا كانت متطلعة متشوقة * ومتوقعة متوكفة * وردت على شيخ ينتظر موردها * وعلى قلب يتنجز موعدها * وخبر نعمة الله تعالى على ذلك الوزير وقد جرى مجرى بيضة العقر * وقام سماعه مقام افتراع البكر * ورد والقلوب فيه غير طامعة * والنفوس اليه غير منازعة * واليأس قد ارتج باب الرجاء * والبلاء قد نسخ آيات الرخاء * وطول ايام الفترة * قد هزم بجيش ألهم جيش المسرة * وكان نعمة خرجت من بيت نقمة * وفرحة نبتت في

ارض غمة * وخبراً ساراً مر على اذن طالما قرعها خبر البلاء * وعلى عين طالما باتت على السهر واصبحت على البكاء * والسرور إذا خرج من الكمين كان انفس للزينة * والضحك إذا وجد في ساعة البكاء كان اغرب في السماع والرؤية * والحمد لله الذي جعل صاحب الجيش يهدي البشائر إلى مضاعفة * وينعم على النعم متراكمة مترادفة * ويورد على خبر سلامته في نفسه التي هي اعز النفوس علي * ممزوجاً بخبر سلامة احب الناس بعده إلى * لتكون ريح المسرة قد هبت علي جنوباً وشمالا * وجناح الانس والطرب قد رفرف حولي يميناً وشمالا * كأن الخيرات لا تعرف طريقاً إلي إلا من بابه * وكأن البشائر لا تحسن ان تطلع علي إلا من كتابه وخطابه * وفهمته وعظم اعتدادي بمورده لصاحب الجيش على اني لو انصفته لشكرته بلسانين * واحببته بقلبين * ركتبت بيدي بقلمين * وواليت ايامه ودولته بنفسين * كما انه يحسن إلي من جهتين * ويبشرني من جانبين * ويهدي إلي الهدية ذات الطرفين * فأما ان نعمته علي مثنى مثنى * ومكافاتي له عنها فرادى * فتلك اذن قسمة ضيزي ولكن متى استوفى فعل محسن وحال شاكر * ومتى ربح رئيس على شاعر * ومتى استوى من يطلب سائلا * ومن يطلب نائلا * لاعدمت صاحب الجيش سيداً وسنداً * ومدداً وعضداً * وركناً مؤيداً * وسناناً محدداً * وسهماً مسدداً * وسيفاً مجرداً مهنداً * وجنداً مجنداً * وعزاً مؤبداً سرمداً * ولا خلوت منه ابداً *

* * *

«وكتب إلى خوارزم شاه» :

ورد علي كتاب الامير مع فلان فلا أدري ايهما كان اشد أسروري بالرسول

ام سروري بالمحمول * وفهمته ولما عرضته على اصدقائي * صار يحسدني عليه اعدائي * فاما اجتلوا محاسن الكلام بقلوبهم * ومحاسن الخط بعيونهم علموا ان بخوارزم قوماً من النجار الافضل * ومن الطراز الاول * إذا اخذوا الاقلام كتبوا * واذا اخذوا السيوف ضربوا * وان كان الامير رأس الجريدة وفارس الكتيبة ونكتة المسئلة وطراز الكسوة ووجد الرزمة وصدر الدست * واول التخت * وخال الخد ودق الدق ولب اللب ويحسب الامير ان هذا الكتاب وافاني ليلا فاحببت له الليل حب كثير عزة وعشقته عشق جميل بثينة وابغضت له النهار بغض العاشق الفراق * وبغض العروس الطلاق * ولقد تركت الاسماع به مشحونة * والقلوب مفتونة * واتاني خلال ذلك فرح لا يسعني جالدي منه فرحاً * ولا تحملني اعواد سرجي مرحاً * فانشدت :

وإذا نظرت إلى اميري زادني ضناً به نظري إلى الامراء

ولقد قال لي من لا يدع فضلا الا تنقصه * ولا جميلا إلا غمصه * هذه كتابة الوزير * لا كتابة الامير * فقلت له ما زدت على ان جعلت الفضل خادمه والكمال تابعه * ومن خدمه الفضلاء فقد خدمه الفضل * ومن تصرف في عمله العقلاء فقد تصرف له العقل * وكيف يخدم الفضلاء غير فاضل * ام كيف يرضى الكملة بالمقام على غير كامل * واصدرت الجواب إلى حضرة الامير عمرها الله تعالى بوفود الرجاء * وملأ رحابها وابوابها برسل الملوك والرؤساء * وصرف اليها زمام كل رغبة * وثني نحوها عنان كل رهبة * وجعلت هذه الاحرف جنيبة للجواب وجنائب القول من جنائب الخيل .

«وكتب إلى العامل على البريد بالاهواز» :

كنت ظننت بك يا اخي ظناً كذبه قبح فعلك * وضعف هجرك ووصلك * فانك تعمل فيهما على قياس واجب ولا تصبر منهما على طعام واحـد فلا جرم لقد رجعت في ودي لك وما كنت ارجع في هبة * وندمت على ثقتي بك وعهدي بي ان لا أندم على حسنة * وهذا ايدك الله تعالى رزقي من كل من اصفيته حبي * ووضعت في يديه قلبي * فأنا ابداً بين صديق اشكوه وقد كنت اشكره * واعذله وقد كنت اعاذره * وارتجع قلبي منه كرهاً وقـد سلمته اليه طوعاً حتى لقد اشتغل قلبي بخوف الاصدقاء * عن خوف الاعداء * واشتغل شعري بالعتاب عن المديح والهجاء * حتى لقد صرت اعد سوء الظن حزماً وارى المساهلة غبناً واحسب المكافأة على القبيح عدلا * ومعاشرة الناس بالغش عقلا * وان كان هذا ليس جميلا فأنا فيه تلميذ اصدقائي وهم في الحمد عليه شركائي *

* * *

«وكتب إلى أبي حامد بن روزبه اديب قومس» :

وصل كتاب شيخي مكتوباً بخط ينطق بغير لسان * ويفصح من غير بيان * احسن من كل شيء غير كلام صاحبه * والطف من كل شيء غير اخلاق كاتبه * القصيدة قد حفظتها لما لحظتها * ورويتها لما رأيتها * ولو اجبت عنها * لسرقت الجواب منها * إذ كانت قد جمعت نشر البديع * وضمت اطراف الرصف والترصيع * ولو فعلت ذلك لكنت قد اهديت إلى شيخي من ماله وخلعت عليه من يده وضربته بسيفه على أني قد طلقني الشعر ولا أقول

طلقته وانما الشعر بالطرب * او بالرغب او بالرهب * وما بقي شيء يسر به فاطرب * ولا بقي كريم فارغب * ولا بقي وجل فارهب *

* * *

«وكتب إلى أَبي زيد جواباً عن كتابه » :

وصل يا ولدي كتابك القصير نجداً * المختصر جداً * وفهمته ذكرت انك مشتاق إلى اللقاء * ومستبطىء في ذلك القدر والقضاء * والمسافة بيننا صغيرة البقعة * ضيقة الرقعة * إذا ذرعت بذراع الهوى * ومسحت بيد الذكرى وهي بعيدة إذا مسحت بيد التسلي * ونظر اليها بعين التغافل والتناسي * والبعيد قريب إذا التقى العزم والتوفيق * كما ان القريب بعيد إذا التقى التفريط والتعويق فلا تتعلق باذناب العلل * لو صح منك الهوى ارشدت للحيل *

* * *

«وكتب إلى أَبي حامد ايضاً الاديب بقومس» :

ورد علي كتاب الشيخ وهو اعز كتاب علي الا أنه كان صغيراً كأيام لقائي له * قصيراً كمدة انسي به * على انه لا قليل من البر * ولا صغير من الذكر * على ان صغير البر الطف واطيب * كما ان قليل الذكر اشهى واعذب * عاتبني الشيخ عتابا انساني الرعد القاصف * والريح العاصف * والبرق الخاطف * واردت جوابه فعقل لساني عنه ذكر ايام تفض العزائم * وتسل السخائم * وما كل انسان يعطي السلطان على قلبه فيقلبه * وعلى شيطانه فيغلبه * فلم نزع

شيخي قميصا من حسن العشرة ولم يزل يلبسه * واطلق لسانا لم يزل يحبسه * انا بكتاب شيخي اذا ورد علي اشد سرورا من المشتاق الى التلاق * بعد طول الفراق * ومن العاشق بالعناق * ومن الاسير بالاطلاق * ومن الفارك بالطلاق فيلتحفني به * وليؤهلني له * ان شاء الله تعالى

* * *

«وكتب اليه أيضاً» :

كتبت الى شيخي كتابا سامحت فيه يدي وخاطري * وغالطت في انتقاده قلبي وناظري * لان رسوله كان اعجل من عامل حضر مشخصه * ومن حاج لم يبق بينه وبين الموقف سوى ليلة * او بياض غدوة * وهو على فراسخ بعيدة * وفرق مطية بليدة * ومن منهزم رأى خلفه سواد الطلب * وخاف عاقبة فوات الروح والسلب * ومن الحشري يوم الجمعة وقد سمع الآذان * وركب السلطان * فلازمني حتى ضغطني ضغط الغريم * وضبطني ضبط الخصيم * وشغلني عن بسم الله الرحمن الرحيم * فكتبت ويدي ترتعش * وقلبي ذهل دهش * وانا ارى لشيخي ان يستعمل هذا الرسول في جباية المال * واستحثاث العمال * واجتلاب الصدقات والجوال * فانه يحاسب على اللحظة * ويضايق في اللفظة * ويتقاضى تقاضيا يزهق النفس * ويقطع النفس * فلو عرف ملك الموت سره * لجعله خليفته وفوض اليه امره * فانه اكره منه لقاء * واشد اقتضاء * وحاجتي ان لا يرده شيخي الى فاني ارحم الارض من ثقله * واحب بطنها وابغض ظهرها من اجله * والسلام .

* * *

«وكتب تعزية إلى أبي بكر»

بلغني ما قاساه شيخي ايده الله تعالى في هذه المصيبة من غم يشكي * بل يبكي * وجزع يضني * بل يفني * والموت خطب ثقل حتى خف وكثر حتى قل وهان علي الباقي لما رآه بالماضي وعلى المعزي لما نظره في المعزي ودخل الجميع تحت قول المتنبي :

يدفن بعضنا بعضا ويمـــشي اواخرنا على هام الاوالي

وشيخي اعرف بالله * واقرأ لكتاب الله * واروى لاخبار رسول الله * من ان يتأدب بغير ادب الله * ولا يسلم لقضاء الله * ولكن لمفاجأة المصيبة لذعة يستراح منها الى مباثة الصديق * والى تسلية الاخ الشقيق * فقد يأنس المريض الى العائد وان علم انه لا يملك شفاءه * ولا يدفع بلاءه * جعلنا الله تعالى ممن يتنجز بالصبر ما وعده من البشرى * والصلوات والرحمة والهدى فانه تعالى ذكره ذكر الصابرين فقال اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون * والهمنا العزاء عما استأثر به * والشكر على ما اخلف منه والسلام

* * *

«وكتب إلى أبي سعيد رجاء بن الوليد الاصفهاني» :

كتابي وقد عفا بيننا رسم المكاتبة والمراسلة * ونسي اسم المطالعة والمواصلة * والذنب في ذلك لاحدنا فان كنته فمني المعذرة * ومن الشيخ الصفح والمغفرة * وان كان هو فقد عذرته قبل ان يعتذر * وغفرت ذنبه قبل ان يستغفر *

وطفقت عليه بنصبي لساني نائبا عنه * وخليفة له * ورد ولدي فلان فنظرت منه وفيه الى ابيه ورأيت الايام قد كسته رداء جمال وكمال * وصقلته بيدي اقبال واقتبال * وخرجت نجيبا اخجل النجباء * وابنا احيا الآباء * ورأيته :

يطلب شأو امرأين قدما حسنا ... بذا الملوك وفاتا هذه السوقا
هو الجواد فان يلحق بشأوهما ... فمثل ما قدما من صالح سبقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل ... على تكاليفه فمثله لحقا

وما اجم هذا الولد النجيب على سبقه الى المدى * وعلى ارتفاعه في الذروة العليا * وقد رسخ عرقه في تلك الدرة الكريمة * وفرعت غصونه على تلك الدوحة العميمة * لا بل لو اقام عل مربط الشيخ فرس لما اعتددت له ان يكون جوادا * ولو بات في خزانته سيف لما شكرته على ان يكون حساما * فكيف بولده * ومن هو قطعة من كبده * كانت الايام امتعتني بلقاء الشيخ مديدة قصيرة كان نهارها لقصره ظهرا وعصرا * وليلها عتمة وفجرا * فلما شكرتها رجعت فيما وهبت * وندمت على ما صنعت * وذلك رسم اللئيم فانه اذا شكر على احسان غلط به تنبه للؤمه فاساء * وندم على ما سببه من المسرة فساء * والكريم اذا شكرته قابل الشكر بالمزيد * وتجاوز الصنع القديم الى الجديد * فان عادت الايام بمثل تلك الغلطة * وظفرت بتلك الفلتة * كتمتها شاني * وشكرتها بضميري دون لساني * بلغني خبر تلك العثرة التي كانت عينا اصابت الاحسان وعيبا لحق الزمان والسلطان * فزاد ذلك في جراح الايام بي * وفي وقائعها بقلبي * ثم تذكرت ان الدولة للمحسنين * والعاقبة للمتقين * وان الدهر يخطىء ثم يصيب * ويذنب ثم يتوب * لا يبخل على الشيخ بكتبه فلو لم استفد منها الا خبر سلامته لكانت الضالة التي تطلب * والعلق الذي لا يعار ولا يوهب * فكيف وفيها الفاظه التي تشرق العجوز الى شبابها * والشابة الى احبابها * فما قرأتها قط الا حسد طرفي لساني على لفظه * وحسد لساني

طرفي على لحظه :

فوالله ما ادري ازيدت ملاحـــة * على الخلق ام رأى المحب فلا ادري

وانا وان كنت شاعر اللسان فلست شاعر الخلق * ولا شاعر الوفاء والصدق * ولا شاعر الصداقة والود * ولا شاعر الديانة والعقد * لا تتلون اخلاقي الوانا ولا اكون على صديق ومن يشكو الي زمانا * ولا اكون اخاه ايام دولته * وعدوه ايام عطلته * وقد غشت المرؤات * وانثلمت المودات * ومات الوفاء والثبات *

* * *

«وكتب إلى ابن العميد الحاكم» :

كتابي الى الشيخ عن سلامة تهنأتها منذ ورد علي خبر سلامته * ونعمة اسبغت علي منذ وقفت على ما اسبغه الله تعالى عليه من نعمته * ورد علي كتاب الشيخ الذي كل سطر من سطوره كتاب * وكل لفظة من الفاظه باب بل ابواب * المفيد باطنه وظاهره * البديع اوله وآخره * الذي ما ورد علي الاحسدني عليه من رآه بيدي * وود انه لو كانت عيناه عيني * وعلم اني قد حوبيت في الحظوظ بقسم وافر * وانه قد حصل منها على غبن ظاهر * لا زال الشيخ ابا عذر كل كلمة سائرة * وكل فعلة نادرة * ولا زالت اخلاقه مظنة لحفظ العهد * ومحطا لرجال الحمد * وشريعة مورودة لزوار المجد * وبابا مفتوحا لمستخرجي الرفد * فلان قد غضب علي وما اعرف لي ذنبا * يستوجب منه عتبا * ولا انسبه مع ذلك الى التجني * ولا اضع فعله موضع الظلم والتعدي * ولكن من الذنوب ما يظهر لمن رآه * ويخفي على من جناه * وقد يرى الانسان من عيب غيره * ما

لا يراه من عيوب نفسه * ولذلك قيل :

ان المرائي لا تـــــــــريـــ   لك عيوب وجهك في صداها
وكذاك نفسك لا تري   لك عيوب نفسك في هواها

اسأل الشيخ ان يرد على من صلحه ما فقدته * ويوجدني من عفوه ما نشدته * ليكون قد صار طبيبا لاخلاق اخوانه يداويها من داء الهجران * ويصلحها من فساد الزمان *ولتكون نعمه علي متفرقة اغصانها * ومتلونة الوانها * فان النعمة اذا تكافأت مذاهبها * وتعادلت جوانبها * اتسع فيها مجال الشكر والذكر * وطالت فيها خطوة النظم والنثر *

* * *

«وكتب إلى أبي القاسم الابي البندار» :

خرج الشيخ الى ناحيه عمله خروج السارق * لابل خروج الآبق * قد كتم اخوانه حاله * ولم يستكفهم اشغاله * وخصني من بينهم بالقسم الاوفر من الكتمان * لا بل بالقسط الاوفر من الحرمان * وما كان يضره لو صحبت ركابه * وكثرت بسوادي اصحابه * وقد الزمته الذنب دوني * وان كان مقسوما بينه وبيني * كان ينبغي لي ان اقيم على بابه حارسا * وبكل درب من دروب محلته فارسا * واتعرف خبر رحيله * واقف على كثير ما يأتي وقليله * اذا رحل شيعته بجسمي مرحلتين * وبقلبي مائتين * على ان قلبي قد شيعته حيث هو معه فليتفضل برده علي * ولينفذه بل يقدمه رسولا قاصدا الي * فان غاية المشيع ان يرجع * وعاقبة الضيف ان يودع * ولا يأخذ قلوب اصدقائه في مرافق اعماله ولا يكثر بمشيعيه سواد أضيافه ولا يتركني بلا قلب فاني احتاج في مكاتبته الى قلوب وللنظر في كتبه الى عيون وللصبر على فراقه الى نفوس

ولا يقل هو عندي تذكرة منك * ونائب على بابي عنك * فانما يحتاج الى التذكره من ينسى * والشيخ بحمد الله تعالى لا ينسى ولا ينسى *

* * *

«وكتب إلى أبي سمكة بقم»:

انا الح على شيخي في السؤال * واتجاوز حد الادلال * الى حد الاملال * لان الذي اسأله لا يوجد منه عوض * ولا يقوم عنه جوهر ولا عرض * ومن طلب خطيرا * احتمل كبيرا * وعلى قدر نفاسة المتاع رغبة المبتاع * وبحسب عظم النائل * ضراعة السائل * وليس يرد كتاب شيخي على من هو اضمن مني به * ولا ارغب مني فيه * ولااروى مني له * ولا اشكر مني عليه * ولا اتوق مني اليه * واظن شيخي يستخشن مس عتابي له وعتاب عن قلب نقي وصدر بري خير من ملق فوقه برد سابري وتحته غش خفي فقد يكتم البغض في زوايا الهوى * وقد ينبت المرعى على دمن الثرى * ولولا اني قد اصبحت تحت نعمة الشيخ مستورا * واصبح لساني بعدها مقصورا * لسألته كتاب كذا ولكني الى الخروج من الحواصل * احوج مني الى طلب النوافل * ولقد نقص شيخي الى الادباء * وصغر في عيني العظماء وصارت اخلاقه لي مرآة ارى فيها الحسن والقبيح * واتبين فيها السقيم والصحيح * وثمرة الادب العقل الراجح * وثمرة العلم العمل الصالح * فاما ادباء اهل زمامنا فتطرقوا بالادب الى الجهل * فحصدوا النقص من زرع الفضل * لا نعدم في كل زاوية منهم صغيرا يتكبر * وقليلا يتكثر * لا يفيد من دونه بخلا * ولا يستفيد ممن فوقه جهلا * ولو تعلم لعلم جهله * ولو علم لحفظ علمه * والبخل وحده قبيح فكيف اذا قارنه

الجهل * والجهل بنفسه نقص كبير فكيف اذا كان معه البخل * ومن عجائب البخل انه داء يعدي فان الجواد يبخل اذا بخل عليه * ويتحول داء غيره اليه * فشر الادواء داء اعدى * وشر العيوب عيب تعدي * امتع الله تعالى شيخي بمحاسنه التي هي مبيت المدح ومقيله * وغرة الدهر وتحجيله * واطال بقاءه * وجعلني فداءه *

* * *

«وكتب إلى أبي بكر النحوي اديب الجبل واصبهان» :

بذلت في حاجة الاديب مجهودي * واليه تنتهي غاية جودي * فان اكن بلغت منها رضاه * فذلك الذي اريده واتحراه * واتكن الاخرى فالرمية قصرت عن الرمية * والسعي وقع دون مقتضى الامنية والنية * فانما الذنب لرسوله الذي زعم انه اكفى * وقال لي حسبك وكفى * فان الطبيب يخرج من الدواء * مقدار ما يشكى اليه من الداء * ذكر الاديب في كتابه ان سوق الادب كاسدة وانما الكاسد ما اشترى بدون قيمته * وقرب ربح تجارته * فاما ما لايشترى ولا يكترى ولايذكر ولا يسمى فقد تجاوز الكساد * وبار بل باد * كتاب شيخي اذا ورد بخطه نظرت منه الى روضة البصر * والى نزهة الفكر * ورأيت منه جمالا يراه القلب قبل الطرف * وشممت منه ريحا تشمه الروح قبل الانف * واني اشتاق الى وروده على شوق المهجور الى الوصل * والغائب الى الاهل * فاذا انقطع عني * وانقطع دوني * ثكلت املي * وفجعت بسروري وجذلي * وغزى بعساكر الهم صدري * وخلا لها ظهري وشيخي يتفضل فينظم الطرق الي به * ويكون شفيعي الى لسانه وقلبه * ان شاء الله تعالى

* * *

«وكتب إلى أَبي بكر بن شيمرد»:

لو علمت بخروج الشيخ لاخذت بحظي من حلاوة تشييعه * ومرارة توديعه * وقمت بالواجب علي من الاخذ بركابه * ومن تسوية ثيابه * على اني لو شيعته لأصبحت مشيعا وصديقا * وامسيت معه صاحبا ورفيقا * ولما تركني الشوق ارجع عنه * ولا خلاني اخلو منه * وكنت اصير زيادة في اشغاله * بل زيادة في عياله * فاذا انا قد طلبت الاحسان فاسأت * وارتدت الصواب فاخطأت ولقد تركني الشيخ بجميل عشرته * وكريم صحبته * ابغض كل من احببته * واباعد كل من قاربته * وكأنه انما بعث الي * ليفسد الاخوان علي * فقد ضيق خلقي * وان كان وسع رزقي * وافسد افعالي * وان كان اصلح احوالي * ومن العجب وجود الحر في هذا الزمان الذي صار فيه اللؤم سنة متبعة * واصبح الكرم بدعة مبتدعة * ورخص الثناء حتى ما يبتاع * وغلا السخاء حتى ما يباع * والكلام في هذا الباب شرط بطين يستهلك الناس مع عزته * ويستفرغ الفراغ مع قلته * واني لاعتب على شكري للشيخ وانسبه الى النزارة وهو غزير والى الصغر وهو طويل عريض ولقد شكرته شكرا لو شكرت الزمان به لاصبح لي شتاؤه ربيعا * وجدبه خصيبا مريعا * ومدحته مدحا لو مدحت به الفلك لما دار الا بمرادي * ولا تصرفت بروجه الا على اسعادي * ولا سعى الا في مصالح معاشي ومعادي * وليس يخلو شكري لصنيعةسيدي ان يكون دونه أو فوقه أو مثله فان كان دونه فالظن بمثل الشيخ ان تكون يده العليا على من عامله * وصنيعته الراجحة على شكر من شكر له * وان كان فوقه فقد ربح على الشيخ فليردني الى رأس المال * فان ربح الرؤساء

على الشعراء من المحال * وان كان مثله فقد اخذ مني مثل ما اعطى واستأداني كفاء ما ادى فليستأنف الآن برا * استأنف شكرا * وليجدد نعمه * اجدد خدمه * هذا أيد الله الشيخ مزاح حمل عليه بطر الغني والشيخ هو الذي اغناني فليتحمل بطري وهذياني وكيف احاسب من نفسي بعض صنائعه الي * وروحي بعض ودائعه لدي ومن افعاله الجميلة عندي تغنى كل حساب * وتملأ كل كتاب * الشيخ صاحب الديوان رفعت اليه حاجتي فاستقبلني بوجه مانع * فوليته قفا صبور قانع ليعلم ان الكريم الوف عروف * وصدوف عروف * يشكر على اليسير * وتلطف نفسه على الكثير * نسخة الرسائل قد حملتها وما تساوي عندي ان تهدى الى احد * او تحمل من بلد الى بلد * ولكن الشيخ اشتهاها شهوة راكب الخيل لركوب الحمار والبغل * وشهوة آكل الطبيخ لآكل الخل والبقل * وتطرف بطلبتها تطرف الغني بلبس الوداري وهو غريق في الوشي والعتابي وقادر على الديباج الخسرواني ولعله اراد ان يضحك منها ندماءه * ويتحف بها جلساءه * فتكون بابا من ابواب الهزل * او جنسا من اجناس النقل .

* * *

«وكتب إلى الوزير بالحضرة» :

ما اقرب الاشياء حين يسوقها قدر وابعدها اذا لم تقدر

كانت ايد الله الشيخ حاجتي في وعاء المطال * وفي ضمان الايام والليال * فماكسني فيها الزمان * وارجف لي بها الاخوان * قد اخلق ثوب الرجاء لها حتى تمزق * وتراجع حسن الظن بها حتى تمحق * وطابت النفس عنها *

بيد الياس منها * حتى دفعت زمانها الى الشيخ فانشطها من عقال التعذر * واقامها من صرعة التعسر * وقضاها قضاء سبق الاقتضاء * ونسخ باليقين الرجاء * فكان غيثا سبق صيبه دعوة المستسقى * وماء سيحا قد كفى مؤنة المستقى * وانما كنت ايد الله تعالى الشيخ مجدا على الطريق مطروحا * وبابا من ابواب المكارم مفتوحا * لا المجد يحصل * ولا الباب يدخل * حتى كانت يد الشيخ اول من جنى تلك الباكورة * واحتوى تلك المكرمة المذخورة * فالحمد لله الذي وفقه لحفظ ما ضيعوه * ورفع ما وضعوه * ولقد اشترى من الشكر سلعة قليلة الطلاب فيا ليت اللئيم يشم رائحة افعاله * او يلاحظ شخص خصاله * ويا ليت البخيل يعطي من رزقه * قيمة خلقه في سعته وضيقه * ويا ليت المخلف للوعد تصير المواعيد في رقبته * او حقائب على عاتقه * فلعلها اذا اثقلت ظهره * ضيقت صدره * فلا يعود بعدها الى وعد يخلفه * وحر يسوفه *

وليت رزق اناس مثل جودهم   ليعلموا انهم بئس الذي صنعوا

تأخر ما رسم الشيخ حمله من الرسائل لاني اردت ان يحصل بخط لا يورث العين قذى * ولا القلب اذى * ولولا اني رابع الكتاب والشعراء بالباء لا بالياء لما احتجت لتلك النسخة الى هذا الاحتشاد * ولناسخها الى كل هذا الارتياد * ولكني كابي الدميمة لا يألو جهدا في جودة كساها * وكثرة حلاها * يشتري لها المطوى والملوى * ويكسوها الديبقى والمروى * ويتجاوز في جهازها الفضة الى الذهب * والشعر الى القصب * ثم هو مع هذا كله خائف عليها ان ترجع اليه مطرودة * وعليه مردودة * ولو كانت بنته حسناء ولو انها من الثياب عارية * ومن الجمال كاسية * ومن الحلى عاطلة خالية * ومن وجهها حالية * لعلمه ان لها من نفسها شافعا لا ترد شفاعته * وبائعا لا تنقض بياعته * وبعد هذا كله فاني مقر على نفسي بالتقصير * ومستحق للوم الكثير * فان المحال اذا

نصر زاد بردا * وان الخطأ اذا احتج له صار عمدا * فلان قد اصحبته كتابي بالوصاية * وصنعت له ما يسعه رجاؤه وشكره من الرعاية * وارجو ان الشيخ لا يلوم من جر اليه حمد الاحرار بزمامه * ووقف الثناء والاجر على مدرجة بره وانعامه * وانما انا دلال من دلالي الشكر * وسمسار من سماسرة الثواب والاجر * ولم ارى لهذين السلعتين مشتريا اصح من الشيخ عقدا * ولا اجود منه نقدا * فجهزت اليه باعة البضاعة * ودللت علية الباعة * والسلام

* * *

«وكتب إلى تلميذ له» :

ان كنت اعزك الله تعالى لا ترانا موضعا للزيارة * فنحن في موضع الاستزارة * وان كنت تعتقد انك قد استوفيت ما كان لدينا * فسقط حقنا عنك وبقي حقك علينا * فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه * واستغنائه عن دوائه * وقد تجتاز الرعية على باب الامير المعزول فتتجمل له ولا تعيره عزله * ولو لم تزرنا الا لتربنا رجحانك * كما طالما رأينا نقصانك * لكان ذلك فعلا صائبا * وفي القياس واجبا *

* * *

«وكتب إلى حاكم نيسابور من اصفهان» :

وردت ايد الله تعالى الحاكم من الوزير على رجل يستطيل اليوم اذا بعدت عنه * ويستقصر الدهر اذا قربت منه ابدع في اكرامي بدائع لو كانت

كلمات لكانت امثالا . ولو كانت ابياتا لكانت افرادا . وكساني طرازا من الصيانة ضفت على ذيوله . ولاحت على صفحات احوالي غرره وحجوله .
وخاطبني بكلام كأنما خلق من خالقه حسنا ورقة . وكأنما اقتطع من كلامه لطفا ودقة . ووعدني مواعيد . في صحبة العدل والتوحيد . ورقاني في غاية تزلق رجل المنى . وتقصر دونها همم الورى . وتخجل خلفها الدرجات العلى اردت مطالعة الحاكم بهذه البشرى . واتحافه بشرح هذه النعمى الكبرى . ليعلم ان تلك الفترة كانت خيرة وغيرة . واذ هذه العاقبة كانت دولة وكرة . وان الدهر اوفانا كيل المسرة . كما اوفانا كيل المضرة . وتحمل الينا من الخير . مقدار ما تحامل علينا في المكر . ومهد لنا ايام اليسر . عدد ما مد لنا من ايام العسر . فقد انصف وهو ظلوم . وتكرم وهو لئيم .

«وكتب إلى محمد بن حمزة رئيس خوارزم» :

قد انتظرت من الشيخ ان يسبقني الى خطبة الوصل * كما لم يزل سابقا الى غاية كل فضل * فأبى كسله الآن اسبقه اليها * واغلبه عليها * فابتدأته بالمكاتبة حين ضاق مسلك الصبر * وحين اتسع مجال النزع في الصدر * وحين رأيت الحظ يضيع بين هيبتي وتغافله * والربح يذهب بين اشغاله وتشاغله * وقد بلغ الله تعالى الشيخ رتبة لا يضعه معها ان يتواضع * ولا يزيد في ارتفاع قدره ان يترفع * فليستدم نعمة الله تعالى عليه بان يرب مودات الاحرار اوفى ربابة * ويعمر ما بينهم وبينه أوفى عمارة * وليعلم ان عليه زكاة للشرف اخراجها انمى للمال * وابقى للحال * ومنعها تمحيق للوفر * وتعريض لحوادث الدهر * وليزد اخوانه على قدر زيادة الله تعالى عنده فان العادة مطلوبة * والزيادة في النفوس محسوبة * زاده الله تعالى مما عنده * واطلع عليه سعده * واعلى جده * وجعل حاسده عبده * ورد فلان هذه الناحية فملأ العيون جمالا * والقلوب كمالا * والاسماع مقالا * وغمر الاعداء فضلا والاولياء افضالا ونوالا * ورأينا في قميصه رجلا بل رجالا * وعجبت من ملك كيف سمح بمفارقة هذا الشخص النفيس لبابه * وخروجه من حيز اصحابه * ولقد ضيع منه ما لا يوزن به عوض * ولا يقوم مقامه عرض * وقدر انه يصيب في كل زاوية من يسير في اقسام النجابة * ويجمع بين الفروسية والكتابة * فاذا به على النقصان وهو ينتظر الزيادة واذا هو يلتزم خراجا ويحسب انه يحصل الغلة واسأل الله تعالى ان يصلح حال تلك البقعة فاني اراها تلفظ الرجال * وتنفي عن نفسها الكمال * وان امرأ تعق منه الآباء والاجداد * ويخالف به تدبير الاولياء والبلاد * لحقيق بان لا تخشى فاتحته * ولا ترجى عاقبته *

* * *

«وكتب إلى أبي سعيد رجاء بن الوليد الاصفهاني» :

وصل إلي كتاب الشيخ وعققته * إذ لم أطر فرحاً لما رأيته * ولم انطح الفلك فخراً وعجباً لما فككته * ولقد استخفني الفرح به واشتغلت بلحظه عن حفظه وتصرفت من فصوله في رياض سقتها الخواطر * لا الغيوث المواطر * وطلعت علي شمس البها * لا شمس الضحى * لا بل روضة الخط أحسن من روضة النبات لأن روضة النبات مداس للخف والحافر * وطريق للسابل والعابر * وتلحظها أعين اللئام * وتدوسها أرجل العامة والطغام * وهذه الروضة عن أكثر العيون مكنونة * وعن أكثر الأيدي مصونة * لا يرتع فيها إلا ناظر خاصي * ولا تمسها إلا يد نبيل سوي * قال ديك الجن :

لو كنت املك للرياض صيانة ... يوما لما وطىء اللئام ترابها

رأيت الشيخ يرفعني في خطابه إلى غاية تتقاصر عنها قيمتي * ولا تطمح نحوها همتي * فعلمت أنه يسلفني نعمته لأدخل في غرامه * وأصير واحداً من جملة أنعامه * وليكون قد تناولني بالبر من كل طرقة قولا وفعلا وجوهراً وعرضاً ولساناً وبياناً والله تعالى يكافئه ويكفيه * ويبقيه ويقيه * ويرينيه كما ارتجيه * ويريني ما أحب له فيه .

* *

«وكتب إلى الوزير أبي القاسم اسماعيل بن عباد رحمه الله»:

كتابي إلى الوزير وأنا على بعد الدار سالم في جملته * مستظهر على الأيام بدولته والحمد لله تعالى على سلامتي في سلامته * وصلى الله على سيدنا محمد

وعترته إذ رأيت كتاب الوزير وقد ورد على غيري غرت عليه غيرة الفحل على الشول * بل غيرة المرأة على البعل * ولوددت أن لم يكاتب به غيري * أو من يشكره مثل شكري * فاني مع استقصاري لنفسي في ذلك قد اتعبت الوراقين * بل اتعبت الكرام الكاتبين * وابقيت للخواطر والألسن شغلا طويلا * وطرحت عليها عبئاً ثقيلا * ولقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصارا * وكان ليلي بها نهارا * وساعاتي فيها سحارا * كما أن أيام فراقه ليال طوال * وليلة فراقه تعد بليال * وأني بعد صبري على فراقه لجلد على وقع سهام الهجر * واسع المجال في ميدان الصبر * ولقد أصابت عين الزمان وفائي وسلبتني حستي وهي جزعي بفراق اصدقائي * فاجرني الله تعالى على هذه المصيبة * ولا حرمني عليها جميل الأجر والمثوبة * لا يبعني الوزير وقد اشتريته بأهل الدنيا * ولا يبعدني عنه * وقد قربني الحب منه * ولا يبخل على بكتبه * فعهدي به لا يبخل علي بفضته ولا بذهبه * وليأنف من أن يكتب اسمه في جريدة البخلاء * بعدما صدرت به جرائد الاجواد والسمحاء * إن شاء لله تعالى .

* * *

«وكتب إلى أَبي الحسن الحكمي» :

أنا لأمر سيدي الشيخ ممتثل * ولتبلة مراده مستقبل * ولكن فلان طرقني والشوق قائده * والحب سائقه * فليوفر الشيخ علينا يومنا فلا يقدر أن يضمن لنا غداً وليعلم أنه من سلب أخاه ثوب الفرح * وأقامه من بين يدي الطاس والقدح * فقد قطع عليه طريق السرور * وقام بازائه مقام حوادث

الدهور وقطاع الطريق على الناس * أقل وزراً من قطاع طريق الطاس والكاس لأن الذي يأخذه أولئك من المال قد يصاب منه بديل * ويوجد إلى العوض منه سبيل * والذي يأخذه هؤلاء من العمر * ويقطعونه من أيام الدهر * لا سبيل إلى ارتجاعه * ولا التئام لجراحه اقتطاعه * هذا والضيف مولاي والمضيف عبده فهل يرى الشيخ أن افتات على مولاي * وأن أخالف هواه بهواي * وقد علم ما جاء في الأثر من ذم العبد إذا عصى مولاه * وخرج إلى سخطه من رضاه .

* * *

«وكتب إلى تلميذ له وقد ظهر عليه الجدري» :

وصلني خبر الجدري فنال مني وهيج حزني * وراع قلبي واسهر عيني * وهذه العلة وإن كانت موجعة * وفي رأي العين فظيعة شنعة * فانها إلى السلامة أقرب * وطريقها إلى الحياة أقصد * لأن عين الطبيب تقع عليها * ويد الممرض والمعالج تصل إليها * وإنما هي قرح نبهته الطبيعة ودم أثارته الحرارة وظاهر الداء أسلم من باطنه * وبارز الجرح أهون من كامنه * وهذه بعد علة تعم الأبدان * وتشمل الصبيان * وإذا كانت العلة عامة كانت أكثر طباً ودواء وأخف على القلوب أعباء * لأن النفس تستريح إلى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة ولعمري أنها تورث سواد اللون * وتذهب من الوجه بديباجة الحسن * ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة * والنفس الشريفة * وفي الشر خيار * ومن المحنة إلى المحنة صروف ومقدار * وإذا أخطأت سهام الأيام جانباً * وأصابت

جانباً * فقد سرت أكثر مما اساءت لأن الحسنة فيها تستعبد وتستغرب * والسيئة منها تنتظر وترتقب * ولست استطيع لك غير الدعاء * ولا أكلم في بابك إلا طبيب الأطباء * ولا أصانعه عنك إلا بالثقة والرجاء * لا أسأل صحتك * إلا ممن خاق علتك * وأرى لك أن تحسن ظنك بربك * وتستغفره من ذنبك وتجعل الصدقة شفيعك * واليقين طبيبك * وتعلم أنه لا داء أدوأ من أجل * ولا دواء أشفى من مهل * ولا فراش أوطأ من أمل * شفاك الله تعالى وكفاك * وسلمك وعافاك * وبلغك رضاك وحسبك به طبيباً وكفاك * .

* * *

«وكتب إلى فقيه من تلامذته» :

كتبت إليك من حضرة الغرائب والرغائب وهي حضرة الوزير وأنا متردد بين فائدتين من فعاله ومقاله * ورائع بين روضتين جاهه وماله * والحمد لله رب العالمين * وصلى الله على سيدنا محمد وآله اجمعين * انتظرت كتابك فتأخر وطلبت له عذراً فاعوز * وأخذت احتال صبراً عنك فاعجز * وعرضت معاملتك لي على الود بيننا فأباها * وقدمت أفعالك معي إلى القلب فما ارتضاها * فراجع رحمك الله تعالى ما طلقته من ودنا * واذكر أو تذكر ما نسيته أو تناسيته من عهدنا * واعلم أنك إذا أنفقت أصدقاءك واحدا واحداً أوشكت نفقتك أن تدعك مفلساً منهم * وخالياً عنهم * حملت إليك نسخة رسائل الوزير وهي كالحلقة لا يدري أين طرفاها * وكالشمس لا يفضل أولاها على أخراها * كلها خيار * وكل حروفها اختيار *

فأعرها من إذا استعارها منك قبل يديك * وإذا ردها عليك قبل رجليك وأعلم أن قدر هذا الكلام في الكلام كقدر صاحبه في الأنام * فلان قد نصب لنا الحبائل * وأراد بنا الغوائل * ولقد قرع باب البلاء ووطئ ذنب الحية الصماء * وأدخل يده حجر الأسود * وقعد لملك الموت بالمرصد ونطح برأسه الجبل * واستبطأ الأجل * وطرد العافية عن باب داره * وأنزل النحس في جواره * واستهدف لسهام الحتف * ووطئ على حد السيف * فلا جرم أصبح نقل كل لسان * وضحكة كل انسان * وحملت امهاته سفاتج إلى البلدان * وأجلت غيرة جهله عن أديمه وقد عرك * وعن ماء وجهه وقد سفك * وعن ستره وقد هتك * وهكذا يكون حال من عرض عرضه السقيم * وأصله اللئيم لمكر العقلاء * وقول الفصحاء * والسنة الشعراء * وأقلام البلغاء * وليس وراءه لسان تقرع به الآذان * ولا عرض يعارض به الأقران *

* * *

«وكتب إلى الملك لما اصيب بابنه عن خوارزم شاه» :

كتبت وأنا مقسم بين فرحة وترحة * ومردد بين محنة ومنحة * أشكو جليل الرزية * واشكر جزيل العطية * واسأل الله تعالى للامير الماضي الغفران والرحمة * وللامير السيد التأييد والنعمة * فان المصيبة بالماضي وإن كانت تستوعب الصبر * فان الموهبة في الباقي تستنفد الشكر * والحمد لله الذي كسر ثم جبر وسلب ثم وهب وابتلى ثم أولى وأخذ ثم أعطى كتب على المشرق خاصة بل على الدنيا كافة أن تطمس آثارها * وتظلم أقطارها

وتهب ريح الخراب عليها * وتنظر عين الكمال إليها * حتى ذبلت شجرة المملكة ووهن ركن الملة * وطرف ناظر الدولة * وانثلم جانب الدعوة ثم استدرك الله تعالى برحمته خلقه * فرد إلى الأمير حقه * وقرت الدولة في قرارها * وعادت النعمة إلى نصابها * وطلعت الشمس من مطلعها * ووضعت الرئاسة في موضعها * فانا الآن بين شكاية الأيام وشكرها وبين حرب الدهر وسلمه أبكي وأنا ضاحك وأضحك وأنا باكي العين إلا أن الضحك علي أغلب * والفرح إلي من الغم أقرب * لأن المصيبة ماضية * والنعمة باقية * رحم الله تعالى الماضي رحمة تهون علينا مصرعه وتبرد له مضجعه وتضاعف حسناته * وتمحوا سيئاته * وأعان الأمير على رعاية ما استرعاه وألهمه شكر ما أعطاه * وتولاه فيما ولاه * ووالاه جزيل ما أولاه * وأيد بالهيبة سلطانه * وثبت بالبقاء أركانه * وحرس من الغير زمانه * .

* * *

«وكتب إلى أبي منصور ملك الصغانيان يعزيه في عمه أبي سعيد»:

كتابي إلى الأمير وقد ملك الجزع صبري وعزائي * وجعل ناظري في اسار دمعي وبكائي * والقلب دهش * والبنان مرتعش * وأنا من البقاء في الدنيا مستوحش * والجفن غرق * والقلب محترق * وما اجتمع قبله غرق وحرق * للمصيبة التي ثلث عرش السلطان * وطمست نور الزمان * وجعلت الصبر سيئة * والجزع حسنة * والاسى سنة * والاسا بدعة * وحق لمن أصيب بمثل فلان أن يصاب بصبره * وأن يدفن معه الفرح في قبره وأن يجعل يومه تاريخاً لجدع أنف الكرم * وركود ريح الهمم * وانكسار

تاج العجم * وإذا تفكرت في عظم هذا النازل * واربائه على سائر المصائب والنوازل * انشدت :

فما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قوم تهدما

وإذا تذكرت بقاء الأمير وهو البقاء الذي لا وقع معه لخطب وإن كان مؤلماً * ولا خطة بعده لمصاب وإن كان مستعظماً * انشدت :

إذا مقرم منا ذرا حد نابه   تخمط منا ناب آخر مقرم

وإن بيت الأمير الماضي سلفه * والأمير الباقي أيده الله تعالى خلفه * لبيت عظيم المصائب * عظيم المواهب * محنتهم أجل المحن * ومنة الله تعالى عليهم أكبر المنن * ولن يسقط عرش مثل الأمير قائمته * ولا يخرب بيت هو بقيته * اللهم ارحم الماضي فانك رحيم بالكرام * منعم على أهل الإنعام واحفظ الباقي من عين الكمال * فانها أكبر آفات الرجال * وأنفذ سهام الأيام والليال * وأطل بقاءه فانه بقاء المجد * وادم عزه فانه عز الشكر والحمد * واجعل فداءه من لا يرضى بأن يكون فداءه * ولا يفتخر بأن يكون وجهه حذاءه *

* * *

«وكتب إلى أبي القاسم بن علي صاحب جيش الصغانيان» :

لم يزل يبلغني ما يرتفع على يد الأمير من الفتوح التي تفتحلها أبواب السماء * ويفوح منها روائح العز والسناء * في أولئك الأعداء الذين امتنعوا بشدة كلبهم * وقلة سلبهم * ومتاركة المسلمين قديماً لهم * ورضاهم رأساً برأس منهم * حتى لقد حقنت الدماء * وسكنت الدهماء * وأمنت السبل *

واجتمع الشمل * ورجع النافر * وعمر الغامر * واجتمعت الكلمة واتفقت البيضة وأغمد السيف وركز الرمح وقرت الأمور قرارها * ووضعت الحرب أوزارها * وهذا صنع لم يخص الله تعالى به أهل افق دون افق * ولا افرد بمزيته سكان غرب دون سكان شرق * إذ كانت النعم فيه عمت كل من عرف الإسلام وفضله * وعادى الشرك واهله * لا زال الأمير يرى كل يوم بسيفه فتحاً يعظم به الخطب * وتستبق فيه الكتب ولا زال الشرك من قتلاه * والنفاق من جرحاه * والفساد في الأرض من أسراه * حتى تملأ فتوحه كل سامع وناظر * وتشغل كل كاتب وشاعر *

* * *

«وكتب إلى فقيه في تعهد مسجد» :

أحق الأماكن بأن يصان ولا يهان * واولاها بأن ينحى عن مدرجة الاختلال ويرفع عن أن تتناوله يد الابتذال * مكان بني ليجمع شمل التعبد * ويضم نشر التهجد * وترفع منه الحوائج إلى من لا يضجر من السؤال * ولا يتبرم بكثرة السؤال * وهو الكبير المتعال * فان صيانة هذا المكان صيانة الدين * بل صيانة الإسلام والمسلمين * وكبت الكفر والكافرين * وما ظنك بموضع هو بيت من بيوت الله * ومظنة لقراءة وحي الله * تصف فيه الاقدام بين يدي الله * ويتميز فيه أولياء الله من أعداء الله * وهو من بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وهو مسكن من مساكن الأبرار * ومجلس من مجالس الأخيار * وحصن من حصون المسلمين على الكفار * وجسر بين الجنة والنار * دخوله عبادة * والمقام به سعادة * والاعتكاف

فيه سنة مستحسنة لا يخترقه كافر * ولا يقربه إلا طاهر * من عمره عمر طريق الآخرة ومن بناه بنى له بيت في الجنة * وبلغني ما أنت فيه من بناء مسجد محلتك * ضاعف الله تعالى لك عليه ثوابك * وأكرم مآبك ورضي عنك وتقبل منك * فتوسع رحمك الله في نفقتك فانما تعامل وتسلف كريماً سخياً * ولا تحاسب نفسك على دخلك وخرجك فانك بصدد اضعاف ذلك من الثواب * وانما يوفي المحسن أجره بغير حساب * وتذكر قول الله تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر

* * *

«وكتب إلى أبي شجاع بن محمد كاتب ابن قراتكين» :

كتابي وقد وجدت فلاناً لا يضر ولا ينفع * ولا يضع ولا يرفع * وانما هو مشط يقلبه خصي أصلع * وأن مجال الشكاية فيه لرحب وأن طريق المذمة عليه لسهل ولكني لا أقطع يدي بيدي * ولا أضرب بعضي ببعضي * ولا أرمي يسراي عن يمناي ولا أتباعد عمن قربني الأصل منه * ولا أضربه بالسيف الذي طالما ضربت به عنه * ورأسي رأسي وان كان أصلع وانفي مني وإن كان أجدع * وأما فلان فان المشرق عاطل هو حليته * وعريان هو كسوته * وجماد هو روحه * وأعزل هو سلاحه * وأخرس هو لسانه * لا فجع الله به عيني ولا قلبي فان عيني بعده لا تقر * كما أن قلبي بعده لا يسر *

«وكتب إلى رئيس نيسابور» :

أرجو أن الشيخ لا يلقى أمري بيد الأغفال * ولا يسلك بحاجتي طريق المطال * ولا يكلني إلى غيره في حاجة كتبتها عليه * ووضعت عنانها بيديه * فمن المحال أن استمد النهر * وأنا جار البحر * وأن أحتاج إلى النجم وأنا اسري في ضوء البدر * وقد كان الشيخ في تلك الحالة الأولى أمهل * حتى كأنه أهمل * وتغافل حتى كأنه غفل * ولست أشكو يومه * لأني أرجو غده *

* * *

«وكتب إلى علي بن كامه» :

كتابي إلى الأمير عن سلامة أسأل الله تعالى أن يديمها * لاتوصل إلى خدمته بها * والحمد لله تعالى ونعمة الأمير على النعمة المجملة المفصلة * الغراء المحجلة * التي إن سكت عن شكرها شكرها عني أثرها علي * وإن كتمتها أفشاها دوني من رآها لدي * وإنما أنا غرس نعمته * ونبات راحته * نادمته وأنا مقتبل الشباب * حدث الأتراب * وها أنا قد الجمني الكبر بلجامه * ولثمني البياض بلثامه * وإذا عتقت المنادمة صارت سبباً دانياً * وكانت رضاعاً ثانياً * لا بل رضاع الخمر * أقوى في حكم الفتوة سبباً من رضاع الدر * لأن رضاع اللبن معروف الأمد * منقطع المدد * ورضاع الشراب ربما دام الشهر والدهر * واستوعب المدة والعمر * ولأن رضاع اللبن يحرم من طريق النكاح وأن كان يعقد قرابة ووصلة من طريق

الولادة فهو يعطي من حيث يمنع * ويصـــل من حيث يقطع * ويبعد سبباً * من حيث يقرب نسباً * ورضاع الشراب يصـــل من كل جوانبه * ويعقد حرمة من جميع مذاهبـــه * ولأن رضاع اللبن يقع بين الأطفال الذين لا يتبينون أحوالهم * ولا يعرفون ما عليهم مما لهم * ورضاع الشراب لا يقع إلا بين الرجال الذين يعقلون كيف يصلون وكيف يقطعون :

أقر السلام على الأمير وقل له أن المنادمة الرضاع الثاني
إن المنادمة التي نادمتني رفعت عناني فوق كل عنان

وأقل ما في هذه الحال أن أشكرها فعلاً * من حيث أشكرها قولاً * وهو أن أزور تلك الحضرة الجليلة كما تزار عظام المشاهد * واعتكف فيها كما يعتكف في المساجد * فانها وإن لم تكن مشهد حرم وصلوات * فانها معتكف عطايا وصلات * وإن لم يكن صاحبهـــا إمام خلافة يرجى ثواب زيارته في الآجل * فانه إمام سماحة ينال ثواب زيارته في العاجل * ولكني رجـــل قد طال ذيلي * وازدحم شغلي * وقيدت السن رجلي * فلا أقل الآن من أن أوجه رسولي وهما قلبي ولساني * على ظهر مركبي وهما قلمي وبناني * وأن أنظم في شكر نعمة الأمير قلائد لا السارق يسرقها * ولا النـــار تحرقها * ولا الماء يغرقها * كل ناطق عندها أبكم * وكل شاعر بإزائها مفحم * وسأبلغ من ذلك ما يقيم لي عذراً * ويصير لي ولعتبي عدة وذخراً * إن شاء الله تعالى

«وكتب اليه لما ولي قومس» :

كتبت والولاية التي شرفت بالأمير ولم يشرف بها * وتسببت له ولم يتسبب لها * وصغرت قياساً إلى شأنه * من حيث كبرت قياساً إلى مقادير أهل زمانه * قد بلغني خبرها فجررت ذيلي فرحاً * ورحت لا تحملني أعواد سرجي مرحاً * ووددت لو شربت طرباً عليـــه البحر المحيط قدحاً * وأين بالأمير عن افتراع المنابر * وقيادة العساكر * وهو من أهل بيت يحكم بالملك صغيرهم * ويشيب عليه كبيرهم * تقر بأسمائهم المنابر النافرة * وتسكن بأعلامهم البلاد الشاغرة * لم يرضعوا إلا ثدي ولايه * ولم يروا إلا تحت رأيه * ولم يغتذوا إلا في حجر سياسة ورئاسة * فلا زال يترقى ذروة رتبة بعد رتبة * ولا زال اسمه يفترع خطبة بكراً بعد خطبة * ولا زال الملك سليله ونتيجـــه * والعز صنيعته وخريجـــه * حتى يملك الأقاليم ويفترش السرير العظيم * فيعطي القوس باريها * ويملك الزعامة من يليق بها ويحسن فيها *

* * *

«وكتب إلى أَبي طاهر وزير أَبي علي بن الياس بكرمان» :

كتبت ولما اتصل بي خبر المصيبة لم أملك من قلبي إلا ما شغلته بها * ولا من عيني إلا ما بكيت به لها * ونزل بي ما ينزل بمن قارعه الزمان عن واحدة ونازعه الموت في بعض نفسه وزل عن يده الذخر الذي أدخره لصروف الزمان وسلب السيف الذي لم يزل يعده للقاء الأقران ثم تنجزت موعود الله تعالى

بالصبر والعزاء * ثم بالتسليم للقضاء * وقلت إنا لله وإنا إليه راجعون كما أمرت * وانتظرت الصلاة والرحمة كما وعدت * ولقد كانت المصيبة بفلان جراحة لا دواء لها إلا الصبر * وخسراناً لا جبر له إلا الأجر * ولقد سلبته علقاً من أعــلاق الفضل لا يخــاف من حصله غبناً * ولا يستعظم له ثمناً * سهم المنــايا بالذخائر مولع ولقد طاق من الدنيا عروساً غدارة * مكارة غرارة ختارة * طالما قتلت بعلها * وخانت أهلها * فها أنا أيد الله تعــالى الشيخ جريح يد الدهر ولا طبيب لمن جرحه * وسليب يد الموت ولا ضامن لمن اجترحه * وقد دفنت يدي بيدي * وبكيت على عيني بعيني وافردت في نفسي عن نفسي والرزية بمثــل فلان رزايا * كما أن العطية كانت ببقائه عطايا * ولكن لا كثير من المصائب مع التأدب بأدب الله تعالى كما لا قليل من المــواهب مع الايمــان بالله تعــالى * رحم الله فلاناً الجامع لمحاسن الآداب * الشيخ حلمــا وإن كان غض الشباب * فلقد اختضر وهو فتى السن * واهتصر وهو رطب الغصن * وكسوف البدر عند تمامه أوقع * وكسر العود عند اعتداله أوجع *

إن الفجيعة بالرياض نواضرا لأشد منها بالرياض ذوابلا

* * *

«وكتب إلى حاجب الوزير أبي القاسم بن عبادحين ورد خراسان وحمل اليه نزلا» :

حملت إلى الخزانة عمرها الله تعالى ببقاء الحاجب * كما عمر حالي ببقاء الصاحب * شيئاً من الطين الخراساني * والشراب الخسرواني * فليتفضل بقبوله

فان الطين تراب لا يعد * ومعار لا يرد * على أني لو حملت اليه حياتي * واهديت اليه صومي وصلاتي * وكتبت في صحيفته حياتي وقاسمته عمري * وجعلت له حظي من سعود دهري * ووضعت ذلك كله بين طبق من قلبي * ومكبة من صدري ما كنت إلا بالعجز موسوماً * وعلى التفريط ملوماً * وانما جلبت هذا اليسير الحقير النزر الصغير * من داره الصغرى * إلى داره الكبرى * وحولته إلى يده اليمنى من يده اليسرى فان رأى الحاجب ان يتواضع بنا * ويخفض جناحه لنا * فعل ان شاء الله تعالى .

* * *

«وكتب إلى أَبي محمد العلوي»

كتابي عن سلامة اسأل الله تعالى للسيد مثلها * بل لا أرضى له ضعفها * ووصل كتاب السيد المشحون لطفاً وبراً * المفيد فخراً وذخراً * الموجب الحمد لله شكراً * الذي كل حرف منه فائدة بل كل نكتة بل كل فقرة بل كل تصنيف وخطبة تشغل بتخليدها الاقلام * وبحفظها الافهام * ذكر السيد في كتابه ان أهل اصفهان تزاحموا عليه * واستعاروا كتابي اليه * وذكروا أني اكتب من اخذ قلماً * ونثر كلماً * وهذا باب ما قرعته * وشأن ما اتبعته * وصناعة ما درت حولها * فان كان الاقبال ساق إلى هذه الغريبة * والاتفاق اعطاني هذه الرغيبة * فما ارد نعمة الله تعالى إذا صارت إلي * ولا أدفع في بحر السعادة إذا طلعت علي * ولا شك ان هذه ثمرة محبتي للعترة الطاهرة * صلوات الله تعالى عليهم اجمعين * وقد كنت اذهب في رد العدوى إلى حكم الخبر * في العدوى والهامة والصفر * والآن اتهمت من رواه * وكذبت من حكاه * وتأولت أن السيد اعداني بكتابته * واعطاني بعض براعته * بجمع اسمي مع اسمه * ويجعل فهمي جنينة لفهمه * الحاجة التي استبطأت فيها السيد

انما خرج كلامي مخرج الادلال وليس بعجب تسخب الشيعي على الرافضي ولا تحكم الملحف على السخي سمعت كلام فلان وبمثل ذلك الكلام يتسلى الاخرس علي بكمه * ويفرح الاصم بصممه * ولمثله رزق الصمت المحبة واعطى الانصاف الفضيلة ولكن ماذا اقول في معايب قوم هم جيراني في الدار * واخواني في النجار * وبيضتي التي تفلقت عني * وغيضتي التي التفت حولي * وبلدهم عشى الذي درجت فيه * وبيتي الذي خرجت منه * فمحاسنهم الي منسوبة * ومساويهم علي محسوبة :

وهل انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

وبودي لو وجدت لهؤلاء القوم في درج الفضل ادنى مرقاه * ورأيت لهم في مساعي السبق اقل مسعاه * فجعلت الخطوة ميلا * وادعيت القليل جليلا * ولكن ادعاء الفضل من غير معونة نقيصة * كما ان الاقرار بالنقص من حيث الاعتذار فضيلة * والقتال عن العسكر المنهزم ضرب من المحال * وتعرض لسهام الآجال * .

ولو ان قومي انطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح اجرت

على اني احمد الله تعالى اذ كان قائل ذلك الكلام في الاصول كلابيا * وفي الفروع ناصبيا * ولوكان لمنطقه حظ من الطراوة والطلاوة * او برز كلامه في معرض من القبول والحلاوة * لصار شبكة من شباك الشبهة * وبابا من ابواب الضلال والفتنة * وحبالة من حبائل الشيطان * ورقية من رقي البهتان * ولفتح علينا بابا يفسد المذهب * ويورث التعب * والله تعالى الطف بالاسلام* وارحم للأنام* من ان يعطى عدوه سلاحاً يغلب به اولياءه * وينصر به اعداءه * ذكر السيد شهادة الوزير لي * واعتداده بي * وهذه نعمة طالما تدرعت جمالها * وتسربلت سربالها * وجررت اذيالها* لا زال الفضل ببقاء ذلك السيد ثابت المناكب * مقبل الجوانب * عامر الطرق بالجائي والذاهب *

ولا سلب الله تعالى الزمان جماله بذكره * ولا العباد دنياهم بطول عمره * ولا زال جاهه مبذولا * وبابه مأهولا * وسيفه على اعداء الله تعالى مسلولا * وعدوه بحده مقتولا * ولا زال الشرق يفاخر به الغرب * والعجم تفاخر به العرب * بل لا زالت اصفهان تفاخر به البلاد * واهلها يباهون به العباد *

وهذا دعاء لو سكت كفيته فاني سألت الله فيه وقد فعل

ولم يبق الاان يرزق عمرا يسع نعمته * ودهرا يساوي قيمته * فان هذا الزمان يضيق عن نفسه * وان كان يتسع لشخصه * وكان الله تعالى لم يخلقه الا ليعلم خلقه كيف يحيي ميت الكرم * وكيف يرد ذاهب الهمم * وليلزم حجته من جحد احياء الموتى وقال بقدم الدهر والدنيا فان من قدر على ان يحيي ميت الخلق * قدر على ان يحيي ميت الخلق * وليكذب عبيد بن الابرص في قوله * وغائب الموت لا يؤوب * ولبيد بن ربيعة في قوله :

ذهب الذين يعاش في اكنافهم وبقيت في خلف كجلد الاجرب

فقد رأينا من يعيش في كنفه الاعداء * فكيف الاولياء * ويرد بحره المفحمون فكيف الشعراء . *

* * *

«وكتب إلى قاضي القضاة» :

كتابي الى القاضي عن سلامة من الله تعالى بها بعد اليأس منها * وقربها بعد البعد عنها * واهلني لها اضعف ما كنت املاً * واسوأ ما كنت عملا * واقبح ما كان بيني وبين الله تعالى اثرا حين انحلت عقدة الرجاء * ولحظتني عين البلاء * وامرضني طبيب الاطباء * وبعدت علي مسافة الشفاء * وتقاصرت

عن علاجي خطوة الدواء * وافلست من العافية كما ايسرت من الحمى * وقربت من الآخرة كما بعدت من الدنيا * ووقفت على جسر قدامه الوفاة * وخلفه الحياة * ونظرت الى المنية عن عين كريه نظرها * حديد بصرها * وعرفتني الايام ان ابن آدم ضعيف التركيب * منتقض الترتيب * دواؤه داؤه وبقاؤه فناؤه * واعضاؤه اعداؤه * كفاه موتا ان يبقى فيهم * وحسبه داء ان يصح ويسقم * ثم اراد الله تعالى ان يرى عبده رحمته * بعدما اراه قدرته * فاقامه من صرعته * واستله من مخلب علته * وازال عنه يد المنية بعدما اشتبكت به * فله الحمد ربا عفوا غفورا * رحيما شكورا * يأخذ حكمة وعدلا * ويعفو رحمة وفضلا * ويمرض عبده ليعتبر * ويعافيه ليشكر * ثم لا يغلق عنه باب الدعاء * ولا يحسم مادة الرجاء * ولا يديم مدة البلاء * وصلى الله تعالى على سيدنا محمد خاتم الانبياء * وعلى آله الطاهرين الازكياء * كان ورد على كتاب القاضي فاستظهرته حرفا حرفا * وقبلته الفا الفا * وضممته الى الصدر والنحر * وسجدت له حين رأيته سجدة الشكر * وما اظن سبب تأخره كان عني شدة شوقي اليه * وفرط حرصي عليه * فان الحرص شوم * والحريص محروم * وهذه عادة الدهر معي وقديم صنعه بي فانه اذا علم اني احب امر اناطه بالعيوق * ووضعه موضع بيض الانوق * وابعده وهو غير بعيـــد * وشدده وهو غير شديد * وانا بعد اليوم لا اقر للدهر بما اقترحه عليه * واطلبه لديه * فلعلي اخدعه عن طبعه * واختله عن سوء صنعه * ومن ذا يخادع الايام * او يغالط الحظوظ والاقسام * فلان قد ولي قضاء كذا عرفه الله تعالى بركة ولايته * ولا جعل هذا الامر اقصى غايته * وجعل ولايته منفعة * وعزله فراغا ودعة * ولا جعل شغله سخرة * ولا فراغه عطلة آجر الله تعالى القاضي على المصيبة بفلان فلقد كنت بحياته قرير العين * شديد الركن * يؤنسني ان جمعت بيني وبينه بقعة * ويسرني ان تضم اسمي الى اسمه صنيعة * وكنت اعده لي جناحا وسلاحا * وفي ظلمات الخطوب مصباحا وصباحا *

فغصبنيه دهر طالما غصب فلم يطالب * وسلبنيه قدر طالما سلب فلم يعاتب * ولولا كراهتي للاعتراض على القضايا * والتحكم على المنايا * لقلت أيموت فلان الفلاني * ويعيش فلان الفلاني * خطب منكر * وبدل اعور * وسبحان من له في كل قضية الطاف نعرفها * فنثبتها في فضله ونعمته * ونجهلها فنردها الى عدله وحكمته * فانما كان نجما من نجوم الادب هوى * او غصنا من غصون العلم ذوى * فانا لله وانا اليه راجعون ثم انا لله ورحم الله المتوفي رحمة تغسل اوضاره * وتحط اوزاره * والحقه بالطيبين الطاهرين * من آل يس * وفرق بينه وبين النواصب والضالين * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ولا زال القاضي يعزي عن احبابه * ولا يعزي عنه ولا به * ولا كان عليه طريق للنوائب * ولا على جنبته معبر للمصائب *

* * *

«وكتب إلى قاضي سجستان حين نكبه اميرها» :

إذا ما الدهر جر على اناس كلاكله اناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا افيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أما بعد ايد الله تعالى القاضي فانه لم يحسن إلى غيره من اساء إلى نفسه * ولم ينصر اصدقاءه * من خذل حوباءه * وانما يحب المرء اخاه بما فضل عن محبته لروحه التي له خيرها * وعليه ضيرها * وكانت محنة القاضي محنة شملت الانام * وخصت الكرام * ووجب على كل من اشتم روائح العقل * وميز بين النقصان والفضل * ان ينفطر لها الما * وان يبكي عندها دماً وخلص إلي

من ذلك ما اضحك مني الاعداء * وابكى لي الاصدقاء * حتى رحمني من كان يحسدني وحتى عجب من جزعي من كان يصبرني * وحتى غضضت طرفاً طالما رفعته * وقبضت بناناً طالما بسطته * وحتى عزيت كما يعزى الثكلان * وسليت كما يسلى اللهفان * وانا بعد ذلك استصغر فعل نفسي وهي جزعة هلعة * واستقل سعي عيني وهي سخينة دمعة * وكان يجب علي مقتضى هذه الجملة واساس هذه البنية ان احضر مجلس القاضي فاصابره نهاراً واساهره ليلا وتكون المحنة بيني وبينه احملها عنه ويحملها عني ولكني علمت ان والينا هذا رجل ينظر إلى الذنب الخفي * ويتغابى عن العذر الجلي * وله اذنان واحدة يسمع بها البلاغات وهي كاذبة * واخرى يصم بها عن المعاذير وهي صادقة * وليس بينه وبين العفو نسب * ولا له إلى التثبت طريق ولا مذهب * ولو تعرضت لسخطه * بعدما عرفته من شططه * لاتحملت دونه الوزر في ظلمي * ولكنت مقدمته إلى ذمي * ومن قعد تحت الريبة ركبته * ومن تعرض للظنة نالته *

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

واقل ما كان ينبعث من حضوري ان يثب هذا الجواد وثبة يصون القاضي عنها * ويبتذلني لها * فأكون قد ضررت نفسي ولم انفع غيري فاذا بالمحنة قد تضاعفت على القاضي ضعفين * وتكررت عليه كرتين * يرى بولي من أوليائه * داء لا يقدر على دوائه * ويرى وقوداً لا يصل إلى اطفائه * ويتبين في حالة متصلة بحاله ثلمة لا يمكن سدها * ومحنة لا يستوي له ردها * فلما مثلت بين تخلفي آمناً * وحضوري خائفاً * عدلت بين طرفي الرؤية * ووزنت بين مقداري المحنة * فرأيت ان اميل مع السلامة * واقنع من العمل بالنية * واغتفر عهدة التفصيل لصحة الجملة * فغبت وكلي غير جسمي شاهد * وتميزت وما انا الا مشاهد * وبعدت وقلبي قريب وباينت وقلبي سهيم واغضبت

على عين كلها قذى * وانطويت على صدر كله شجا * وانصرفت بقلب ساقط راض واغمضت بجفن ضاحك باك وقلت :

فان تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

ولقد نسجت في ذم الظالم حللا لا يبلها الماء * ولا يجففها الهواء * ولا تغطي عليها الظلماء * والمغبون من احتقب الاثم والغارم من غرم العرض والرابح من محنته فانية * ومثوبته باقية * ولو انصف الظالم لكان يعزى * ولو انصف المظلوم لكان يهنىء * جعل الله تعالى هذه الحادثة بتراء عمقاء ليس لها مدد * ولا ليومها غد * وجعل العمل بها اخر عهد القاضي بالعسر * وخاتمة لقائه لريب الدهر * ولا حرمه فيما نزل به مثوبة الصابرين * ولا اخلاه فيما بعده من مزيد الشاكرين * برحمته

* * *

«وكتب إلى مسكويه وقد تزوجت امه» :

العاقل اعزك الله تعالى لا يرى المحنة اذا تخطت دينه محنة * ولا يرى النعمة اذا تعلقت بذنب خطيئة نعمه * ولا يريد الشرف الا بالتقوى * ولا يرى الضعة الا ما وضع من رتبته في الدار الاخرى * وبلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى فحمدت الله تعالى الذي رزقك والدا لا يلزمك حق ابوته * ووعدك اخا لا يحملك حمل اخوته * وقد كنت اسأل الله تعالى ان يبارك لك في حياتها * والآن اسأله ان يعجل لك بوفاتها * فان القبر اكرم صهر * وان الموت استر ستر * ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليك الدهر وغلبك عليه الرزق فلا حمية فيما احل الله * ولا مضايقة من حيث وسع الله * وللانسان

أباء والحمد لله الذي كان العقوق من جهتها * ووقع الجفاء من جنبتها * فانك بررتها صغيرا * وبلغت مرادها كبيرا * فاجتمع لك بران * ووقع لك على الله اجران *

* * *

«وكتب إلى صديق له على ديوان الخراج» :

الايام ايدك الله تعالى بيني وبينك ترجمة لي عن صحة وفائك * وشهود عندي على صدق اخائك * واقل حقوقك على يلزمني ان لا اشغل لساني بغير شكرك * ولا قلبي الا بذكرك * ولو تجاوزوا طبقات اهل مودتك في ميدان المقة * وتنازعوا خصل الانس والثقة * رجوت ان اكون سابقا ليس له سابق * ولا يذكر معه لاحق * وان تجلى الغاية مني عن محبة مرباة بالوفاء * وعن شكر مرضع بالدعاء * وقد بلغني خبر سعيك لفلان في العمل الذي هو دون قدره * وان كان فوق اعمال عصره * فشكرتك عنه وان كان شكرك اوفى واملا * وبايفائك حقك احق واولى * واردت ان كل شكرك اليه * ولا اتطفل فيه عليه * فكرهت ان تطوى صحيفة الشكر ولم يجر لي فيها اسم * وان تختم جريدة المشاركة ولم يكن لي فيها قسم * فذكرته لك وانت له اذكر * وشكرتك عنه وهو لك مني اشكر * على اني ارغب بذلك الحر عن التلطخ باوضار الاعمال * فانها مزالق اقدام الرجال * وضنا به عن تخاليط الايام * وصيانة لمحله عن مدانسة الاوهام * ونعمتك عليه مقتسمة بيني وبينه * بل اكثرها لي دونه * فما ذانك بعارفة واحدة تكسبك شكرين * وتستعبد لك حرين * وجدير بمن هطلت عليه سحائب عنايتك * ورفرفت حوله اجنحة رعايتك * ان ينبو

عنه سيف الزمان مفلولاً ويرجع عن ساحته عسكر الزمان مهزوما والله عز وجل اسأل ان لا يحرمك نعمة يمد اليك بها عنق ودود * ومنة تفقأ عنك عين حسود * اخبرت انك ايدك الله تحدث نفسك بزيارتي وانه ليسرني ان اخطر ببالك * ويسوءني ان اصير زيادة في اشغالك * ولا تجشم نفسك فان خيالك في كل ليلة نائب عندي عنك * وان لم يكن فيه ولا في الدنيا كلها عوض لي منك *

* * *

«وكتب إلى أبي محمد العلوي» :

كتابي عن حضرة الوزير وانا راتع في فضله * مستذر من الايام بظله * متعرف نعمة الله تعالى علي به وقد كنت اشكو الى السيد ما منيت به من ضعف احتمالي لاعباء منن الوزير علي * وسوء محاورتي لاحسانه الي * وكنت اخشى ان اكون سببا لحرمانه غيري من نزاع الآمال اليه * ووفود الشكر عليه * فيقدر ان كلا منهم يكفر النعمة كفري * ويستر وجهه الصنيعة ستري * والكفر مخبثة لنفس المنعم * فقصدته هذه الكرة لاقيم عذري * واقزم ببعض شكري * واحط عن رقبتي تلك الاعباء التي قمت تحتها طليحا * لا بل قعدت نحوها طريحا * فما هو الا ان وردت حضرته حتى انثال علي من عطاياه الغزار * ومن نعمه الغرائب والابكار * ما صير امسي ابغض يومي الي * ويومي اكرمهما علي * حتى لم تبق زاوية من زوايا الافضال الا اجال لي منها قدحا واجرى باسمي عليها سهما ولولا ان بعض الشاكرين يسلف الشكر قبل ان يستحق عليه * وينتحل البر قبل ان ان يسدى اليه * ويجعل ذلك استجلاب رزق * وايجاب حق * واقامة سوق * لكنت لا اقتصر على هذا المقدار شكرا * ولا

اضعافه عشرا * ولكنت لا ارجع عن هذا الميدان الواسع بمقدار هذا الطلق * ولا ارمي هذا الغرض البعيد بمثل هذا الرشق * بل كنت لا انصرف وفي الجفير نبل * ولا انقطع وفي القريحة فضل * ولا ارضى من نفسي الا بان اصبح محسورا * وامسي مبهورا :

فقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلا فقل

وما ظن السيد برجل ليس لعطائه اسم غير الجزيل * ولا لفعاله نعت الا الجميل اول لقائه بشر * وآخره بر * ومقدمة فعاله الى زواره بشرى * وساقتها نعمى * اكثر ما يكون نوالا * اشد ما يكون السائل سوالا * واكثر ما كان الطافا * اكثر ما كان الزائر الحافا * واسهل ما كان حجابا * واطلق ما كان وجها ازحم ما كان شغلا واضيق ما كان وقتا واخصب ما كان نوالا * اجدب ما كان مالا * واعدل ما كان في القضية * واحكم ما كان بالسوية * اخص ما كان المحكوم عليه وسيلة * وانفذ ما كان حيلة * واوسع ما كان نطاقا * اضيق ما كان الخطب خناقا * واسجع ما كان حلما * اعظم ما كان الجاني جرما * واجرأ ما كان مقداما * اهول ما كانت الحروب فخما * والعساكر عظما * واضحك ما كان سنا * اشد ما كان قلبه حزنا * واسمح ما كان بماله * لمن استفاد بجاله * لا يصارف في عطائه * ولا يحاسب على آلائه * قد تكافأت اقسام فضله * وتناظرت محاسن قوله وفعله * فلم يشغله السخاء عن الشجاعة * ولا صرفه الحلم عن السياسة * ولا ثنى عنانه علم الحديث والاثر * عن علم الكلام والنظر * ولا قدح في هيبته * ما اشربته القلوب من محبته * ولا بخس الرئاسة حقها * من حيث وفي العشرة حظها * فهو القوي من غير عنف * واللين من غير ضعف * والشجاع الا انه سخي * والحافظ الا انه ذكي والنغوي الا انه نحوي * والسلطان الا انه تقي * والسائس الا انه

اريحي * يسكت حلما لا حصرا * وينطق علما لا هذرا * ويحلم كرما لا غفلة ويمنع نظرا لا تقتيرا ويقدم شجاعة لا خرقا ويتوقف حزما لا جبنا كل حسنة من حسناته واقفة على حد ما دونه تفريط ولا وراءه افراط يخرج مكارمه في اقصد الافعال * ويزن افعاله في كفة الاعتدال *

لا عيب فيه يعاب الا انني امسى عليه من المنون شفيقا

بل عيبه انه في زمان لا يسعه * وفي عالم لا يستحقه * وبين قوم يفعل ولا يقولون * ويحسن ولا يستحسنون * ويبصر ولا يستبصرون * ويروى ولا يروون * ومنع واجب الاستحسان * قطع لمواد الاحسان * وتضييع حقوق النعمة * داعية من دواعي النقمة * واقل ما عنده ان عطاياه قد صيرت المفحم شاعرا وجعلت العفيف سائلا كالمنهل يقصر رشاؤه * ويعذب ماؤه * فيشرب منه العطشان نهلا * والريان عللا * وكالطعام يحسن في العين ويطيب في البطن ويخف على القلب فيأكله الجائع تغذيا والشبعان تفكها والحمد لله الذي اراني بهذه الحضرة الاغنياء يعملون عمل الفقراء * والملوك يحترفون حرفة الشعراء وما رأيت حضرة اكثر منها داخلا راجيا * ولا خارجا راضيا ولا اجمع فيها بين وجهين مختلفين من بلدين متباعدين قد فرق بينهما الاصل والنسب * وجمع بينهما القصد والطلب * فوردا وهما اعرى من الحية وصدرا وهما اكسى من الكعبة * ودخلا وهما اخلى من الراحة وخرجا وهما اغنى من الشمسة * حتى لقد صارت مجمع الرجال ومثابة العطاء * وملقى الرجال وموسم الشعراء * وقرارة ينصب اليها العلم والادب * وقبلة يهوي اليها العجم والعرب * وما فيهم الا من يود لو اصبحت جوارحه السنة تشكر * وقاوبا تحفظ وتذكر * هذا وفي شواهد احواله * ما يغني عن استماع اقواله * وشاهد العيان * اقوى من شاهد البيان * ودليل البصر * اوضح من دليل الخبر * وناوس كسرى

امداح من شعر زهير بن أبي سلمى * ولو جحدوا كذبتهم العواقب * ولو سكتوا اثنت عليه الحقائب * جمع طبقات اهل الفضل رجلان اما اليه ظاعن واما بحضرته قاطن * فالظاعن يحسد القاطن * والقاطن يستبطىء الظاعن * فقد نفضت اليه البلاد رجالها * وابرزت له جمالها والقت له الارض افلاذ كبدها * وحسبك بالغلاء جالبا * وبالاحسان جاذبا * ومن صادف ثمرة الغراب لم يفارقها ابدا * ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا * ولقد اصلحني هذا السيد بل افسدني * وقربني الى الناس بل ابعدني * لاني بعده لا استام الا العظيم * ولا ارعى الا الجميم * ولا استكرم الكريم * ولا الوم اللئيم * لان الناس كلهم في عيني بعده لئام * فكيف اعيب ما اجتمع عليه الانام * ومن احمد مراده * وصادف من الماء والكلأ مراده * لم يشرب الا من عفوه * ولم ينل الا من صفوه * ولم يلق دلوه الا في جمه * ولم يرتع الا بين غدير وروضه * فها أنا اصبح وامسي بين السرور والجذل * واتقلب بين العل والنهل * واردد الطرف بين الخيل والخول * قد استوفيت على الايام حواصلي وبقاياي * وضممت على مطالبي منها يمناي ويسراي * واصبح اعدائي وهم بالحاجة الي اوليائي * كما اصبح اصدقائي وهم بالحسد لي اعدائي * فلا طريق الي للفقر * ولا منفذ في لسهام الدهر * والى الله تعالى المعذرة من لساني العيي * وخاطري البكي * وقد أسأت مجاورة هذه النعمة بكفرها * وسودت وجه هذه العارفة بقلة شكرها * وسوء الشكر * أول منازل الكفر * وقلة التهدي للنشر والإذاعة * أول طبقات الجحد والإضاعة * وقد رأيت بهذه الحضرة أقواماً كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصبا عذب * وعود الشباب رطب * وذكرت بهم مآرب هنالك وأياماً سلبتها سلباً * ونزعت من يدي غصباً * ودهراً كأني كنت أقطعه وثباً * فلما رأيتهم قد هاجروا إلى هذه الحضرة * وجعلوها من بين الدنيا هجرة * علمت أن الكرم يتوارث بين الكرام وإنه انحدر إلى

أصفهان من الشام * وإن العلم والأدب يتيمان ليس عليهما غيره وصي * وأن المروءة والسيادة إيمان ما لهما سواه ولي * وإن المغرب لسيف الدولة رحمه الله * والمشرق لحضرة الوزير أيده الله *

أرض مصردة وأرض تثجم منها التي رزقت وأخرى تحرم
وإذا نظرت إلى البلاد رأيتها تثرى كما تثرى الرجال وتعدم

فأما آل أبي طالب فانهم ينزلون منه على سيف التشيع وسنانه * وعلى يد الحق ولسانه * وما ضرهم مع حياته أن لا يعيش لهم الأشتر * وما ضرهم مع عطائه أن لا ترد عليهم فدك وخيبر * غيرة منه على الشرف أن لا يصان عن الابتذال رحله * وأن لا يحفظ فيه وله أهله * ذهاباً بنفسه عن إتباع الأنام * وتقليد الأيام * في إهانة الكرام * وإكرام اللئام :

إن الكريمة ينصر الكرم إبنها وابن اللئيمة للئام نصور

فلا جرم إن الأيام تتطفل عليه من السعود بما لم يقترحه عليها * وتخرج له من خبايا الصنع الجميل ما لم يقدره لديها * لما رأته يخرج زكاة نعم الله تعالى عليه * ويستظهر باحراز ودائع الله تعالى لديه * فعنده في كل يوم نعمة تصغر النعم * وتتعب في إداء شكرها اليد والفم :

وما بلغت آمالنا منه رتبة نراها رضا في قدره المتجدد

وقد علم السيد إنه ليس من فرق الاسلام فرقة إلا وقد هبت لأهلها رويحة ودالت لها دولة كما اتفق المختار بن أبي عبيد للكيسانية * ويزيد بن الوليد للغيلانية * وإبراهيم بن عبد الله للزيدية والمأمون لسائر الشيعة والمعتصم والواثق للمعتزلة والمتوكل للنواصب والحشوية وما بلغنا أن أحداً من أصحاب

تلك الدول * زاد في عدد تلك النحل * ولقد قتل المختار أهل الكوفة وبعث كتبه ورسله إلى أهل البصرة فما قدر أن يزيد جمجمة واحدة في عدد جماجم الشيعة لقد رفع المعتصم سوطه ووضع سيفه وصاب * وصادر وسلب * ووعد وأوعد فنبا عنه الدهر بحاجته * وقامت العوائق عليه في وجه بغيتـــه وهذا الرجل لم يزل يستدعي بقوله وفعله * ويستعين على عمارة المذهب بجاهه وماله * ويجرد لسانه والسيف مغمد * ويغمد لسانه والسيف مجرد * حتى إذا علم الله صدق نيته * ومضاء عزيمته * ورآه لا يريد إلا رضاه * ولا يسلك إلا طريق هداه * جمع عليه القلوب المتعادية * وألف له الأهواء المتباينة * فدخل الجميع دين الله أفواجا * وتقاطروا على استجابة الدعوة فرادى وأزواجـــاً * فلم يبق في نواحي سلطانه أحـــد من النواصب إلا وقد غاصت عليه الرحمة وخلصت له الدعوة فهو مبتدىء بالدرس قد نبغ * أو متوجه في العلم قد بلغ * وأن أحدهم ليدخل في الحق تحسناً * فيجد بركة الدين حتى يعتقده تديناً * والناس بالزمان والزمان بالسلطان * وإذا أراد الله أمراً كان * وما أقرب البعيد إذا صادف أسباباً * ووافق دعاء مستجاباً * وما أسهل الصعب إذا حضره التسديد * وأكتنفته العصمة والتأييد وأن رجلا يحيل طباع الزمان * وينقض بنية البلدان * ويفطم الناس عن عادة المنشأ وألف الأخوان والآبا ويصير حداً بين النار والجنة * وبرزخاً بين البدعة والسنة * لعظيم حجم الهمـــة * واسع ذرع البسطة بعيد مضرب العزم والنية ثابت مناكب الحول والقوة سالك في طريقة لم يسلكها من قبله ولن يسلكها من بعده وشتان بين من يصطاد وحش الفلا * وبين من يصطاد قلوب الورى * وما أبعد ما بين من يبني البنيان * ومن يبني المقالات والأديان * وأين من يعمر الرساتيق والأمصار * ممن يعمر الجنة ويخرب النار * لا بل أين من يفترع عذارى الجواري * ممن يفترع عذارى المعالي ولكن كل

قوم على مقاديرهم يدركون * وكل حزب بما لديهم فرحون * هذه أيد الله السيد شهادة ما أقمتها حتى أعددت لتعديلي فيها مزكيين وهما السؤدد والكرم ونصبت لقبولها مني قاضيين وهما النعم والنقم * وكتبت بها سجلا حررته بيد الصدق * وطبعته بخاتم الحق * وحضرته من توفيق الله تعالى إذن تسمع وعين ترى فمن رضي بقولي فانما مدح نفسه * وزكى حسه وأشرف من الحق من قبله * وأحسن من الحسن من فعله * ومن غضب فلا أرضاه الله * فانما سخط من الحق ما يرضاه الله وباب الاحسان مفتوح فمن شاء دخله * وحمى الجميل مباح فمن اشتهى فعله * وليس على المكارم حجاب * ولا يغلق دونها باب :

إذا اعجبتك خصال امرىء فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على المجد من حاجب إذا جئته زائراً يحجبك

* * *

« وكتب إلى تلميذ له وقد استعار نسخة رسائله ينسخها فتمادي » :

أنت مشغول بنسخ ما استعرته من الرسائل * ولا يسع القلب الواحد لكل هذه الشواغل * وغيرك من أصحابنا حريص على نسخها ولو كان القلم يمينه والقرطاس جبينه * والثمن دنياه ودينه * فاعرهم أعزك الله تعالى فالى أن تتفرغ لها * قد فرغ غيرك منها * وحصل اليوم شكر المعير * وغدا فائدة المستعير فاذا أنت قد أفدت واستفدت * وابدأت في الربح واعدت * واجعل تعجيل ردها إلينا * كفارة لما جنيته من حبسها علينا *

«وكتب إلى خوارزم شاه» :

بعدما كان الأمير وسمني من تقريبه لي * وتحفيه بي * سمة طار في الناس ذكرها * وفاح بين العالم نشرها * وتوجهت إلى المطالب * وقصدني الراغب والراهب * وصرت مثابة من مثابات الوسائل * وصار بابي سوقاً من أسواق الحاجات والمسائل * نزع بيننا الشيطان * ودب إلينا الحدثان * وكسدت عند الأمير تلك السوق التي لم أشكره في نفاقها * ولم أعاتبه على كسادها * والأمير بكرمه يقيم لي في الظاهر رسم الانعام * ويعظم قدر توفره على نصيبي من الاعظام * والناس يحسبون ان حظي في قلبه * لا حظي من ظاهر قربه * وإن محلي من ضميره في المحبة * كفآء محلي من ظاهره في الرتبة * فلست أعدم كل يوم مستشفعاً بي إليه * ولا يعلم هو أني عليه * ومستعيناً بجاهي عنده * ولا يشعر أني أقوي أسباب الخيبة له * فان رددتهم ظنوا بي الظنون * ولاموني وهم لا يعلمون * وإن أجبتهم * ظلمت الأمير وظلمتهم * أما ظلمي للأمير فتعريضه لرد الرسائل * وإقامته مقام المانع الباخل * وأما ظلمي لهم فبيعي المغشوش منهم * وتشرفي بما ليس عندي عليهم * وإني لابغض الظلم من نوع فكيف من نوعين * وأكره أن أكون مسيئاً إلى واحد فكيف إلى إثنين * وحاجتي إلى الأمير أن ينزلني من لقائه وبشره * منزلتي من مكنون صدره * وأن يسمني مع ابعادي عنه * كما يسمني بتقريبي منه * وأن يجعل هذه الأخرى سبيلا لسلامتي * كما جعل تلك الأولى سبباً لغنيمتي * فاني شاكره على هذا الجفاء * كما شكرته على ذلك البر والاحتفاء * فان كل اللسان * أو تعذر على خاطري الاحسان * سرقت من كلام الأمير ثم رددته عليه فأكون قد بعت منه بزه واهديت إليه ملكه وأصير عيالا عليه في مقاله * كما طالما كنت عيالا عليه في ماله *

* * *

«وكتب إلى كاتب صاحب الجيش جوابه عن رسالة مدحه وعاتبه فيها» :

فهمت كتابك الذي هو أشرف كتاب إلي * قد رصع بأظرف عتاب علي وما كان أحوجك إلى أن تجعل كلامك بمائه * وتحلي ظرفك الناصع ببهائه * فلا تشوبه بالعتاب * ولا تكدره بمر الخطاب * فتكون قد أدبتنا بصمتك * وعاقبتنا بعفوك * فكفاك سلاحاً لك قراع الحلم دونك فلربما بلغ الإحسان من العقوبة ما لا تبلغه الإساءة * ودخلت المسرة مداخل تنبو عنها المساءة على أني ما أجهل منفعة العتاب * ولا أنكر مرافقة بين الأحباب * ولا أشك في إنه يطري خاق الود * ويجلو غبرة العهد * ويداوي ادواء القلوب * ويترجم عن خفيات الغيوب * وإنه الأنموذج بين الأولياء والأعداء * والجسر بين المدح والهجاء * والمصلح للعشرة الفاسدة * والمقرب بين الديار المتباعدة * ولهذا اشتقت لفظة العتبي وهي الرجوع إلى الرضا ولكن إذا كان مصدره عن شكاية * ومنبعه عن جناية * ووقع عن فترة في الود عرضت * أو ثلمة في الانصاف حدثت * جمع الشمل * وجدد الوصل * وصقل ما صدىء من العشرة * وأزال ما وقع من الفترة * وإذا كان مصدره عن تجرم وتجن كان مفتاحاً لباب العربدة * ومكدراً لصفو المودة * وترجماناً عن لسان القطيعة وإنما هو دواء إذا لم يصادف داء استحال داء * وإذا صادفه كان شفاء * وقد كانت هذه الواحدة منك فلتة وقاك الله شرها فمن عاد إلى مثلها قتلناه بسم القطيعة وهو أشد الحتوف * وضربناه بسيف الهجر وهو أمضى السيوف * ولولا اني لا أستجير مقابلتك * ولا أرعى معارضتك * لزعمت

إنك الظالم المتظلم * والمجرم المتجرم * وانك لما عرفت جرمك * وتذكرت ظلمك * وعلمت ما وجب عليك من العتاب * الذي هو أبلغ العقاب * ورأيت انك قد ارتكبت من القطيعة جريرة قد أحلت عرضك الألسنة الواقعة فيك * واهدفت جانبك للظنون المظنونة بك أخذت أخاك قبل أن يأخذك وشكوته قبل أن يشكوك * وبرزت هارباً في زي طالب * وخرجت جانياً في معرض عاتب * وتكلمت بجرأة المنصف وتحتها جور الظالم * وأدليت بحجة البريء وأنت عين الجارم * حتى لقد كدت أن تشككني في نفسي وتغلبني على علمي * وتجعل لوهمي سلطاناً على فهمي * لولا يقيني بباطلك ومعرفتي أن الإساءة في شقك والله تعالى المستعان على صديق نحن منه بين إثنتين إذا صار منا أذاقنا مرارة صده * وسامنا بشاعة فقده * وصغرت بيننا وبينه وطاب اللقاء * واقفرت بيننا وبينه معاهد الاخاء * ودبت لنا وله عقارب القطيعة * وهبت علينا وعليه رياح الجفوة الفجيعة * وإذا صالحنا نسب إلينا المظالم * وتجرم علينا الجرائم * وعلى ذلك فصلحه أحب إلينا من حربه * وبعده أثقل علينا من قربه :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا * على أن قرب الدار خير من البعد

ذكرت إنك مترجح مني بين وصل وإعراض * ومرتبك من عشرتي بين انبساط وانقباض * ولقد صدقت في الأولى * ولا أقول كذبت في الأخرى سقى الله أيامنا التي عاشرتنا فيها عشرة قصرت عن تناولها يد الدهر * وطرفت عن ملاحظتها عين القطيعة والهجر * وجلت عن أن تثلمها أنياب السعاة * ونبت عن أن تمضي فيها معاول الوشاة حتى لقد دخلنا من الأنس مداخل لا تطردها الحشمة * وفتلنا من الوصل مرائر البين والغيبة * حتى إذا أمنت عليك الدهر الذي لا يؤمن * وائتمنت عليك العيش الذي لا يؤتمن * خالفتني

إلى الود فهدمت منه ما بنيته * وسبقتني إلى الوصل فعوجت من أطرافه ما سويته * وابرزت مصون الوفاء للغدر * ووضعت ربقة الأخوة في يد الدهر وسلطت على مـا زرعتـه يد الوفـاء * حاصداً من الجفـاء * وذكرت بعد هذا كله اني أستاذك في الهجران والصد * وتلميذك في الوفاء وحسن العهد * وإنك عرفتني ثم أنكرتني * واستلمت مسي ثم استوعرتني * وهذه دعوى قد سلمت أولها * وانكرت آخرها * وأنا فيما عرفته لك * ولست فيما أنكرته علياك * فان العمر أقصر مدة * والزمان أصغر مسافة * من أن أخترمها معك بالعتب والعتاب * واستهلك نفسي منهما ومنك من تكليف الابتداء واقتضاء الجواب * فان المودة إذا كانت لا تنبعث إلا بالاستبطاء * ولا يمشي أمرها إلا بالعتب والاشتكاء * كانت كالعلق النفيس يحتوي غصباً ويؤخذ سلباً * وكان المطالب فيها كالمصادر على قلبه * وكالمستنزل كرها عن حبه * وأنا بعد هذا أبرأ إليك من عهدة خاطري العليل * ولساني الكليل * وكيف ينبعثان لي في عتابك وهما مقصران في مدحك * وكيف يسرعان في حربك وهما بطيئان في صلحك * هذا وطريق مدحك نهج قصد وطريق عتابك وعث وعر وجانب صلحك مورق مشرق * وجانب حربك مهول غلق * واني لآخذ القلم لأكتب به عتابك فيتشظى علي * ويسقط من يدي * وكيف تساعدني بناني * على ما يخالفني فيه جناني * وكيف يطيعني بعضي فيما يعصيني فيه كلي ولو كنت أحمد بن يوسف في البلاغة * وعبد الحميد بن يحي في اتساع الكتابة * وجعفر بن يحي في الاختصار * وأبا الربيع في التوسع والاكثار * وأبا العيناء في العارضة وأبا العتاهية في البديهة وابن المعتز في التشبيهات * وأبا نواس في الخمريات والطرديات * والعتابي في المعاتبات * والنابغة في الاعتذارات * وصريع الغواني في الاستعارات * والفرزدق في الفخريات * وجريراً في المهاجاة وغلبت في

المخاطبة صعصعة بن صوحان * وقمعت في الفصاحة خالد بن صفوان * ونطقت ببتيمة ابن المقفع مرتجلا واتيت بعجوز آل رقية مبتدعاً وبعذراء آل خارجة مقتضياً وضرب بي المثل في المقامات لا بسحبان وائل * وبوهي به في العي عندي لا بباقل * وحفظت حفظ الشعبي وحاضرت محاضرة ابن القرية النمري وابدعت ابداع أبي تمام الطائي ووعظت عظة الحسن البصري وجادلت جدل النظام في الكلام وصنفت تصنيف الجاحظ في الجد والهزل * واربيت على اياس بن معاوية في الذهن والعقل * وبهرجت الأصمعي رواية * وزينت أبا عبيدة حفظاً ودراية * وعلمت أمير المؤمنين عليه السلام الحلال والحرام ولقنت شريحاً القضاء والأحكـــام * وصرت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم * ووفقت توفيق سليمان في الحكم * وأخذ عني بطلميوس علم الهيئة وارسطاليس علم الفلسفة وبلنياس باب الطلسم والحيلة وقرأ علي سيبويه نحو البصريين * والفراء نحو الكوفيين * واختلفت إلى الهند في تعليم الحساب ودرس علي أبو عثمان المازني علم التصريف والاعراب * واقتبس مني الخليل عروض الشعر * وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر * وضرب على قالب خطي خط ابن مقلة وتوارث الكتابة أهل بيتي كما توارثها بنو ثوابة وأمليت على ابن الكلبي شجرة النسب * وعلى أبي عمرو بن العلاء أيام العرب وأوتيت الحكمة وفصل الخطاب * وكنت الذي عنده علم من الكتاب * وعددت في الراسخين في العلم عدا * وقال لي موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً * ثم حملت بعد هذا كله على أن يمضي بي في عتاب الاخوان لساني * أو يجري فيه بناني * لقصر عن ذلك عناني * ولارتبك فيه عقلي وبياني * ولعيبت والحق معي * وانقطعت والحجة لي * وما أعتذر إلى أحد من عيبين بليت بهما * وخلقين ركبت منهما * جبني عن الاصدقاء * وجرأتي على الأعداء * رأيتك أيدك الله تعالى قد تواضعت لي

فيما تجلببته من الفضل الذي لو صح لي لكنت فيه جنيبتك * ولسلكت فيه طريقتك * وانت بحمد الله تحسن أن تأخذ ما فوقك مما تحتك * وأن تمدح نفسك بما تمدح به غيرك * وأن تتواضع وانت ترتفع * من حيث يرتفع غيرك وهو يتضع * وأن يخصك في المراتب الكبر * من خص غيرك الكبر ولست أقول انك صادق فادعي لنفسي فضلا * ولا انك كاذب فأناقض لك قولا * ولكني أضع بيننا قول الأول :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المعايبا

ولولا أني أكره أن ننسب جميعاً إلى التقارض في الثناء * وأن نقعد تحت قولهم من ضيق الصدر سرعة الجزاء * لوصفتك ببعض ما فيك من المحاسن التي أنت فيها عريق صريح وغيرك فيها دخيل دعي وانت لها نسيب قريب وغيرك عنها أجنبي بعيد وبعد فانا والله معتد للأيام بنصيبي منك * متحمل لها شكر العارفة فيك * منافس في نعم الله تعالى علي بك لا أفتح عيني علي أحب منك إلي * ولا أضم جناحي على أعز منك علي * ولا أقرأ لك كتاباً إلا يهون علي ما قبله * ويزهدني فيما بعده *

«وكتب إلى رئيس دامغان»:

أنا أغار لما بيني وبينك أيدك الله تعالى من ذل التماق * ومن عشق التشوق واقشر لك عصا العتاب * واتسرع لك بخشونة الجواب * إذ كانت الحال بيننا مبنية على أساس الصدق * ومصونة بحمد الله تعالى عن شوائب المذق * وليس بعد العتاب إلا التقدم إلى الصلة أو النكوص إلى القطيعة وإنما هو جسر عن يمينه العتبي والرجعي * وعن يساره النوى والشكوى * فلا تفتح من التجوز باباً أغلقته يد الوفاء * ولا تبح من الحفاظ جانباً حمته قضية الود والاخاء ولا يحتج في الباطل بحجج هي أضعف من قلب العاشق * وأوهى من دين المنافق * وأرق من أمانة الفاسق * وأعلم أن كلام من ينصر الباطل لا يولد إلا مخدجاً * ولسانه لا يكون إلا ملجلجاً * واقصر ما يكون بنانه * إذا طال لسانه * وانزر ما تجده عقلا * اغزر ما تجده قولا * فان الباطل يصغر من حيث يكبر * ويقل من حيث يكثر * وليس طلاقة اللسان بغير الحق إلا أذى للسامع وحجة على القائل * وسلاحاً لكل جاهل * وجناية على كل عاقل * وكل قليل سد ثلمة الحاجة فهو كثير * وكل كثير وقع دون الكفاية فهو قليل يسير * وشبكة المحال أوهى من أن يتشبث بها رجل محق * وكيد الباطل أضعف من أن ينفذ في حق * وحسب الكاذب بفعله شتماً * وبقلبه خصماً * وبالسكوت عنه ذماً * وقد خرقت فيك حجاب المجاملة ولبست لك ثوب المكاشفة فان أدباك ذلك فمؤدب الحر العاقل إخوانه * ومرآته زمانه * وسوط الفرس الجواد عنانه * وإن أبيت فما أنا باخع نفسي على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً.

«وكتب إلى خوارزم شاه» :

كتبت إلى صاحبي بتلك الناحية يعرفني انتشار ما لي بها * وتمرد شركائي فيها * وما كنت أظن بقعة يجوز فيها للامير ختم * أو ينفذ له فيها حكم * تعلو بها للباطل راية * أو يكون بها للظلم على العدل ولاية * ومن العجائب أن اكتسب الدرهم في بقاع لم أنبت فيها * ولم أخرج منها * ثم يؤخذ مني في عشي الذي فيه درجت * وبيتي الذي منه خرجت * وأن أحمله فأقطع به لجج البحار * وفيافي القفار * ويسقط مني على باب الدار * هذا وقد علم الأمير أن والدي رحمه الله تعالى خلف علي ما لو خلفه على أهل بلد لكفاهم * ولو فرقه على فقراء الدنيا لأغناهم * فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً * وتخاتلني سراً * حتى خرجت منها اعرى من حية بعد ما كنت أكسى من بصلة وافقر من الحجر بعدما كنت أغنى من الكعبة واعطل من المحرم بعدما كنت أحلى من الشمسة قد كسرت كسر الجوز * وقشرت قشر اللوز * وجرى علي في مسقط رأسي ومجمع أسرتي * ومقطع سرتي * من الغرم الثقيل ما كان من الثقل أثقل * ومن الذل الطويل ما كان من الطول أطول * ومر على رأسي ما لو مر على رأس الشاب لشاب * ولو نزل بالحديد لذاب * على اني حينما كنت تاج على خوارزم معقود * وشرف لها معدود * ومشهد فيها مشهود * ومقام من مقاماتها محمود * وكل من رآني مدح بلداً كنت من أهله * وفدى والداً أنا من نسله * وعهدي بمثلي يغنم * فصرت اليوم أغنم * فسبحان من جعل القصر المشيد بئراً معطلة وجعل الغانم غنيمة وصير السالب سلباً وحول الراكب مركباً وأدار الفلك فيما يدل على اضطرابه * ويترجم عن خرقه وانقلابه * ومثلي أيدك الله تعالى إذا ابتذل

استوحش * وإذا استوحش أوحش * ومن وطيء العقرب أوجعته وإن أوجعها * ولسعته وإن لذعهـــا * ومن فــل السيف برأســه انكسر منه أكثر مما كسر * وخسر أكثر مما خسر * وإن من باعني لقليل البصيرة بالبيع والشراء * رديء المعرفة بأبواب الأخذ والعطاء * مستريح مما تعبت له نفوس الكرماء * نائم عما لم تزل تسهر له عيون العقلاء * والسلام

* * *

«وكتب إلى أَبي سعيد أَحمد بن شبيب لما شارف نيسابور»:

مرحباً بالقمر الطـــا لع في جنح الظلام
مرحبـــا بالأســـد الور د وبالجيش اللهـــام
مرحبـــا بابن شبيب واياديه الجسام
مرحباً بالرجل الاو حد من بين الأنام
مرحباً بالكاتب الجز ل وبالحبر الهمام
قد نجونا منك يا بـــين فودع بسلام

سبقني أيد الله صاحب الجيش فلم أملك عنانه * وجمح بي خاطري فلم أضبط زمامه * فكتبت هذه الأبيات وجملتي بيد الطرب * وتماسكي في قبضة العجب والعجب * وخرجت من ربقة الوحشة * وهي شبكة الغـــم والدهشة * حتى لاحت لي رايات اللقاء * وفاحت روائح الالتقاء * وعلمت أني قد رزقت على الدهر دولة واعطيت على الغم كرة ووردت البشارة التي جعلتها تاريخ إحسان الدهر * وغرة وجه العمر * ودرياق القلب والصدر وعلمت أن الله تعالى لم ييسر هذه القدمة * ولم ينلني هذه العزمة * إلا وقد

أراد بي خيراً * واعتمد لي إحساناً وبراً * وقدر أن يثلج صدري ويشد بها أزري * ويقوي ظهري * وينتصف لي من دهري * ويهزم عساكر الزمان عني * ويفرق شمل الحدثان دوني * ويرزقني النظر إلى وجه من صنعني * وخرجني واصطنعني * فتعلمت الترسل من نثره * واصبحت شاعراً برواية شعره * ووطئت بساط الملوك بعنايته أولا وراضعتهم الكاس بجميل نظره ثانياً هذا من دقاق آثاره لدي * ومنسى صنائعه إلي * وإنما ذكرت قلا من كثر * واشرت بلمحة إلى بدر * فالآن حين أجر ذيل الفرح * واتسربل الجذل والمرح * وأرى أهل نيسابور خاصة * وأهل المشرق عامة * إن خوارزم بيت الرجال * ومعدن الكمال * ومنبت الفضل والافضال * وإن في الزوايا خبايا * وفي الرجال بقايا * وإن البقاع متساهمة في الفضل * ومتفاوتة بمقادير الأهل * ووددت أن صاحب الجيش يركب النجم السيار * ويمتطي الفلك الدوار * ويطوي المنازل طي الرداء * ويصل الغداة بالعشاء * بل وددت أن الريح تحمله * أو أن البراق ينقله * وإن الخضر يصحبه خليلا * وسليمان بن داود عليهما السلام يرافقه زميلا * ليصغر حجم الانتظار * وتقل مدة بعد الدار *

ولا اعتد في الدنيا بيوم يمر ولا أراك ولا تراني

وها أنا أيد الله تعالى صاحب الجيش سيف طرير * وسنان شهير * ولسان على الأعداء مسلول * وسلاح على حساد النعمة مصقول * إذا ورد أيده الله تعالى لزمت بابه * وصحبت ركابه * وكنت بوابه * وقد أعلمت من سألني عن صاحب الجيش أنه رجل طالع به النجم مرة ودار به الفلك فلتة وولدته أمه غلطة وسعد به الزمان خلسة * فهو في الرجال علم وفي الكمال عالم وفي الزمان واهله غريبة * وبين الدنيا وبينها يتيمة * قد كنت سألت

صاحب الجيش حاجة صغرت عن أن تلحظها أجفانه * أو يجري بقضائها لسانه * ولكن الحاجة على قدر السائل * لا على قدر الباذل * والهبة تصغر وتكبر في وزان الطالب * لا في وزان الواهب * والصغير إذا احتيج إليه كبير * كما أن الكبير إذا استغنى عنه صغير * ولو تبارى أهل الشكر في رهان * وجروا نحو الغاية في ميدان * لبرزت في الحلبة الأول * وكنت فيما بينهم الأغر المحجل :

ولو أن للشكر شخصاً يبين إذا ما تأمله الناظر
لصورته لك حتى تراه فتعلم أني أمرؤ شاكر

وصلت الجارية فقبلتها بالطاعة * ورددتها بالداله عليه في الساعة * لأن فلاناً صديقي قد ملكها وأنا أكره أن أعاشر رجلا له في داري غلاف * وان تكون عندي مضربة لها غيري لحاف * فما أقبح بالحر أن ينادم من شركه في حرمته * وسبقه إلى باكورته * فيجلس فحلان على لباد * ويجتمع سيفان في غمد *

* * *

«وكتب إلى صاحب جيش خوارزم وورد عليه كتابه بخبر علته يعتذر اليه من ترك العيادة ويتوجع له من العلة» :

هذا كتابي أطال الله تعالى بقاء صاحب الجيش عن سلامة إلا من الاهتمام لعلته * ومن التذمم لترك عيادته * ومن العتب على الأيام الجارية الراكدة الفاترة * الظالمة الجائرة * فيما دهمت به الكرم وأهله * والفضل وشمله والحمد لله تعالى لا على انه حمد مستزيد فيما نابه * مستمد بالشكر لما أصابه

ولكن إقامة لرسم العبودية * وسلوكاً في نهج البشرية * وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله خير البرية ورد علي كتاب الشيخ صاحب الجيش بعد قرم هزني * وتطلع طويل لوروده أقلقني واستفزني * وبعد أني حاسبت لتأخره عني نفسي على ذنوبي واستدركت عليها عيوبي * وجلت في زوايا جناياتي عليه * واساآتي إليه * أنظر بايتها استحققت أن أطوي في إدراج الجفوة * وأجلس على قافية التغير والنبوة * إذ كنت أعلم أن صاحب الجيش أعرق في الكلام نفساً * وأصدق في الفضل حساً * من أن يعاتب وفي الصبر فضلة * أو يؤاخذ وللاحتمال جهة * فلما كاد الكرب أن يستحوذ على خاطري * ويستوعب حساب صدري وصبري * طلعت على النعمى * في أثناء البشرى * وانفرجت لي ضبابة التخمين * عن نور اليقين ووصلت إلى السعادة * تكتنفها الزيادة * وفضضت الكتاب الكريم عن كل ما أجذل النفس وسرها * وبرد العين واقرها * حتى وصلت منه إلى خبر العلة فدارت بي الأرض وهي ساكنة واظلمت علي السماء وهي مسفرة وضاقت علي الدنيا وهي واسعة فقلت قبح الله تعالى الدهر فانه على ذوي الكرم الب * وعلى الفضل وأهله حرب * وللؤم واللئام حزب * وللادب ورهطه عدو معاند * وللجهل وذويه ولي معاضد * ثم رجعت إلى أدب الله تعالى ذكره فوجدت ساحة الصبر أوسع ومطية الدعاء أجمل فقلت اللهم أرفع عن مهجة المكارم أذاها * وادفع للمجد عن تلك النفس النفيسة والروح الاريحية ما يبيح حماها * وتصدق علينا وعليه بهذا الواحد الذي بقاؤه جسر بين دولة الفضل * وكرة الجهل * وبرزخ بين مد الجود وجزر البخل * ثم انشدت:

ما حال من كان له واحد　　　يمرض عنه ذلك الواحد

وأنا أتوقع كتاب صاحب الجيش بخبر العافية فان تأخر كنت جنيبه في العلة وان

ورد عمرت المساجد صلاه * وملأت الفقراء والمساكين زكاة * وصمت حتى تعاتبني بطني سغباً * وقمت حتى تخاصمني رجلاي تعباً * وصليت صلاة أمامية * وعبدت عبادة علوية * ولم أفعل ما فعله ابن نوفل حيث قال في أبي شبرمة :

إن الله عافى أبا شبرمه فغزوان حر وام الوليد
وما عتق عبد لنا أو أمه جزاء لمعروفه عندنا

فسأله جار له عن غزوان وام الوليد فقال سنوران في الدار فاعتد بعتق رقبتين وهو يعتق سنورين * ولكن أفعل ما فعل قيس بن معاذ مجنون بني عامر حيث يقول :

والله ما اعتل إلا الظرف والأدب أنا جهلنا فخلناك اعتللت ولا

وإذا اتصل بي خبر العافية الذي هو عندي عافية الدين والأدب * والفضل والحسب * قلت :

إذا سلمت فكل الناس قد سلموا وما أخصك في برء بتهنئة

أردت أن أركض إلى حضرة صاحب الجيش ركضاً يتقدم الايغال * ويقتل الخيل والبغال * حتى أصل السير بالسرى * واجمع بين العصر والاولى * فأشاهد نعمة الله تعالى عليه وعلينا به في افراقه من علته * واكتسائه ثوب عافيته * ثم تطيرت لنفسي من أن أنظر إلى ولي نعمتي وبه آثار الصفرة * وإلى جسمه وبه بقايا الفترة * هذا بعد أن جمعت منتشر أسبابي * ووضعت رجلي في ركابي * ورفعت عصا السفر * وسلمت نفسي إلى القضاء والقدر وانشدت قول الفرزدق :

ليت التشكي كان بالعواد ونعود سيدنا وسيد غيرنا

ثم أتبعته قول أبي الطيب المتنبي :

حتى الكواكب أن تعودك من علــل　　وتعودك الآســاد في غاباتها

ولقد جنت الأيام على الاحرار جرماً عظيما * وأتت الى الكرام فعلا ذميما * وترجم الدهر بأنه لئيم لا يحب كريما * جعل الله تعالى هذه العلة آخر علــل الكرام * وخاتمة جنايات الأيام * ولا أراني الله بعدها في خاتمة صاحب الجيش الا ما يضحك منه العلى * ويطلق وجه الغنى * ولا فجع بسلامته الدين والدنيا .

* * *

«وكتب إلى أبي الحسن المعروف بالبديهي الشاعر زعم يعبث بــه» :

لست اعاتبك عافاك الله تعالى لان العتاب يصلح منك * أو يعمل فيك * أو لأن جهلك جهل يعالج بالعذل * أو يداوى داؤه بالقول * كلا عافاك الله تعالى جهل الناس عرض وجهلك جسم لا يزول إلا بالفعل * ولا يقع دواؤه إلا من الكف والنعل * ولكني إنما أردت بهذه الرسالة أن تتوجه عليك الحجة * وأن تنقطع عنك العلاقة والعلة * وإن كانت ترد منك على عين عمياء * وأذن صماء * وقلب لا يعرف النقصان إلا في ماله * ولا يحس بالألم إلا في جسمه * ولا يجد للنقص مساً ولا للعيب وقعاً ولقد عققت هذا الكلام بك وضيعته فيك * ووجهته منك إلى من نزه عنه العتب لغباوته * والشتم لحقارته * ولو قدر الكلام على عقوبة من صنعه * وتوصل إلى تضييع من ضيعه * لعاقبني بأن يطيل هجراني * ويكون هذا آخر عهده بلساني وبناني فها أنا المظلوم الظالم * والمخاصم المخاصم * ظلمتني بلؤمك * فظلمت

الكلام بلومك * وخاصمتك في جهلك * فخاصمني العقل في عذلك *
فيا من جمع على مصيبتين * ووضعني على طريق الظلم من جانبين * ويا
من أبت العجائب فيه أن تردني إلا من طرق شتى * وأن تقع إلا مثنى مثنى *
وليس محنتي فيك بأعظم من محنة الحق الذي لم تزل تعبث به حتى لو تجسم
نفساً لسعيت في ذمها * أو تمثل داراً لجهدت في هدمها * كأنك لم تخلق
لتطمس عين النور * وتقلب أعيان الأمور * فتجعل الضوء ظلمة
وتعكس البدعة سنة حتى كأن سوفسطاً استخلفك على جحد ما يدرك عياناً *
ويعرف إيقاناً * فأنت وارثه في الباطل * وناصر جهله على كل عاقل *
وحتى كأن الله أنزل عليك قرآن ضلالة * وبعث إليك رسول جهالة *
وقال لك خالف الإجماع وأنت على السنة * وعاد الصواب وأنت في الجنة *
وأوحش الأحرار وأنت أصل الحرية * وباين الناس ومنك منبع الانسانية *
وأنصر اللؤم وأنت الكريم * وناقض الحكماء وأنت الحكيم * لو علق
القبيح بالثريا لصعدت إليه * ولو دفن المحال في تخوم الأرض السابعة لغصت
عليه * الجميل عدو لك تحاربه * والسداد ضد من أضدادك لا تقاربه ولا
تناسبه * فأنت العكس إلا أنه يمشي على رجلين * والجور إلا أنه ينطق
بلسان وشفتين * والجهل إلا أنه مخاطب * والعي إلا أنه مثاب معاقب *
لو سئلت عن يحي بن زكريا لذكرت أنه زنى * ولو ذوكرت في القائم
إدعيت أنه مضى ولو استخبرت عن إبليس ذكرت أنه سجد لآدم * ولو
نوظرت في عيسى نفيته عن مريم * ولو أنشدت شعر أمرىء القيس لنسبته
إلى الأفحام * ولو ذكرت أبو جهل حكمت له بالإسلام * ولو استحسن
كلام مزبد قلت إنه ميت الخواطر * فاتر النوادر * ولو سمعت خطب
أمير المؤمنين علي عليه السلام استعييت بيانه * ولو مررت بايوان كسرى
استقللت بنيانه * ولو رأيت بناء أرم ذات العماد استصغرت شأنه * ولو

أجري حديث الحسين بن علي عليهما السلام صوبت رأي قاتله * وعذرت فعل جادله * ولو حكي قول فرعون أنا ربكم الأعلى قات ما أخطأ ولا تعدى ولو سمي إبن عباس نفيت عنه علم التأويل * وتحلته الجهل بمتن التنزيل * ولو خوطبت في التراويح أخذت بابتداعها الشيعة * ولو عد الاجبار والتشبيه الزمت دينهما المعتزلة ولو انشدت * ويأتيك بالأخبار من لم تزود * ما رضيت نظمها * ولو اسمعت * لا يذهب العرف بين الله والناس * ما استحليت طعمها * ولو حلم الأحنف بن قيس استخففت عقله * واستعظمت جهله ولو استفتيت في فريضة ادعيت فيها إجماع الأمة * واتفاق الأئمة * ولو أعيد حديث ذي القرنين واستيلاؤه على الخافقين احتقرت سعيه * ولو تعجب الناس من بناء الهرمين أخذت تذكر انتقاصه ووهنه * ولو استبدعوا صنعة الخليل العروض أخذت تزعم إنه ما أحدث أمراً * ولا افترع بكراً * ولو استحسنوا وضع كليلة ودمنة وصفت أن أمثالها غثة * وأن حكمها رثة * ولو فضل التوحيد انفردت به النصارى ولو عيب الثنوية برأت من عيوبهم ماني ولو غنيت بألحان ابن شريح ومعبد قضيت عليهما بأنهما من بابة التوبة والعبادة ومن شريطة النسك والزهادة * ولو مدحت العافية اسهبت في ذمها * كما لو فضلت السعادة أكثرت في شتمها * ولو شاهدت الهند عبتهم في ضعف العزيمة كما لو دخلت بلاد الصين لمتهم في رداءة الصنعة ولو عاينت العرب رميتهم بضيق البيان واللغة وقلة العارضة والبديهة ولو قرأت سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه زدت فيها سن المنعة ولو عثرت بحديث يزيد بن معاوية عددت في فضائله يوم كربلا والحرة ولو قرىء بين يديك القرآن عارضته بنوادر أبي العبر وبكلام يحبب الغلط ولو لحظت السماء قلت ما أسوأ ما دحيت ولو درست أيام الفرس هجوتهم بقلة السياسة وضعف التهدي للعمارة ولو خوفت بيوم القيامة ذكرت إنه يوم قصير صغير * وإن الخطب فيه يسير حقير

ولو فوتحت في حديث العنقاء حلفت أنها باضت وفرخت في بيتك * ودرجت في وكرك * وإنك طالما سقيتها واطعمتها * وطالما اسرجتها والجمتها * ولو عظم أمر التنين * وحكى الخلاف في إثباته بين المصدقين والمكذبين * أقسمت أنك اصطدته من البحر بشبكتك * ورميت به في السحاب بقوتك * ولو عدت أنساب العرب شهدت أن الشرف في سلول وجرهم * وفي عدى وتيم * وإن هاشماً في قريش أذناب * كما أن دارما في تميم أوشاب * غايتك أن تزعم أن هشام بن الحكم ناصبي وأن أبا الهذيل العلاف نابتي وأن أبا بكر الأصم شيعي وأن واصل بن عطاء حشوي وأن سليمان الأعمش خارجي وإن عبد الحميد بن يحي أمي وأن رؤبة بن العجاج أعجمي وأن إياس بن معاوية عامي وأن معاوية أول من أحيا السنة وأمات البدعة كما أن الحجاج أول من سن الرحمة ونسخ القسوة وأن النابغة الذبياني لم يحسن الإعتذار * كما أن أبا نواس لم يصف الخمر ولا الخمار * وكما أن أبا بكر الصنوبري لم ير الأنوار ولا الأزهار * وأن طفيلا الغنوي ما ركب * كما أن أعشى قيس ما شرب * وإن العفاف هندي كما أن السخاء رومي وإن الوفاء تركي كما أن العقل صقلي وإن التشيع شامي كما أن النصب كوفي وأن التجار أقل خلق الله كذباً كما أن الملوك أصغر الناس همماً وإنه ليس شيء أقل تخالفاً وتناقضاً من روايات المحدثين * ولا كلام أقل سخفاً وهجراً من أشعار المناقضين * وأن إبليس أصاب في تفضيل النار على الطين * فلذلك جعل من المنظرين إلى يوم الدين * وإن هاروت وماروت قد أحسنا في عصيان الرب * ومواقعة الذنب * فلذلك صارا في السحر امامين * وللخلق معلمين * وإن الدين لعبة لاعب * كما أن التوحيد كذبة كاذب * وإن الوحي أساطير الأولين * وإن السنة أرجاف المكلفين * وإن العالم يركب متن عمياء * وإن الموحد

يخبط خبط عشواء * وإنك من بينهم الذي خص بالعلم القديم * وأخبر بالنبأ العظيم * ولو انك زهير لانفت من أن تقول :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمي

وكذلك لو كنت زيادة بن زيد ما قلت :

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده ... أطال فاملى أم تناهى فاقصرا

وإنك لو سمعت عليا يقول سلوني قبل أن تفقدوني * سألته حتى يقول دعوني فقد أفحمتموني * وإنك لو أمدت بك الملائكة ما قالت سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا وان أباك آدم لو أعين بك ما لعب إبليس به * ولا أنف من السجود له * وإن عملك قابيل * لو رآك ما أقدم على أخيه هابيل * وإن أملك حواء لو رأتك نشزت على أبيك * عشقاً لك ورغبة فيك * وإن العجم عرب إذا كنت فيهم * كما أن العرب عجم إذا بنت عنهم * وإن الرياض إنما أكتسبت طيب ريح لأنها تستمد من نكهتك * وإن النجوم إنما أعطت ضوءها من ضوء غرتك * وإن الخيل ما اختالت في مشيها إلا لأنها حملتك * وإن الطير إنما لحنت أصواتها لأنها عشقتك * وإن البحار إنما ماجت وزخرت هيبة لك * وإن الجن إنما توحشت وخفيت لأنها حسدتك * وإن الشمس إنما جعلت مبصرة والقمر إنما جعل آية ممحوة لأن الشمس تواضعت لك بالتأنيث والقمر نازعك في التذكير وأن عدي بن الرقاع تحول في هيكلك ونطق على لسانك حيث قال :

وعلمت حتى ما أسائل واحداً ... عن حرف واحدة لكي أزدادها

وإن هذا البيت معه طفيلي وفيما بين شعره دعي وأنت أحق به * وأملك له منه * وإنك نظرت إلى عيب كل ذي صناعة من وراء ستر صفيق حتى عرفت مخاريق المنجمين بكذبهم في الأحكام * وغلطهم في حوادث الأيام *

وعرفت إختلاف النحويين * بتخالف الكوفيين والبصريين * وإنهم لو أبصروا الرمية خرج السهم سديداً ولو عرفوا الطريقة كان المقصد قريباً وإن الخلاف دليل على ركوب المحال * وإن ليس بعد الحق إلا الضلال * وعرفت أبطال الأطباء بمناقضة الرومي الهندي وتكذيب الفارسي اليوناني وإن عيش البدوي فيما فيه موت الحضري وإن الذي يموت على أيديهم من المرضى أضعاف من يعيش ويبقى وعرفت تخبط اللغويين بافتنان لغات القبائل * وتباين ألسن أهل المياه والمنازل * فلغة عدنان غير لغة قحطان * ولغة خندف غير لغة قيس عيلان * والمعدي يقول أن هذين لساحران * والحارثي يقول أن هذان لساحران * وعرفت عناد الفلاسفة بادعائهم قدم الطينة وانكارهم ما يعاينونه في أنفسهم من الدلالة وقلت كيف يعرف غيره من أنكر نفسه وكيف يستنبط الغائب ما لا يرى الحاضر وعرفت جهل المهندسين بجهلهم جذر العشرة وهي أس العد * وأول منازل العقد * وقلت كيف يعرف الكثير من لم يعرف القليل وأنى يحكم الفرع من لم يحكم الأصل وكما لا يجهل الواحد من عرف العشرة فكذلك لا يجهل العشرة من عرف المائة وعرفت حيرة المحدثين بتناقض رواياتهم * واختلاف كلماتهم * وإن أحدهم يثبت الرواية ثم ينفيها * ويجلد بالكبيرة ثم يرخص فيها * ويحل الشيء ثم يحرمه * ويصغر الإثم ثم يعظمه * وعرفت شك المفسرين * بأن أحدهم يسمع قول الله تعالى بلسان عربي مبين * وقوله وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ثم يقول استبرق فارسية وسجيل أعجمية وسندس عبرانية وناشئة الليل سريانية وإن هذان لساحران حارثية ثم عطفت بعد هذا كله على نفسك فقلت أنا الطبيب الذي لا يموت من شفاه * ولا يمرض من داواه * والنحوي الذي لا تختلف علتاه * ولا تنقض بأولى قوله أخراه * والمحدث الذي لا تتناقض رواياته * ولا يثبت ما نفاه * والفيلسوف الذي لا يحمل طبيعة على شريعة ولا يختص بعلم

عقل دون علم رياضة والمهندس الذي يعرف الجذر الأصم * ويهون العقد الأشد والمنجم * الذي قلبه كتابة * وعينه أسطر لابة * قد سمعنا عواءك أيها الراضي عن نفسه والغضبان على غيره والعاشق لفعله والمبغض لأفعال دهره فلا جزاك الله خيراً لا عن الحق عدوك * ولا عن الباطل صديقك * أما الحق فلأنك هدمت مناره * وطمست آثاره * وأما الباطل فلأنك أبرزته في معرض الفضيحة حتى هتكت أستاره * وكشفت عواره * ونشرته حتى ظهر مضمره * ونصبته حتى ظهر زهوه * وإنما يقبل الناس من البطل ما يشبه الحق * ويأخذون من الكذب ما يحاكي الصدق * فأما الباطل الذي تبصره العين العمياء * وتسمعه الأذن الصماء * ويستوي في إبراز شخصه النور والظلماء * فانه ينهي عن نفسه * وينذر الأبصار والبصائر بعينه * وينادي بنقص من نطق به فيا من لا يقبله الباطل ولا الحق ولا يناسبه الجور ولا العدل إلى ما ذا أنسبك بعدهما * وإلى أين أذهب بك عنهما * رحمك الله تعالى :

وهذا دعاء لو سكت كفيته فاني سألت الله فيك وقد فعل

فلو قسم الله تعالى من الرحمة جزءاً لا يتجزأ لما جبلك كما جبلك * ولا خذلك كما خذلك * واني لأعلم أن دعائي هذا أول خائب * وإن سهمي فيه غير صائب * ولكني أصانعك به * وأسخر منك فيه * فأقول رحمك الله تعالى أنا لو سامت لك إنك إنسان نفيت عن نفسي الانسانية * وصححت عليها البهيمية * أعلى منك في النقص حكمة * وأعظم منك في الجهل طبقة فشر من الجهل نصرة الجهال * وأسوأ من الضلالة الاحتجاج للضلال * لا ترضى أن تصير في صناعتك ذنباً وقد كنت فيها أصلا ولا بأن تكون تلميذاً وقد كنت قديماً فيها أستاذاً تواضع بنا رحمك الله تعالى فان التواضع خلق من

أخلاق السلف * وشبكة من شباك الشرف * وتصدق علينا ببشرك فان الله يجزي المتصدقين * وأحسن فان الله يحب المحسنين * ولاين أخوانك في فعلك وقولك * فلو كنت فظاً غايظ القلب لانفضوا من حولك * ولولا أني رحماك الله تعالى لا أقول بالرجعة ولا أذهب مذهب التناسخية لظننت أن جميع ما انطوى من العالم تحول في هيكالك * وانحصرت محاسنهم في شخصاك ولظننت أنك يونس بن فروة الذي قيل فيه :

أتى ابن فروة يونس وكأنه   في كبره أير الحمار القائم

ما الناس عندك غير نفساك وحدها   فالناس عندك ما خلاك بهائم

فلقد أعجبت بنفسك الخسيسة التي لا تستحق العجب * وأحببت منها ما لا يساوي الحب * حتى كأن كسرى أنوشروان حامل غاشيتاك * وكأن قارون وكيل نفقتاك * وكأن بلقيس ذات العرش العظيم دايتك * وكأن مريم البتول أمتك * وحتى كأن الريح عاد هبت من غضبك * وحتى كأن العود وجميع الملاهي وضعت لطرباك * وحتى كأن المريخ يستقي من صولتك ومضائاك * وعطارد يستمد من لطفك وذكائك * وحتى كأن زرقاء اليمامة لم تنظر إلا بمقاتلك * وكأن لقمان لم ينطق بغير حكمتك * وكأنك بنيت منارة الاسكندرية من آجر دارك ووسعت ملعب سليمان عليه السلام من بقايا ملعب صحنك وكأنك علمت زياداً السياسة * وأفدت عبد الحميد الكتابة * ولقنت يحي بن خالد الفصاحة والقيت على الحسن البصري المحبة وعلى الحجاج بن يوسف الثقفي الهيبة وحتى كأنك زرعت غوطة دمشق وشققت أنهار البصرة وهندست كنيسة الرها ووضعت قنطرة سنجة وحتى كأن سد ياجوج وماجوج بيدياك * والأمر في خروجهم موكول إلياك * وليس بين الأمة وبين أن ينسفوا زرعهم وضرعهم * ويجوسوا برهم وبحرهم

إلا لفظة من الفاظك * ولحظة من الحاظك * وحتى كأن فضائل أمير المؤمنين علي عليه السلام من فضائلك مسترقة * وعجائب بني إسرائيل من عجائب صنعك ملتقطة * وغرائبهم من غرائب فعلك مستنبطة * وحتى كأنك جعلت صخرة موسى عليه السلام عتبة بابك * وحتى كأن الحان داود عليه السلام بعض ما يسمع في محرابك * وحتى كأنك جعلت من مائدة عيسى بن مريم غداءك * ومن كبش اسحق عشاءك * وحتى كأنك أمرت شداد بن عاد * ببناء أرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * وحتى كأن خالد ابن الوليد قاتل تحت رايتك * وقتيبة بن مسلم فتح البلاد ببركة دعوتك * وحتى كأنك وضعت التقويم لآدم بن يحي وحللت الزيج الأول وعدلت الطبائع الأربع وحتى كأنك كشفت لبطليموس الفلك حتى نظر إليه ومثلت لجالينوس تركيب الجسد حتى وقف عليه * وحتى كأنك أورثت بني أسد العيافة * وبني مدلج القيافة وعلمت شقاً وسطيحاً الكهانة * وحتى كأنك علمت حاتم بن عبد الله السخاء * والسموأل بن عاديا الوفاء * وقيس بن زهير المكر والدهاء واياس بن معاوية الفطنة والذكاء * وأخذ عنك سيف بن ذي يزن أخذ الثأر * والإدراك بالأوتار * وحتى كأنك دعوت لبني إسرائيل حتى جعل الله فيهم أنبياء وملوكاً وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ثم دعوت عليهم حتى ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله وحتى كأن خاتم الخلافة في خنصرك * وحساب الدنيا دخلها وخرجها في بنصرك * وحتى كأن الشمس تطلع من جبينك * والغمام يندى من يمينك * وكأن البحر يمد إذا أمرته * ويجزر إذا زجرته * وحتى كأن كسرى أنوشروان صاحب نفقة اصطبلك * ونمرود بن كنعان قهرمانك على ولدك وأهلك * وحتى كأن تكريت محل دارك * والدرة اليتيمة أخس سوارك * وحتى كأن رستم بن دستان عجز عن مد قوسك * واسفنديار

ابن كرستاسب ضعف عن حمل سيفك وترسك * وحتى كأنك في ملك وملك يصغر بينهما ملك سليمان بن داود عليهما السلام ويقصر معهما قصر غمدان * ويضيع فيهما تاج كسرى بن ساسان * ويتضع عنهما جبرية فرعون وهامان * وحتى كأنك لا أحد أعلم منك فأضربه مثلا ولا أعلى منك فأجعله غاية وأمداً ومن شبهك به فقد رد الوصف إليك * ووفره عليك * والفرد لا يشبه بغيره * والراجح لا يوصف بمن تقاصر عن رجحان قدره * وإذا أردت أن تعلم أني في ذمك جاد وفي مدحك لاعب * وأني في الشهادة عليك صادق وفي الشهادة لك كاذب * فأنظر إلى تهافت قولي إذ لاينتك وجاملتك * وإلى إصابتي الغرض وحزي المفصل إذ كاشفتك وصدقتك * وذلك أن الصادق معان ومأخوذ بيديه * والكاذب مخذول مغضوب عليه * وما كان الله تعالى ليوفقني للفصل الخطاب وأنا أجامل من لا يعرف قط اجمالا ولا تجملا * وأفاضل من لم يناسب مذ كان افضالا ولا تفضلا * والفصول التي قصرتها على مدايحك * ولينت فيها مس القول لك * فانما هي عوذة عوذت بها هذه الرسالة *وطلسم حسن صنت بنتحه هذه المقالة فعوذت أحسن الأشياء بأقبح الأشياء * وسترت بنقصان المدح كمال الهجاء * على أني قد غالطت أسماع الناس وأبصارهم * وسحرت بهذا البيان خواطرهم وأفكارهم فهم يحسبون أني أجدت وإنما الصدق أجاد ويقدرون أني أحسنت وأصبت وإنما قصدي الحق أحسن وأصاب فلو شتمتك بالترهات صارت قوارع ولو نلت من عرضك بنصف لسان وفم كان كلامي قلائد وخير المدح والهجاء ما كان له راو من نفسه ومصدق من ذاته :

وإن أحسن بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

يا غداة الفراق * وكتاب الطلاق * يا موت الحبيب * وطلعة الرقيب * يا يوم الأربعاء في آخر صفر * ويا لقاء الكابوس في وقت السحر * يا

خراجا بلا غلة * ودواء بلا علة * يا أثقل من المكتب على الصبيان * ومن كراء الدار على السكان * يا أبغض من لم ولم * ومن لا بعد نعم * يا بغله أبي دلامة وحمار طياب وطيلسان ابن حرب * وضرطة وهب * يا قدح اللبلاب في كف المريض * يا نظرة الذل إلى البغيض * يا كنيف السجن في الصيف * يا شرب الخمر على الحشف * يا وجه المستخرج يوم السبت * يا افطار الصائم على الخبز البحت * يا جشاء من أكل فجلية * وفساء من أكل قنبيطية * يا وكف البيت الشتوي في كانون * وعلى الكانون يا فراش الجرب المبطون * يا ليل العزبة * ووقت العشق والإفلاس والغربة * يا خجل الضرطة * وجواب الغلطة يا كمد المقمور * ودهشة المصبور * يا أقذر من ذباب على جعر رطب * ويا أذل من قراد في است كلب * يا أشأم من دم نبي يا أنتن من بول خصي يا شرب الترنجبين على الريق في تموز ياعقب التخمة على أثر الحجامة في غرفةبغير كوة يا طلعة ملك الموت في عين الكافر * وقد ختم عمره بالكبائر * يا دخول الطفيلي بيت المروزي يا نظرة العنين إلى البكر وقد عجز عنها * واستشعر مخايل الغضب منها * يا قرع الغريم الباب * ومعه جريدة الحساب * يا حوض دكاكين الدباغين * ومنهج حوانيت القصابين * يا مغيض ماء الحمام * يا كوز حانوت الحجام * يا وجه المانع وقفأ المحروم * يا شخص الظالم في عين المظلوم * يا الأم من اللؤم * وأشأم من الشؤم * وأقل من المعدوم * وأوخم من غم المبرسم المحموم * يا غم الدين * ووجع العين * ويوم البين * يا أوحش من زوال النعمة بعد كفرها * وأقبح من ارتجاع الصنيعة بعد شكرها * يا فم من أكل السمك في الشمس ولم يغسل يده * وخمار من تقيأ ولم يغسل فمه * يا أبرد من كافورة في الثلج مدفونة في يوم شمالي قرة * وفي وقت بكرة * في جبل من جبال أرمينية يا أثقل من جبل رومي

تحت ثلج حولي فوقه عساكر في وسطه قوافل لا بل يا أثقل من منادمة طفيلي على الندماء * مقترح في الغداء والعشاء * محدش للساقي قاطع على المغني * يواثب ويزني * لا بل يا أثقل من الحق عليك * وأبغض من الانصاف إليك يا جواب الحجاب * وعبوس البواب * يا مهاجرة الصديق * يا نظرا إلى زوج الأم على الريق * يا سوء القضاء وجهد البلاء * ودرك الشقاء * يا شماتة الأعداء * وحسد الأقرباء * وطوارق الأرض والسماء * وملازمة الغرماء * وعربدة الجلساء * وخيانة الشركاء * وغش الأصدقاء * وملاحظة الثقلاء * ومسئلة البخلاء * ومحادثة البغضاء * ومشاتمة السفهاء ونصرة الضعفاء * وعداوة الأمراء * ومزاحمة السعداء * يا كرب الدواء يا من لو كان اللؤم يلد كان أباه * ولو كان يولد كان أخاه * ولو شارك شريكاً ما عاداه * يا بيع المتاع الكاسد * وجوار الجار الحاسد وسماع المغني البارد * يا مطبوخ الافبيثمون * وحب الاسطيفون * يا ليلة المسافر في كانون الآخر * على أكناف بائس * تحت مطر وبرد قارس * يا من لو نظرت إليه السماء وهي تمطر أقلعت * ولو طلعت الشمس بوجهه ما طلعت يا خيبة من رأى السراب فظنه شراباً * وندامة من نظر إلى الخطأ فتوهمه صواباً * يا من هو دليل على أن الله تعالى جواد حيث أطعم مثله ورزقه * يا من هو حجة الملحد على الموحد في قوله الذي أحسن كل شيء خلقه * يا من إحتماله أصعب من عد الرمل * ومن عدد النمل * ومن رأى شعرة سوداء بالليل * والصبر عليه أشق من الصعود إلى السماء على سلم من زبد * وحبال من شهد * والنظر إليه أبشع من النظر إلى ذبح الأنبياء عليهم السلام ونبش قبور الشهداء والأولياء جعلت فداءك من الخير لا من الشر هذا كله مصانعة لك * ورفق بك * وذلك لأني شبهتك بأشياء تنتقص في باب الذم عنك * وتأنف والله منك * ولقد ظلمتها بك * إذ كان قد تفرق فيها من المعايب

ما اجتمع فيك * ومن لي بشيء يوازيك * وشبيه يضاهيك * ومن أين أجد اللؤم منتظماً * والقبح مجتمعاً * والجهل مجتمراً والشؤم محتفلا والنقص محتشداً في هيكل واحد وفي شخص ماثل وإنما يجد الواصف ما يسمع وما يرى ويحيل المشبه على ما كان أو يكون في الورى * قد شبه الله تعالى نوره بنور المصباح والمشكاة والزجاجة وإن كانت الثلاثة قاصرة عنه في الصفة رحمك الله تعالى دع لليونانية من الحكمة ما تنفق به سوقهم * واترك لبني العباس من التملك ما تمشي به أمورهم * وابق للشمس والقمر من الحسن بمقدار ما يطلعان به * ويلوحان فيه * وهب للريح العاصف * والرعد القاصف * من الصولة قدر ما يسمع به صوتهما * ويصح به أسمهما ونعتهما * وارفق بالأرض من خطواتك وارحم الجبار من شدة سلطانك * وانظر إلى النساء من وراء حجاب ومن خاف برقع والا خرجن عن عشقك من ستر الله وقطعن أيديهن وقلن حاش الله * فلا تعرض اماء الله لسخط الله * ولا تمرق بينهن وبين عباد الله * ولا تحمل الحرائر على خشونة الطلاق * ولا تذق المماليك مرارة الاعتاق * ولا تزد في شغل الكرام الكاتبين ولا تسود صحف العالمين * ولا تشمت إبليس بنا * ولا تعطه مراده فينا * ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا لي رحمك الله حوايج فان قضيتها كنت قد تسلفت شكري ورضاي * وإن رددتني عنها فقد رأيت انموذج سخطي وشكواي * قد اتفق الناس على ضياع النسخة الأولى من كتاب العين فامله علينا * واجمعوا على ذهاب قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود فاخرجهما إلينا * وتخالف الناس في المهدي وشكوا في السفياني * وفي الاصفر القحطاني * فعرفنا متى يخرجون * فاني أعلم أنهم إليك يختلفون * وفي أمرك ونهيك مترددون * وبمشورتك يغيبون ويحضرون * والكيمياء فقد علمت أنه أنفقت فيه الأموال * وتعب له

الرجال * ثم لم يحصل لهم منه إلا أماني مسوفة * ومواعيد مزخرفة * فما عليك لو علمتناه واغنيت الفقراء وزدت الأغنياء وأرحت الناس من الضرب في البلاد * ومن الكد والاجتهاد * ومن أن يخدم الفقير غنياً * ويتخذ بعضهم بعضاً سخريا * والزيج الأكبر فقد انقطع وانقرض أهله وهو من مفاخر الروم علينا * ومن محاسنهم دوننا * فاعمل في إصلاحه ولا تدع النصارى يفضلون المسلمين في إبداعه ومسجد دمشق فهو حسنة يباهي بها أهل المغرب أهل المشرق فابن لنا مثله * ولا تثبت علينا فضله * فانما هي ساعة من هندستك * وجزء تستعمله من أجزاء حكمتك * وقد زدت عليه * وبنيت ضعفيه * وآل أبي طالب قد علمت أنهم مسلوبون حقهم * ومغصوبون إرثهم * فتقدم إلى غلامك الدهر بأن يرفع رايتهم * ويرد إليهم ولايتهم * والفلك قد زعموا أنه خرف فاردد شبابه * واعد عليه من الشبيبة ثيابه * وقد سمعت قول ابن عباد من نكد الدنيا منفعة الاهليلج * ومضرة اللوز ينج * وتجعل في اللوزينج منفعة الاهليلج * فاذا بك قد جعلت الناقص كاملا * واضفت إلى العاجل آجلا * وليس يخفى عليك تطاول العراق بعبد الله بن هلال الهجري صديق إبليس فارنا رحمك الله تعالى من عجائب صنعتك * ولطائف فكرتك * ما يكسد به سعرهم * ويهدم به فخرهم * فان إبليس تلميذ لك تعلم منك * وأخذ عنك * وشتان بين من يدعي أن إبليس من إخوانه * وبين من يعتقد أنه من غلمانه * وهل استنظر إبليس إلى الوقت المعلوم الا ليدرك زمانك * ويرى برهانك * وهل حسد آدم إلا عليك * وهل عاداه إلا فيك * ولعلك تنكر قولي خرف الفلك ولولا خرفه ما كان القمر سماوياً وأنت أرضي * ولا كانت الملائكة روحانية وأنت بشري * ولا كانت السماء تظل * والأرض تقل * وأنت أكبر منها قدراً * وأكرم منها نجراً * ولا كانت الدنيا تنضم عليك وأنت الدنيا

ولا كنت عند الناس بعض الورى وأنت الورى * ولا كنا نسميك ونكنيك ذهاباً باك وبقدرك عن الاسامي والكنى * اني وفقدك فلا شيء أعز علي منه * ولا أحسن منه * ما سمعت قول علي بن جبلة في أبي دلف :

إنما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحتضره

فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

الا غضبت عنك عليه واعتقدت انه سرق صنعتاك * وأعار أبا دلف مدحتك ولا سمعت قوله :

إنما الدنيا حميد واياديه الجسام

فاذا ولى حميد فعلى الدنيا السلام

ألا تمنيت لو عرفت قبره فرجمته * أو عرفت بيته فهدمته * ولا سمعت قول ليلى :

فتى كان أحيي من فتاة حيية وأشجع من ليث بخفان خادر

ألا قلت فكيف لو رأت ليلى أخانا * فتعلم أين دعواها من دعوانا * ولا أنشدت قول ابن أبي السعلافي الرشيد :

أغيثا تحمل الناقة أم تحمل هرونا

أم الشمس أم البدر أم الدنيا أم الدينا

ألا رحمتك مما قطع عليك طريق استحقاقك * ومدح غيرك بمحاسن أخلاقك وأما قول الطائي :

تسود أقوام وليسوا بسادة بل السيد المقدام سلم بن نوفل

فلا شك أن الشيطان تكلم به على لسانه * حتى أبرز وصفك في غير أوانه * ولو رآك علم أن سلم بن نوفل لا يسود وأنت حي وأما قول زهير :

لو كنت من شيء سوى بشر   كنت المنور ليـــلة القدر

فاني والله أعجب منه كيف قاله في غيرك ولم ترمه جهنم بشرارها * ولم ترجمه الملائكة بأحجارها * وأعجب منه قول من قال في معن بن زائدة :

مسحت معد وجه معن سابقاً   لما جرى وجرى ذوو الأحساب

كيف يسبق غيرك في حلبة أنت في عدادها * وكيف يكون غيرك سابق جيادها * أنت رحمك الله تعالى من أيدي هؤلاء الشعراء الكذابين مرحوم * وفيما بينهم مظلوم * سلبوك علاك وهي حلاك * ونحلوها قوماً سواك * والمدح الكاذب ذم * والبناء على غير أساس هدم * والكلام يرجع إلى مظنته * والمدح ينصب إلى قرارته كما قال أبو الطيب المتنبي :

وإذا الفتى طرح الكلام معرضاً   في مجلس أخذ الكلام اللذعني

وكفاك بفضلك مادحاً لك * وحسبك بانفرادك مقارعاً دونك * هذه رحمك الله هدية أهديتها إليك * بل هدى من العرائس جلوتها عليك * وما مهرها إلا فقدك * ولا ثمنها إلا بعدك * فاذا وهبتهما فقد وفيت المهر * وأرضيت العروس والصهر * فسبحان من ارانيك ولك صهر مثلي * وأنت ختن لي * وعهدي بالناس يخطبون الكرائم بالكرم * ويطلبونها بحسن الأخلاق والشيم * وأنت خطبت هذه الكريمة بلؤم نجرك * وصغر قدرك * وعهدي بهم يحتملون المهور في أموالهم وأنت جعلت مهر هذه من عرضك الخلق * اللبيس الممزق * وأعجب ما فيها أنك إذا طلقتها لم تطلقك * وإذا أطلقتها من حبلك لم تطلقك * فخذها مباركاً لك فيها * فبئست العروس وزوجها شر منها *

* * *

«وكتب في نكبة نيسابور وواليها حسام الدولة أبي بكر ابن عبدوس بعض عدول نيسابور» :

وصلت الرسالة التي كل الرسائل دونها في الكتبة * كما أن كل كاتب دون كاتبها في الرتبة * ووافقت مني قلباً معموراً بل خرباً بالهم * وجسماً معضلا بل مكدوداً بالسقم * فشفت القلب حتى نسي همه * والجسم حتى طلق سقمه * وإذا صدرت الموعظة من قلب سليم * ولسان حكيم * وردت على أذن واعية * وعين كالئة * وإذا عرف الطبيب الداء * عرف الدواء * ولئن كانت الأيام سلبتني من المال علقاً خطيراً * لقد أبقت لي منك عوضاً كبيراً * ولئن كانت صادرتني على ثوب يبلى * ودرهم يسلى لقد وهبت لي من مودتك ما لا يبلى إذا أستعمل * ولا يصدأ إذا أهمل * ولا يفنى إذا بذل * ولا يخلق إذا ابتذل * على أني قد تعودت ضربات الزمان حتى صارت لا توجعني * والفت صواعقه ورواعده حتى صارت وإن قربت مني لا تسمعني * ونكبت حتى ما أبكي لنكبة * وفرحت حتى ما أضحك لفرحة * ولقد :

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

فها أنا الجريح المقطع * والفود المرقع * والغرض الذي رمي حتى دمي وضرب حتى نقب وأصابته السهام حتى لا يتوجع لها * ولا يحس بها * وطالما

أرادت الأيام أن تحركني فوجدت بحمد الله صنجة راجحة ونفساً متماسكة وقلباً لا تقلبه السراء ولا الضراء * ولا يغيره الدواء ولا الداء * ولقد أقبلت الأيام علي فما استقبلتها فرحاً ومرحا * وأدبرت عني فما شيعتها جزعاً ولا هلعاً * ولبست لكل حال لبوساً * أما نعيماً وإما بوساً * ومما أحمد الله تعالى عليه أن هذه الواقعة لم تثلم قدري * وإن كانت ثلمت وفري * ولا حلت عقد صبري وعزائي * وإن كانت حلت عقد ملكي وثرائي * واني أصبحت يوم اجتماع جيشها علي * وزحوف عساكرها إلي * والوجه طلق * واللسان ذرب ذلق * واللون مضيء مشرق * والقلب متماسك متمالك * ومدد الصبر متقاطر متدارك * لم ألاحظ الفائت بعين تدمع * ولم أقابل النازل بنفس تهلع * ولا عثر لساني ولا قلبي في ميدان كلام * ولا قصر همي ولا همتي عن غرض في مرام * ذكرت أيدك الله سلفي رحمهم الله تعالى وإنك بقيتي منهم * ومذكري بهم * ومسلي قلبي عنهم وصديق الوالد والد وإن لم يلد * وترب الولد ولد وإن لم يولد * ومن صادق أخاً ولم يصادق أباه فانما أخذه أبتر الذنب * مجهول الأصل والنسب ومن صادقه قبله سلفه فقد ضم على الحبل يديه * من كلا طرفيه * وعرف صديقه من جانبيه * رحم الله تعالى أولئك القوم الذين :

ورثت سيوفهم وبقيت فرداً وما نفع السيوف بلا رجال

فلقد فجعت منهم بخير سلف * وورثتهم خير خلف * أطال الله تعالى بقاءك على حالة أرضاها لك وأرضاك فيها * ولا أستزيدك عليها * وهذا الدعاء محال فاني لو رأيتك امتطيت السماكين وانتعلت الفرقدين * وملكت الخافقين واستعبدت الثقلين * وتناولت الشمس والقمر بيدين * ووطئت الفلك برجلين * ما بلغت ما أريد * وكنت أستزيد وأستعيد *

«وكتب إلى أَبي الحسن بن عبد العزيز قاضي جرجان وقد خرج منها» :

فان اك قد ودعت نجداً وأهله فما عهد نجد عندنا بذميم

جميع ما حصل لي بهذه الحضرة من تنزيل وإنزال * ومن إقبال علي وانثيال ومن قول جميل وفعال * فانما فعل بي * واتفق لي * لاحسان الوزير كان إلي * وتوفره كان علي * وبذله لي الرغائب التي لا تسمح بها الأنفس مثله ولا تزل إلا عن مثل يده فهو الذي قومني قيمة صارت لي بين الملوك قيمة عدل * وقضي لي بشهادة أصبحت في العباد والبلاد قضاء فصل * ونظر إلى أهل هذه الحضرة بعينه * ووزنوني بمثل وزنه * ووضعوني في الكفة التي وضعني فيها * وأهلوني للمرتبة التي أهلني لها * وعلموا أنه الحاكم الذي لا تنقض حكومته * والشاهد الذي لا تجرح شهادته * والرجل الذي لا خيار مع قوله ولا نظر مع أمره * ولا خلاف عليه * ولا رجوع إلا إليه * وإنه لا يشتري من المتاع إلا ما يخرج من نار الاختبار صريحاً صحيحاً * ولا يرضى من القداح إلا ما يخرج من كف المجيل معلى لا منيحاً * فضربوا على سبيكته * وسلكوا في طريقته * ونسجوا على منواله * وحذوا على مثاله فوصل إلى نواله * وإن كان لم يصل إلى ماله * وحصل لي بره * وإن لم يخرج به أمره * وشيعتني بركات حضرته بعيداً عنها * كما كانت تستقبلني وتكتنفني قريباً منها * فكل جميل أطرفته فمنسوب إليه * وكل خير رزقته فمن آثار لسانه ويديه :

إن تبوأت غير دنياي داراً وأتاني نيل فأنت المنيل

وإنما الملوك شعراء يتناقضون فعلا لا قولا * وفرسان يتسابقون أنفساً لا خيلا

فالحمد لله الذي جعلني أفارق تلك الحضرة فلا تفارقني عوائد فضلها * ولا ينحسر عني نصيبي من ظلها * وإياه أسأل أن يطيل بقاء الوزير على حالة أرضاها له فوالله ما أرضى له الأرض خطة * ولا السماء ظلة * ولا الدنيا خزانة ولا الشمس طلعة ولا الدهر خادماً ولا الفلك حاجباً ولا السعد رسولا ولا السيف قلماً وان يحرس على الدين جماله * ويبلغه في الدارين آماله *

* * *

«وكتب إلى بعض اصدقائه» :

كتابي وقد كنت أحب أن ينظر سيدي إلي وقد لبست جمال هذه الدولة وتشربت حالي ماء هذه الحضرة ورفعت طرفاً طالما غضضته * وبسطت باعاً طالما قبضته * فيعلم سيدي ان غراسه قد أثمر * ومراده قد تيسر * وإن علاجه حالي قد هزم الداء * وجلب الشفاء * بعدما أعيا الأطباء * وغلب الدواء * فان فرح الطبيب بعافية المريض أشد من فرح كل أخ قريب * وكل حميم وحبيب * الآن حين انقطعت عن الملوك وأبوابهم فقد كان لي عذر في ورود النهر * قبل ورود البحر * وفي الاجتزاء بالتيمم قبل وجود الماء الطهر * وعهد سيدي بي وانا ارتاد غير ارضي * وارتع في غير روضي * واطلب الرزق خارجا من داري فالآن قد نزعنا تلك الثياب * واغلقنا ذلك الباب * ونسخنا ذلك الكتاب :

وكنت زبيريا فاصبحت شيعة لمروان وارتد الهوى لابن بحدل

هذا وقد انثال علي من الخير بهذه الحضرة ما ترك بياني حسيرا * ولساني

قصيرا * والنعمة اذا زادت على الوظيفة مسكنة * والسرور اذا افرط مقطعة ومسكتة * والناطق اذا تحير ابكم * والشاعر اذا خرج عن مقدار استحقاقه مفحم * فلا زال السيد يبتدع برا * ويقصد بقوله وفعله خيرا * ويكفيه شرا * ونصره الله تعالى على دهره * فانه لئيم ظفره * قبيح في الاحرار اثره *

* * *

«وكتب بعد محنته ورجوعه إلى خراسان إلى كاتب خوارزم شاه وقد نكب»:

كتابي وانا بين محنة قد ادبرت * ونعمة قد اقبلت * وولي قد ملك * وعدو قد هلك * والحمدلله الذي ابتلى ثم ابلى فانعم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الاكرمين ورد كتابك ولست اقول غمني واهمني * بل اقول اعماني واصمني تذكر انك امتحنت وانت بريء * ونكبت وانت محسن لا مسيء * واي ذنب اعظم من ان تشكر بالفضل اهل النقص واي جرم اشنع من ان تنزل بالفهم فيما بين طبقات اهل الجهل وما للطائر الكبير والقفص الصغير وما بال الدرة اليتيمة * ترضى بالصدفة اللئيمة * وانما الادب جناح فهلا طرت به من الوكر الصغير * الى الوكر الكبير * وهلا اذ كملت آلتك * انتجعت بها مكانا تكمل فيه حالتك * وما نزلت بك هذه النازلة الا ليقلعك بها السعد من يد النحس من تلك البقعة الناقصة اهلا * المنبتة جهلا * فابشر ولا تتهم الله تعالى في مصالح خلقه * ولا تقنط من رزقه * فانه انما يرتاب المبطلون * ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون * واياك ان تقل هذه الحادثة غربك * او تكسر حدك *

او تضرع خدك * او تثلم ركنك * او تسيء بالله تعالى ظنك * فانما كانت صاعقة احرقت ثوبك * ومست بعضك * وسلم الله وله الحمد منها روحك وصان فيها لسانك وقلبك * ووراءك الدهر الطويل * وخلفك صنع الله الجميل * ووعده بجميل صنعه كفيل * وقد خرجت الى الدهر * من نوبة العسر * فهو غريمك الآن في اليسر * واذا رأى جلادتك على وقع سهامه * وصلابتك على تصريف ايامه * جاءك معتذرا * وهرب اليك مستترا * واسا باليمنى ما جرح باليسرى * ووزن عليك بالسنجة الكبرى * ما اتزن منك بالسنجة الصغرى * فانتظر الفرج فانه منتظر * واصبر فان الدهر لا يصبر *

* * *

«وكتب إلى أبي محمد عبد الرحمن بن احمد من نيسابور» :

كتبت الى الشيخ من داره التي طالما تصرفت بها على امره ونهيه * وتقلبت فيها بين افضاله وفضله * وحالي ببركته تعلقي بذيل الدولة السامية * وانتمائي الى الحضرة العالية * عن يميني السلامة وعن يساري العافية * ولا تزال كتبي ترد على الشيخ بكلام ان لم تكن في ادنى طبقات الجودة * كانت في اولى طبقات الرداءة * وإنما يروي الناس أحد الكلامين * ويتمسكون في الرواية بأحد الطرفين * فأما حسن جيد معجب * وإما رديء معجب * ولقد أولاني الشيخ من الصنع العميم * ومن الإحسان الحادث والقديم * ما تركني أهذي بمدحه * وأحتلم بوجهه * وأتصبح باسمه وأتفاءل بذكره * واحتلب ضرع الشعر بذكر بره * ولن أستعين على شكر تلك النعمة * ولا أمسك بيدي طرف تلك الخدمة * بمثل الاعتراف بالتقصير من الواجب *

والقصور عن إداء المواجب * وإنما النعمة مطية شرود ولن ترتبط بمثل الشكر ولن تنفر بمثل الكفر * وإنما الشيخ أب بر وأهل الأدب أبناؤه * وسمسار كبير وطبقات أهل العلم والفضل حرفاؤه * فمن أحسن إلى أحدهم فانما أحسن إليه * وأفضل عليه * واستحق المكافأة من لسانه ويديه * وليشكر عنا أهل الصنعة إذا أحسن بنا * وليعلم أنه قد حصل له ما حصل لنا * وقد أحسن إلى فلان في كذا والشيخ هو الذي مهد لي عنده موضعي * وسهل لي مسلكي * ووطأ لي في تلك الحضرة لساناً * وأقام لي بها ميزاناً * لا زال الشيخ راكباً كاهل الدهر * محكماً في الخير والشر * تخدمه الأنام بل الأيام * وترجوه الكرام كما تخافه اللئام * وتعشقه السلامة والسلام *

* * *

«وكتب إلى أبي منصور كثير بن احمد» :

كتبت إلى الشيخ من داره التي ما ينغصها علي إلا بعده عنها * وخلوها منه وقد كثرت كتبي إليه كثرة نعمه علي * وتواترت تواتر اياديه إلي * وعهدي بتفضل الشيخ يسلك طريق الابتداء والطريق محرم فكيف صار الآن لا يسلك طريق المكافأة والطريق معبد قد سمع الشيخ أخباري بالحضرة وأني أكتلت بالصاع الاوفى وأتزنت بالسنجة الكبرى * ضعف ما كنت وزنت بالسنجة الصغرى * واسترجعت باليمنى ما كنت أعطيت باليسرى * وفلان قد وصلت إلى بركات اتصالي به وأنا في غير حضرته * وأخذت ماله وإن لم يخرج من خزانته * واستغفر الله من حظي الدنيا كلها حضرته * والناس بأجمعهم رعيته * والملوك بأسرهم شيعته * والأحرار عياله وحاشيته *

فأما أعداؤه فمرحومون من ألم الحسد * ومقتولون بسيف الغم والكمد * سكوته أفصح من كلامهم * ومنعه اندى من نوالهم * وحجابه أحلى من لقائهم * وعبوسه أحسن من ابتسامهم * وغضبه أنفع من رضاهم * ويسراه أسد من يمناهم * وبخله افضل من عطاياهم

* * *

«وكتب إلى أَبي القاسم المزني وقد صالح أَخاه» :

كتابي وإنما الشيخ باز عتيق كان طار عن أهله * وفرع عميم كان انقطع من أصله * فردته أيام السعادة إلى بيته * وضمت إتفاقات الإقبال بعضه إلى بعضه * ونعم المعلم الدولة ونعم الدليل السعد والسعادة وأنا أعرف الشيخ معرفة يقين وغيري يعرفه معرفة ظن * وأنظر إليه بعينين وسواي ينظر إليه بعين * والرجال كثير ولكنهم قليل * والدهر بأشخاصهم جواد وبحقائقهم بخيل * وقد كنت أحسب أني إذا هربت من نعمته علي * وانهزمت من عساكر احسانه إلي خفت رقبتي من طوق صنائعه * وخلت يدي من بعض ودائعه * وتنفست إلى الفراغ مدة واسترحت من تواتر الاعباء وتناسق النعماء * ولو ساعة واحدة * فاذا نعمته لي بمرصد حيث كنت * وعلى مدرجتي أينما قطنت أو ظعنت * أهرب منها وتتبعني * وأرحل عنها وتشيعني * فمنها الطلب * ومني الهرب * فلا عدمتها طالباً * ولا زلت منها هارباً * ولا زال الشيخ يستقبل باحسانه كل نازل * ويشيع به كل راحل * وأطال الله بقاءه على حالة ترضيني له وفيه فوالله ما أرضى له إلا بالرضى * ولا أنزل فيه الاوراء الغاية القصوى * ولا أستعظم له ملك

الدنيا ولا ملك الورى * ولا تزال كتب الشيخ ترد بما يحيي ميت مالي * بل ميت آمالي * وتطري خلق حالي * وترد الماء فيما نضب من جمالي * ولسان العناية ناطق ووسم الاحسان على الأحوال لائح * وطريق الجميل نهج واضح * وللشيخ صنائع في الناس أرجو أن لا أكون أعياهم لساناً * ولا أقصرهم بالشكر بيانا * ولا أسواهم لنعمته جوارا ولا أقلهم بأعبائها نهوضاً ومن كبر الانسان كبر شكره * ومن شرف الكلام شرف من رواه ونشره * وإنما السيد بطاعة عشيرته * والأمير بصلاح رعيته * والممدوح بالسنة شيعته *

* * *

«وكتب رحمه الله» :

طالت محنة فلان حتى كأن حبسه الأبد * الذي ليس له أمد * وكأن عطبه يوم القيامة الذي ليس له غد * وأني أكره للسيد أن يكون زحلي خطوة العفو جمادي حوكة الصفح لا ينحل عقده * ولا تتحامى عن فريسته يده * فان ذلك يقوي عزم عدوه على مقارعته * ويثلم رجاء وليه لمراجعته * ولعمري أن الاسير لكبير وأكبر من الأسير من أسره ثم أعتقه * وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه *

«وكتب أيضاً» :

تركي مكاتبة الشيخ وهي معترضة لي غم وحسرة وإقدامي عليها قبل استطلاع رأيه فيها خرق وعجلة ولما اكتنفني الحالان سلكت طريقة بينهما * متوسطة لهما * فاقتصرت من الكتاب على الرقعة ومن التفصيل على الجملة فان أكن قد أحسنت فالقليل من الاحسان يقبل * وأن أكن أسأت فالقليل من الاساءة أمثل * موصل الرقعة فلان وهو تام في آلته * ناقص في حالته * جديد ثوب الجمال * خلق ثوب الحال * حال من الأدب * عاطل من النشب وسبيله أن يوزن في كفة كماله * لا في كفة حاله *

* * *

«وكتب أيضاً» :

تأخر كتابك يا سيدي فطرق لسوء الظن طريقاً إلى وفائك * وفتح للتهمة باباً إلى اخائك * وأني لأكره الود يعمره التلاقي * ويخربه التنائي * وأبغض الصديق يضع مقاليد البغض والحب * في يدي البعد والقرب * وأنا الذي أصاب عهدك بعينه * وأفسدك بحسن ظنه * ويا عجبا للدهر كيف فطن لمحلك من قلبي * وكيف إطلع على غيبي * وما زال الدهر يقرطس سهمه في كل شيء أحببته * ويعارضني في طريق كل مراد طلبته * حتى لو أحببت الموت لأبقاني ولو أردت الحرمان لأعطاني * ولو آثرت الفقر لأغناني * ولو عاديت الباطل لوالاه وعاداني ولقد :

عجبت للدهر في تصرفه وكل أفعال دهرنا عجب
يباين الدهر كل ذي أدب كأنما ناك أمه الأدب

* * *

«وكتب إلى أَبي القاسم الحسن بن علي» :

قطع كتابي عن الشيخ لتصاريف الأحوال إليه *وتكون الأسفار والأطوار اليه * لأنه كان مشغولا بكتائب الأعداء * عن كتب الأولياء * وبمقارعة الأمراء * عن مطالعة الأدباء * والسيف أصدق انباء من الكتب فلا جرم انه قد اسفرت آماله عن المساعي الغر * وعن الآثار الزهر * وعن الفتح والنصر * فافترع مملكة طالما خطبت فما نكحت * وطلبت فما وجدت * بكر فما افترعتها كف حادثة * ولا ترقت إليها همة النوب وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها * كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب وعلى قدر الهمة تكون مقادير الآثار * وفي دون القيمة يكون افتراع الابكار وشتان بين من افتض عذارى الجواري * وبين من افتض عذارى النواحي * لا بل شتان بين من صارع مملوكه تحت اللحاف * وبين من صارع مملكة تحت الرماح والأسياف * لا بل شتان بين من أفعاله ثيبة وطريقة مسلوكة قد سبق إليها * وشورك فيها * وبين من :

ترفع عن عون المكارم قدره فما يفعل الفعلات إلا عذاريا

والشيخ أدام الله عزه على قضية فعله وشريطة فضله * ذو الكفاية للسبق في الحلبتين * والتحلي بالحليتين * فهو فارس القلم واللسان * ثم رب السيف والسنان *

قد كان يوم ندى بجودك باهرا حتى أضفت إليه يوم ضراب
وبديهة أنت ابتدأت طريقها لولاك لم تكتب على الكتاب

والحمد لله تعالى الذي الحق زماننا بالأزمان * وإن فضل الزمان راجع إلى فضل أهل الزمان * وعلى مقادير الأيام * تكون محاسن الأنام * وإن ذكر أهل العراق في رجالهم الفضل بن سهل ذا الرياستين * وعلي بن سعيد ذا القلمين * واسحق بن كنداج ذا السيفين * وصاعد بن مخلد ذا الوزارتين * وقبلهم طاهر بن الحسين ذا اليمنين * ذكرنا ذا الكفايتين * وزدنا عليهم للواحد إثنين * لأن أولئك إنما ضربوا بأسيافهم والدنيا شابة والخلافة مقبلة والأيام مساعدة والسعود قائمة * والنحوس نائمة * ونحن دفعنا إلى زمان هرمت فيه الدولةوفترت الدعوة وكسدت السلعة وبطلت الصنعة وضاقت المملكة وكل التعلم * وقل الدينار والدرهم * وأنشدنا :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم واتيناه على الهرم

وإنما الناس بالإحسان * والإحسان بالسلطان * والسلطان بالزمان * والزمان بالامكان * والامكان على قدر الكيان :

وأنت عبيد الله أكبر همة وأكرم من فضل ويحيي وخالد
أولئك جادوا والزمان مساعد وقد جاد ذا والدهر غير مساعد

هناه الله تعالى بما أولاه * وبارك له فيما أعطاه * وأراه في أولاه واخراه * وفيمن والاه وعاداه * ما يريد ويهواه * وآتاه مما يسمعه ويراه ما يقترحه ويتمناه * وأراني فيه ما يرضاه وأرضاه * حتى أرى الدهر وهو عبده ومولاه * والسيف يتبع مراده وهواه * والإقبال وهو يمسك طريق خطاه والموت وهو سلاحه ويداه * يفني من أفناه * ويبقي من أبقاه * ويرى في الآمال والآجال ما يراه * وأطال بقاءه * وجعلني فداءه *

* هذا وقد تناهى طبع هذه الرسائل * التي لم يبلغ شأوها في الفصاحة * سحبان وائل * بل هو عندها أدنى من باقل * ولو ظهرت في أيامه لمد إليها * كف مستمد سائل * ولو كانت في عصر قيس بن ساعدة الأيادي لكان لها عليه جميل الأيادي فلعمري أنها نسخت ما تركت الأوائل * كلمة لقائل * واحكمت كم ترك الأول للآخر والماضي للغابر * فليكن الأديب لها نعم الآخذ * وليعض عليها بالنواجذ * فانه يبلغ بها في صناعته أشده * وتكون له في الانشاء * أوفر عده * وكان طبعها على هذا الوجه الحسن * وتمثيلها في هذا القالب المستحسن * في مطبعة * الجوائب البهية في القسطنطينية العلية * وقد تم طبعها * وعم نشرها * في أوائل شهر شوال من سنة ١٢٩٧ هجرية * على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

طبع هذا الكتاب على مطابع

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

بيروت - شارع سوريا

تليفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠